يوسف السباعي

أرض النفاق



مكتبة مصر

يوسف السباعي

أرض النفاق

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

للمـؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(روايـة ...... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(روايـة ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إنى راحلة	(روايـة ..... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥٠)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(روايـة ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زعرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية . . . . . ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية . . . . ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية . . . . . ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية . . . . . ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات . . . . ١٩٥٧)
من حياتى	(» . . . . . . ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» . . . . . . ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات . . . . ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» . . . . . . ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» . . . . . . ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية . . . . ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية . . . . . ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات . . . . ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» . . . . . . ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية . . . . . ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات . . . . ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة . . . . . . ١٩٧٣)

الإهداء

إلى خير من استحق الإهداء
إلى أحب الناس إلى نفسي
وأقربهم إلى قلبي
إلى يوسف السباعي
ولو قلت غير هذا
لكنت شيخ المنافقين
من أرض النفاق

يوسف السباعي

مقدمة

أهو الغرور الذى يبعثنى إلى أن أهدى كتابى إلى نفسى ؟

أم هى الأنانية ؟

لا أكذبكم القول .. أنى — ككل إنسان — أنانى مغرور .. ولكننى أؤكد لكم أن ذلك لم يكن هو الدافع إلى هذا الإهداء الجرئ .. وأسميه جريئًا لأنها لا شك جرأة منى — وأنا المنافق الذى طالما بدوت للناس متواضعًا .. منكرًا لذاته — أن أفضح نفسى فأخصها .. دون بقية خلق الله .. بإهداء الكتاب .. وأتهمها علنًا .. بأنها أحب الناس إلى .!

ما الذى دفعنى إلى هذه المغامرة ؟. لمَ لم أهد كتابى إلى عزيز لدىّ ؟ والأعزاء كثيرون فى أرض النفاق .. فأوفر على نفسى ما قد يوجه إلىّ من لوم وسخرية ؟.

دفعنى إليها أمران .. أولهما .. أنى لا أود أن أكون — كما قلت فى الإهداء — أول المنافقين فى أرض النفاق .. وأنى لا أرغب فى أن أتهم بأنى أنهى عن خلق وآتى مثله .. أو أنى آمر الناس بالبر وأنسى نفسى .. بل أريد أن أكون أول من يخلع رداء النفاق .. فى أرض النفاق .. فأبدو على حقيقتى .. أنانيًا مغرورًا .

وثانيهما .. أنى أود أن أكرم نفسى وهى على قيد الحياة .. فلشد ما أخشى ألا يكرمنى الناس .. إلا بعد الوفاة .. ونحن شعب يحب الموتى .. ولا يرى مزايا الأحياء حتى يستقروا فى باطن الأرض .

إنى أريد كل شىء.. أريد ما بالدنيا وأنا فى الدنيا.. أما الخلود..

والذكرى .. والتاريخ .. فما حاجتى إليها .. وأنا عظام نخرة .. تثوى فى قبر بقفرة .

ما حاجتى إلى تقدير الأحياء .. وأنا بين الأموات ؟.. ما حاجتى إلى أن يذكرونى فى الدنيا وأنا فى الآخرة !! ويمجدونى فى الأرض وأنا فى السماء !

أنى أبغى المديح الآن .. والتقدير الآن .. وأنا أسمع وأحس .. فما أمتعنى شئ كسماع المديح والتقدير .. قولوا عنى مخلصين .. وأنا بينكم .. إنى كاتب كبير قدير شهير .. وإنى عبقرى .. ألمعى .. لوذعى .

فإذا ما مت ، فشيعونى بألف لعنة ، واحملوا كتبى فأحرقوها فوق قبرى ، واكتبوا عليه : « هنا يرقد أكبر حمار .. أضاع عمره فى لغو وهذر» .

إنى لاشك رابح كاسب .. لقد سمعت مديحكم وأنا حى محتاج إليكم .. وصممت أذنى عن سبابكم وأنا ميت ، أغنانى الله عنكم وعن دنياكم .

هل علمتم لِمَ أهديت الكتاب إلى نفسى ؟. لأنى أحب نفسى وأقدرها ، ولدىّ الجرأة على أن أقول ذلك .

إليكم الكتاب بعد هذا .. لقد حاولت جهدى أن أكون فى كتابته .. كما كنت فى إهدائه .. غير منافق ، وأن أكتب فيه بما استطعت من الصراحة .

ولست أزعم أنى نجحت تمامًا .. فهناك موضوعات ، لم أستطع طرقها . وهناك سطور شطبتها بعد أن كتبتها .. ولكن لم يكن من ذلك بد ، على الأقل لكى يمكن للكتاب أن يرى النور ، ولكى يمكن لكم أن تقرءوا الكتاب .. هل فهمتم ؟!

يوسف السباعى

(١)
تاجر أخلاق

النزاهـــة والعفـــة والمروءة والتضحية !!
أوتظن أن هذا هو ما يدفع بالمرء إلى مرتبة الزعماء فى هذا الزمن ؟.. هـل تظن أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوافر فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟!

تاجر أخلاق بالجملة والقطاعى ...

« المحل له فروع فى جميع أنحاء للعالم »

أدهشتنى اللافتة .. كما لا شك أنها تبعث الدهشة فى نفس كل من يراها غيرى .. فما رأيت من قبل تاجر أخلاق ، وما سمعت قط أن الأخلاق تباع لا بالجملة ولا بالقطاعى .

وهززت رأسى فى حيرة .. وخيل إلىّ أنى قد أخطأت القراءة فعدت مرة ثانية أحقق فيها النظر وأمعن فى قراءتها مرة بعد مرة .. فوجدت أنى لم أخطئ فى حرف واحد ، وأن الرجل حقًا تاجر أخلاق .. أو على الأقل هذا هو ما يدعيه .

كان الوقت بعيد الظهر .. وقد انتهيت من تناول وجبة دسمة شهيـة .. عمادها : الأرانب والملوخية .. وأركانها ورق العنب المحشو ، وطبق مـن الدمعة .. وحواشيها كمية لا بأس بها من سلطة الطحينة والخيار المخلـل ..

وخاتمتها شقة مثلجة من بطيخة « شليان بلاك » أصلى .

انتهيت من الغداء .. وما كان بودى أن أنتهى .. فشتان عندى بين مباشرة الغداء والانتهاء منه .. وشتان بين حالتى فى أثناء الغداء وحالتى بعده .. ولا سيما إذا كان غداء صيف وملوخية بالذات .

فأنا فى الغداء صائل جائل .. مكر بلا فر .. مقبل بلا إدبار ، كأنى الحجاج فى قوله : « لا يقعقع لى بالشنان » ولا يغمز جانبى كتغماز التين » لا أترك ميدان المائدة حتى آخر طبق وآخر لقمة .

أما بعده — أعنى بعد الغداء — فإنى خائر القوى ، مسترخى الأطراف ، طريح مكدود ، خامل الحس ، متبلد الذهن .. فلقد صرعتنى الطباق بعد أن أفنيتها .. وهزمتنى بعد أن كدستها فى الوعاء الذى ما ملأ ابن آدم شرًا منه ، وأحسست بثقل فى معدتى كأنى قد ملأتها بالحجارة .

وهكذا جلست كعادتى بعد الغداء .. وقد أحسست بوطأته .. وشعرت بالنوم يهاجمنى بلا رفق ولا هوادة وكرهت أن أستسلم له .. فما كان يتعبنى شىء قدر النوم بعد أكلة ثقيلة دسمة .

وخرجت إلى الشرفة ، وتمددت فى مقعد مريح .. وأمسكت بإحدى الصحف أستعين بها على طرد النوم .. ولكنى كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار .. فلقد ازداد ذهنى بالقراءة تبلدًا ووجدت النوم يتسلل إلى أجفانى تسلل الحب إلى القلوب الخالية .. وأخذت أنظر إلى الصحيفة فأجد حروفها تتراقص ، وتترنح ، وتتداخل ، وتتشابك ، وإذا بى أقرأ منها كلامًا هو أبعد ما يكون عن حقيقتها ، كلامًا من وحى الذهن التائه الحالم .. وأحس برأسى يسقط فجأة على صدرى ، أو على كتفى ، فأهب من غفوتى ، وأعود إلى اليقظة والانتباه .

ولست أدرى كم من الزمن دامت تلك الغفلات المتقطعة ، التى كنت أستغرق فيها .. عندما تنبهت فجأة وعزمت على أن أخرج للسير خارج الدار .. بعد أن أيقنت أنه لا سبيل لمقاومة النوم مع استمرار الاستلقاء على الأريكة فى هذا الوضع

المريح ، وبعد أن أيقنت أن القراءة هى خير منوّم يتناوله إنسان فى مثل حالتى .

وهكذا طردت النوم من عينى ، وتحاملت على نفسى ، ونهضت حاملا الوعاء المكدس الممتلىء .. فارتديت قميصًا وبنطلونًا ، وحذاء من الكاوتش ؛ وتناولت عصا خفيفة ، كنت دائمًا أستعملها كرفيق سير ، ووضعت على رأسى قبعة من الفل ، وعلى عينّى منظارًا أسود ، وغادرت الدار .

كنت أقطن فى أحد أطراف المدينة .. وكانت دارى تقع فى أول طريق قد تناثرت فى بدايته بضعة منازل صغيرة ، وامتدت على جانبه أشجار البانسيانس التى تتكاثف أوراقها صيفًا ، تكسو هاماتها أكداس من الزهور الحمر المشتعلة المتأججة .

سرت فى الطريق ، وجاوزت الدور إلى الخلاء ، وهبت علىّ نسمات ، ملأتنى نشاطا .. فأحسست بخمول الجسد قد تطاير، وركود الذهن قد تبدد ، وخفت معدتى شيئًا فشيئًا ، فلم أعد أحس بذلك الثقل الذى كنت أحس به ، فأمعنت فى السير .

وطال بى السير .. حتى وجدتنى أتوقف أمام حانوت قد قام على أحد جوانب الطريق .

وتملكنى الدهش .. فما كنت قد رأيت الحانوت من قبل .. رغم تعوّدى السير فى الطريق ، وزاد من دهشتى أن البقعة التى أقيم فيها الحانوت كانت مقفرة خالية ، لا يكاد يمر بها إنسان ، وكان من الغباوة والحمق أن يحاول تاجر أيًا كان أن يتخذ من البقعة المقفرة سوقًا لتجارته .. إلا إذا كان قد نوى أن يبيع بضاعته لنفسه أو للجن والشياطين .

واقتربت من الحانوت لأتبين أى نوع من الحوانيت يكون ، ولم يبد على مظهره الخارجى ، ما يستدل منه على أنه مقهى من تلك المقاهى الخلوية ، التى تقام فى أطراف المدينة ، والتى يلجأ إليها الناس لينعموا بالهدوء والسكينة .. إذ لم أجد أثرًا لمناضد أو مقاعد صفت خارجها ، ووقفت أمام الحانوت ، ورفعت

بصرى إلى أعلى ، فقرأت اللافتة العجيبة : « تاجر أخلاق .. بالجملة والقطاعى » .

وعلت وجهى ابتسامة عريضة ، وانطلقت من فمى ضحكة خافتة :

« تاجر أخلاق » !!

هذا رجل مجنون ولا شك ، فما خطر ببالى قط قبل أن أرى اللافتة أن الأخلاق بضاعة يمكن الاتجار فيها .

أم ترى الرجل نصابًا محتالا ، وأن الاتجار بالأخلاق قد أضحى نوعًا جديدًا من الدجل وطريقة مبتكرة للضحك على السذج والبسطاء ؟

ولِمَ لا .. وهل يصعب على الرجل أن يجد من أصحاب الجهالة زبائن يتاعون بضاعته ؟!

ولكن الرجل محتال غبى ، ودجال أحمق ، فما أظنه فى تلك البقعة النائية الخالية يجد أى نوع من أنواع الزبائن ، لا جاهلا ولا غير جاهل ، لقد كان خيرًا له أن يشيد حانوته فى وسط المدينة ، أو فى حى من أحيائها العامرة بالمجاذيب والمخابيل .

ودفعنى حب الاستطلاع إلى التقدم داخل الحانوت فقد كانت المسألة تستحق الاستطلاع ، ولم أشك قط فى أننى أمام مورد تسلية ومنبع فكاهة ، وأن بصاحب الحانوت لوثة أو خبلا أو مسًا من فلسفة .

ووقع بصرى على صاحب الحانوت .. وقد قبع بين كوم من (الشوالات) المنتفخة ، وأطرق برأسه .. واستغرق فى صمت عميق .. ووقفت أتأمله برهة ، فوجدته كهلا قد وهن منه العظم ، ورق الجسد ، وغطى شيب رأسه (بطاقية) بيضاء ، وتدلت لحيته الطويلة على صدره .. وبدت عروقه الخضر بارزة تحت جلده الأبيض الرقيق ، وغطى جسمه بعباءة سوداء ، ودس قدميه فى (مركوب) أحمر .

ولم أجد فى منظر الرجل ما يبعث على الخشية .. وماذا أخشى منه وهو على

حاله تلك من الوهن والعجز . وتقدمت خطوة أخرى فأحس بى الرجل وانتفض فى مقعده ، فلقد باغتته رؤيتى ، وهو الذى لم يتعود أن يرى أحدًا يطرق حانوته ، فقنع من البيع والشراء بأن يقبع فى صمت ويأس بين أكداس بضائعه المنتفخة المكتظة ، لا يأمل فى شار أو زائر ..

وأقرأته السلام فى أدب واحترام خشية أن يكون جنونه من نوع شرير خطر ، ولكن الرجل رد على تحيتى فى سكون وتؤدة ، جعلانى أبدل بريبتى فى عقله ريبة فى عقلى ، وجعلنى أراجع نفسى مرة ثانية .. وعاودنى الشك فى صحة قراءتى اللافتة ــ رغم قراءتى لها ما يربو على المائة مرة ــ وقلت لنفسى : إن البصر خدّاع ، وإنه لا شك قد خدعنى فى قراءة اللافتة .. فأبداها على غير حقيقتها .

وأصابتنى حيرة شديدة .. ودفعنى الشك إلى التردد ، فلقد تصورت ما يمكن أن يقول عنى الرجل ، وهو على مثل ما يبدو من عقل وحكمة ، ولا يعدو أن يكون تاجرًا عاديًا .. لأى نوع من أنواع البضائع .. تاجر غلال .. تاجر عطارة .. أى شىء من هذا القبيل ، تصورت ما يمكن أن يقول عنى ، إذا ما سألته أن يبيعنى « أخلاقًا »..

ليتصور أى إنسان ماذا يمكن أن يقول عنه أى تاجر فى الطريق إذا ما ذهب إليه وسأله أن يبيعه أخلاقًا .

مجنون ولا شك !!

وهكذا لم أر خيرًا من التحفظ فى حديثى مع الرجل ، وأن أحاول أن أتبين من خلال الحديث حقيقة بضاعته ، وهل هى بضاعة عادية ، كغيرها من البضائع التى يتجر بها الناس .. أم هى حقًا كما تقول اللافتة : « أخلاق بالجملة والقطاعى ».

وبدأته الحديث قائلا :

ــ سلامات يا حاج .. كيف الحال ؟

وهز الرجل رأسه ببطء :

— رضا .. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

— كيف حال السوق عندكم ؟

— والله « موش ولا بد ».. الحال راكدة ، والسوق نائمة ، والبضائع مكدسة كما تراها .

— ولكن ما سبب فى هذا الكساد ؟

— من يدرى !

— لم لا تعلن عنها ؟ إن الإعلان قد أضحى شرطًا أساسيًا للنجاح ، إننا قد أضحينا فى زمن الإعلان . الإعلان عن كل شىء .. عن البضائع والأعمال ، وعن الأجساد والرجال ، فما بالك لا تعلن عن بضاعتك ؟

ورأيت الرجل يبتسم فى سخرية :

— أنا أعلن عن بضاعتى ؟. أعلن عن شىء لا يجهله مخلوق .. أعلن عن شىء لا يستغنى عنه إنسان .. هذا والله هو الجنون .

و لم أجد فى قول الرجل ما يدلنى على نوع بضاعته ، فقد كان قوله عامًا ، ينطبق على كثير من أنواع البضائع .

و لم أجد بدًا من أن أتجه إلى بغيتى من أقصر طريق ، فقلت للرجل ببساطة :

— هل أستطيع أن أجد لديك بعضًا من ..

و لم أتمم حديثى ، أو أفسر مطلبى ، بل أشرت إلى الأكياس إشارة عامة لا تحدد شيئًا بالذات لعل الرجل نفسه يسمى شيئًا مما يبيع .. ولكنه لم يزد على أن أشار برأسه بالموافقة علامة على أنه يوجد لديه « بعض من .. »

وعدت أستدرج الرجل بقولى :

— من أى نوع ؟

— من جميع الأنواع .

— أيمكننى أن أرى بعضها على سبيل العينة ؟

— البضاعة أمامك . قلب كما تشاء .

ووجدت أن المسألة قد حلت ، فليس علىّ إلا أن « أدب » يدى فى كل شوال فأفحص ما به .. ولا شك بعد ذلك أنى سأعرف ماذا يبيع الرجل .

ومددت يدى فى أقرب الأكياس إلىّ فوجدت به حبات صغيرة كحبات الكسبرة الجافة .. وأخذت أفحصها فحص خبير عليم ، كأنى أعلم مقدار جودتها أورداءتها ثم أعدت العينة إلى الكيس .. ومددت يدى فى كيس آخر ، فوجدت به مسحوقًا أصفر اللون ككبريت العمود ؛ ورفعت منه حفنة إلى أنفى ، فلم أجد به رائحة الكبريت ، وانتقلت إلى كيس آخر .. فوجدت به مسحوقًا أبيض ، أشبه بالملح .. وهكذا أخذت أنقل يدى من كيس إلى كيس ، والرجل يلحظنى من طرف خفى .

وفحصت معظم ما فى الأكياس التى كانت فى متناول يدى ، فلم يزدنى الفحص إلا حيرة ودهشة ، إذا كانت الأكياس لا تحوى إلا مساحيق ومواد شديدة الشبه بتلك التى يبصرها المرء فى حانوت العطار ، ولا يعرف لها اسما .

وانتهى بى الأمر إلى أن أقنع نفسى أن الرجل لا بد وأن يكون عطارًا بعقله لوثة بسيطة ، أو كما يقولون « هفة » تجعله يصر على أن يسمى عطارته « أخلاقًا » ولا أظنه الأول من نوعه ، فقد سبق لى أن صادفت بائع « فول مدمس» لا يبيع بضاعته إلا إذا طلب منه الشارى « لوز » وبائع « طعمية » لا يطيق أن يطلق أحد على بضاعته سوى « كباب » ، ولست أشك فى أنها طريقة لتجويد البضاعة والترويج لها ، أو هو نوع من التشبيه الذى يحذف فيه المشبه ويبقى المشبه به ، كقولى : إذا ما رأيت حسناء : « رأيت قمرًا » .. أو إذا رأيت بعض صحبى « رأيت حميرًا ».

وحاولت أن أجد لنفسى صلة بين العطارة والأخلاق ، حتى أبرر تسمية الرجل لنفسه تاجر أخلاق .. فلم أستطع .. فاكتفيت بأن قلت لنفسى « لله فى خلقه شئون ».

كل هذا طاف برأسى فى ثوان معدودات وأنا أدس يدى فى الأكياس

وأخرجها بيضاء من غير سوء .

وجلس الرجل يرقبني وأنا أنقل يدى من كيس إلى كيس .. وأخيرًا سألنى فى هدوء بعد أن أبصر حيرتى :

ـــ ماذا تريد ؟

وأسقط فى يدى .. وزادت حيرتى .. ولكنى سألته بسرعة ، مشيرًا إلى أحد الأكياس :

ـــ أى نوع هذا ؟

وأجاب الرجل ببساطة متناهية :

ـــ شجاعة .

و لم أستطع أن أمنع ضحكة أفلتت من شفتى ، وسألته دهشًا :

ـــ شجاعة ؟!

من يتصوّر هذا ؟.. إن المجنون حقا تاجر أخلاق .. إن بصرى لم يخدعنى فى قراءة اللافتة .. وما عاد هناك بعد قوله أى شك فى نوع بضاعته .

و لم يرتح الرجل كثيرًا لما بدر منى من ضحك ، ونظر إلىّ نظراته إلى طفل يريد أن يلهو ، وقال مؤنبًا :

ـــ يا بنى .. ليس لدىّ وقت للمزاح .. ابحث لك عن مكان للعبث غير هذا .. إذا كنت لا تريد الشراء فخير لك أن تنصرف .

و لم تكن لى بالطبع أيه رغبة فى الانصراف ، فقد بدا لى أن المسألة مسلية جدًا .. وأن الرجل يستحق أن يقضى معه المرء بعض الوقت .. فتصنعت الجد وكسوت وجهى مظهر الغضب .. وقلت بلهجة تشوبها الحدة كأنه قد جرح كرامتى :

ـــ أى عبث هذا وأى مزاح ؟ إنى أريد الشراء .. إن وقتى لا يتسع للتسكع فى الحوانيت حتى ولو كانت حوانيت أخلاق .. هل تظن أنى أقطع كل هذه المسافة من أجل العبث والمزاح ؟

وخدع قولى الرجل .. فبدا عليه الأسف وأطرق متمتما ببعض كلمات الاعتذار .. و لم أر خيرًا من الاستمرار فى هذا الجد ، ومن كتمان زوبعة الضحك التي تصطخب فى صدرى ، ووضعت إحدى يدى فى جيبى .. وأشرت بالأخرى فى شىء من الثقة والكبرياء إلى « شوال الشجاعة » وقلت فى منتهى الجد .

ـــ زن لى رطلا .

وأجاب الرجل بنفس الجد .. ولمحت فى عينيه شيئًا من التبرّم بجهلى المطبق :

ـــ ليس بالرطل .

ـــ إذًا .. أقة .

ـــ ولا بالأقة .

ـــ كيلو ؟!!

وهز الرجل رأسه فى استنكار .. فعدت أقول فى شبه اعتذار :

ـــ إذًا .. اكتل لى قدحًا .

ـــ ولا بالقدح .

وبدت علىّ الحيرة .. وساءلت نفسى : إذا كان المخبول ينوى أن يبيعنى ذلك المسحوق بالواحدة فيعد علىّ الذرات ، ولكن الرجل أنقذنى من حيرتى ليوقعنى فى حيرة أدهى وامر ، فقال بلهجته الجادة :

ـــ نحن هنا لا نزن بالرطل ، أو نكيل بالقدح .. إن مقياس البيع هنا بالزمن .. فيمكنك أن تأخذ مقدار شجاعة يوم .. أو عشرة .. أو إن شئت ما يكفيك شجاعة مدى العمر .

و لم أحاول مناقشته خشية الزلل ، وخشية أن أغضبه فيطردنى من الحانوت ، وسألته عن سعر شجاعة عشرة أيام ، فأجابنى :

ـــ الحساب ليس الآن .

ـــ أتبيعون الشجاعة .. « شكك » ؟

ـــ سمه ما شئت ، ولكننا لا نقبض هنا ثمنًا .. فالحساب يوم الحساب .

وهنا كان من أشق الأمور على نفسى أن أحاول كتمان الضحك ، ولكننى استطعته فى النهاية .. فتغلبت على رغبة الضحك .. وزدت من مظهر الجد .

و لم أشك فى أن الرجل لا يمكن أن يكون « نصابًا » ما دام لا ينتظر الثمن إلا يوم الحساب .. وأحسست أنه لا مانع عندى بتاتًا ـــ ما دام الرجل يعطى ولا يأخذ ـــ أن أجرب كل بضاعته ، وأى ضرر هناك فى أن آخذ من كل شوال حفنة فألقيها فى الطريق .. ثم أدفع الثمن للمخبول يوم الحساب .. لو قابلنى يوم الحساب .

وطلبت من الرجل أن يعطينى عشرة أيام شجاعة . وقام الرجل من مكانه فاتجه إلى صندوق أخرج منه معيارًا صغيرًا ، أخذ يعبئ بواسطته من مسحوق الشجاعة فى قرطاس من الورق . فلما انتهى من التعبئة ، مد يده إلىّ بالقرطاس قائلا :

ـــ هذه شجاعة عشرة أيام .. إن استعماله سهل يسير ، فليس عليك إلا أن تذيب الكمية فى كوب من الماء القراح ، وتقلبها جيدًا ، ثم تجرعها مرة واحدة .. لا تخش شيئًا .. إن طعمها مستساغ .. وليس بها أى أثر من مرارة .. إن مفعوله أكيد وسريع .. ربع ساعة فقط .. ثم تظهر آثاره .

وهزت رأسى متسائلا :

ـــ وما هى آثاره ؟

ـــ الشجاعة .. الشجاعة بجميع أنواعها .. ستصبح رجلا شجاعًا لمدة عشرة أيام .. فإذا أعجبك الحال وسرّك أن تكون رجلا شجاعًا فاحضر إلىّ قبل انتهاء الأيام العشرة .. حتى أعطيك جرعة أخرى .

و كان الرجل يتكلم بلهجة ملؤها الجد والإخلاص .. حتى أدخل فى روعى أن المسألة قد تكون على شىء من الحقيقة .. وأننى قد أضحى فعلا ـــ إذا ما تناولت مسحوق الشجاعة ـــ رجلا شجاعًا .

وسألت نفسى لِمَ لا أجرب .. فقد يصح قول الرجل ، وهو فيما يبدو لى رجل طيب شديد الإخلاص .. ليس به — فيما عدا تجارته للأخلاق — أى أثر لجنة أو خبل ، فهو هادئ وقور ، رزين مهذب .

وعزمت فى نفسى أن أجرب المسحوق فعلا .. ولكن خطر لى فجأة خاطر أصابنى برجفة .

من يدرينى .. أن المسحوق ليست به مادة سامة .. وأن الرجل مجرم شرير .. من غواة القتل ، وأنه يقضى على ضحاياه بتلك الطريقة العجيبة فيعطيهم المسحوق على أنه « أخلاق ».. ويخدعهم بطيبته وإخلاصه .. فيقتنعون بصدق قوله ، ويذهبون إلى دورهم حاملين المسحوق ويتناولونه دون أن يخبروا أحدًا ، خشية أن يسخر منهم .. فيقضى عليهم .. فى التو والحين ، ويذهبون ضحية المجرم الشرير ، دون أن يحس أحد بما اقترف من جرم .

ونظرت إلى القرطاس ، ثم إلى الرجل .. وبدا من مظاهر طيبته وإخلاصه ما بدد كل وساوسى ، ولكنى قلت لنفسى : إن « الحذر لا يمنع القدر » وقلت للرجل على سبيل التهديد المستتر :

— أليس بهذا المسحوق أية مواد غريبة غير الشجاعة ، مواد مخدرة مثلا .. أو مواد سامة ؟

ونظر إلىّ الرجل فى كثير من الدهش والاستنكار ، وقال فى سخرية :

— مواد مخدرة ؟.. ومواد سامة ؟.. أهذا كلام تقوله لتاجر أخلاق .. سامحك الله يا سيدى .. دع القرطاس وانصرف من فضلك .

— لا تغضب يا حاج .. إننى أسأل على سبيل المزاح ليس إلا .. يجب عليك أن تكون رحب الصدر مع زبائنك .. يجب أن تكون صبورًا .. أليس عندك شوال صبر . !

— عندى بالطبع .

— خذ منه جرعة تحتمل سخافات الزبائن .

ـــ أخذت يا سيدى .. أتظن أنى كنت أحتمل الجلوس كل تلك الأعوام الطوال ، وسط هذه البضائع الكاسدة البائرة التى لا يريدها إنسان دون أن أتناول من الصبر ما يعيننى على الانتظار .. لقد طال بى الجلوس يا سيدى بين أكياس الأخلاق ، طال بى الجلوس بين شوالات الشجاعة والصدق والإخلاص والصراحة والنزاهة والعفة والصبر والكرم .. طال بى الجلوس بين هذه الأصناف البائرة ، دون أن يسألنى إنسان أين أنت ، وأخذت أشرب من شوال الصبر الجرعة تلو الجرعة حتى كاد الصبر ينفد ... والبضائع مكدسة كما هى .

وأحسست مرارة فى قول الرجل وتصورت جلسته هكذا وحيدًا فى هذه البقعة النائية المقفرة .. دون أن يطرق بابه أحد أو يؤنس وحشته إنسان .

وأخذت أنقل البصر بين الأكياس سائلا الرجل عن محتوياتها :

ـــ ما هذا ؟

ـــ تضحية .

ـــ وهذا ؟

ـــ مروءة .

ـــ وهذا الكيس الذى على الرف ؟

ـــ إخلاص .

ـــ وهذا الذى فى الركن ؟

ـــ شهامة .

وهكذا أخذت أسأل والرجل يجيب .. حتى عدّد لى كل ما يخطر على البال من الأخلاق الفاضلة !!

ونظرت إلى الرجل المسكين .. وخطر لى خاطر مفاجئ .

هذا الرجل لا شك أحمق من رأيت .. ماذا يجبره على الجلوس هكذا بين الشوالات الفاضلة .. فى ملل ويأس ، وضيق وتبرم .. يستعين على الحياة بجرعات الصبر .. الجرعة تلو الجرعة .

أى أحمق مأفون هذا الرجل .. ما ضرّه لو أستبدل بجرعات الصبر جرعات من الشوالات الأخرى .. ما حاجته إلى هذه التجارة الراكدة الكاسدة ، وهو لو تناول من كل شوال جرعة واحدة ، ثم انطلق إلى الحياة لكان له شأن فيها ، وأى شأن .

تصوّروا رجلا جمع كل هذا الخلق والمزايا والفضائل ، كيف يكون مصيره فى الحياة وماذا يصبح ؟

يا للجاهل الغبى ! كيف يضيع على نفسه كل تلك السنين الغابرة ، والعمر البائد ، لقد كان فى استطاعته أن يصبح زعيما من الزعماء ، ولكنه أضاع عمره فى الانتظار بين الشوالات . وفى تجرع الصبر .

ونظرت إلى الرجل نظرة رثاء وقلت له فى إشفاق :

ـــ يا حاج .. لقد ضيعت عمرك سدى ، إذا كان الأمر كما تقول ، وليس على الإنسان لكى يصبح على كل هذا الخلق إلا أن يتناول جرعة من كل شوال فلماذا لا تأخذ لنفسك جرعة تدفع بك بين عظماء القوم وتكفيك مشقة الجلوس بين الأكياس فى هذه الوحدة المضنية ؟

ونظر الرجل إلىّ نظرة ملؤها الاستخفاف ، نظرة لو ترجمت إلى العربية لكانت « أى أحمق أبله مجنون مأفون !! أى شيء وضعه الله لك فى رأسك بدل العقل » !

واحتملت نظرته .. ولم آبه لها .. وانتظرت أن أسمع ما يليها من كلام يفسر ما فيها من هزء وسخرية ، قال الرجل :

ـــ أوتظن أننى حتى الآن لم آخذ منها .. أوَ تظن أننى ما زلت فى انتظار نصيحتك .. « طباخ السم بيدوقه ».. أفلا تريد منى أن أتذوّق بضاعتى .

وصمت الرجل برهة ، ثم أمسك بذراعى وأجلسنى بجواره على أحد الشوالات وأردف قائلا :

ـــ اسمع يا سيدى .. إنى أتوسم فيك الخير .. وأشعر أنه حق علىّ أن أخلص

لك النصح ... وأصدقك القول .. سأحدثك كصديق .. لا كتاجر .. سأحدثك حديث صديق مخلص مجرّب .

لقد تناولت من كل هذه البضاعة التى حولك .

الشجاعة والعفة والمروءة والتضحية .. الخ .

تناولت من كل هذا الذى تراه .

يالخيبة الأمل .. لقد كنت مثلك حسن الظن ، سليم النية . فأقبلت عليها بنهم وشره .. كنت أظن — كما تظن — أنها تدفع بالإنسان إلى مصاف عظماء الرجال ، ولكن نهمى قد طاش وفألى قد خاب .

النزاهة والعفة والمرءوة والتضحية !!

أوَ تظن أن هذا هو ما يدفع بالمرء إلى مرتبة الزعماء فى هذا الزمن ؟.. هل تظن أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوفر فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟!

أنت أبله يا سيدى — ولا تؤاخذنى فى الكلمة — أترى لو كان فى ذلك شيء من الصحة .. أكنت ترى هذه البضاعة مكدسة على الرفوف فى أكياسها لا يقربها إنسان ؟

هذه بضاعة لا يحتاج إليها المرء فى هذه الأيام .. لقد أصبحت عتيقة بالية .. لقد أضحت « مودة قديمة ».. لا تلائم نفوس هذه الأجيال .. ولا تصلح لزعمائهم .. ولا يقبل عليها إلا كل مجنون فقد عقله .

لقد تناولت جرعة من كل ما ترى ، وحاولت أن أخوض معركة الحياة مسلحًا بتلك الأخلاق فانتهى بى الأمر إلى أن أتهم بالجنون .. وهزمت فى دنيا اللئام شر هزيمة .. وعدت إلى حانوتى ملومًا محسورًا .

وليس عليك يا سيدى .. لكى تعلم حالتى وقتذاك إلا أن تتصور رجلا يعيش بين الناس ، ولا يكذب .. ولا ينافق ولا يداهن .. رجلا يصارح كل إنسان برأيه فيه .. رجلا شجاعًا لا يهاب أحدًا .. رجلا كريمًا يعطى البائسين ماله حتى يصير منهم .. رجلا ذا مروءة وتضحية يخلع ملابسه فى الطريق ليقى بها طفلا

عاريًا أضرّ به البرد .. هو مجنون بلا شك .. وهكذا كنت أنا .. لقد فررت من الناس بعد أن برموا بى وضجوا من أفعالى .. لقد هربت من الدنيا بعد أن دفعتنى مروءتى إلى أن أطعم المتضورين جوعًا .. حتى تضوّرت أنا مـن الجوع .. وكسوت العرايا حتى عريت .. دون أن يحس بى إنسان ، أو يرد جميلى أحد .

وأخيرًا يا سيدى عدت إلى حانوتى لأقبع بين أكياس البضاعة الخاسرة التى لا تسمن فى هذا الزمن ولا تغنى من جوع .

وأطرق الرجل ، واستغرق فى صمت عميق .. وشعرت بالرثاء لـه ، وسنحت لى فكرة جديدة لم أتردد فى عرضها عليه .

لقد قلت لنفسى : إن الرجل رغم كل ما قال .. أحمق مأفون ، أو هو على الأقل ضيق العقل ، قصير النظر ، لا يعرف كيف يتصرف .. لقد قال : إن بضاعته أضحت عتيقة بالية ، وإنها أضحت « مودة قديمة » لا تلائم نفوس هذه الأجيال ، ولا تصلح لزعمائهم .

ترى ما الذى يمنعه من أن يجدد بضاعته ، ويستبدل « بمودتها القديمة » أخرى « جديدة » ! لِمَ لا يحاول أن يتجر فى الصنف الآخر من الأخلاق .. الصنف الذى يقبل عليه الناس ، والذى يلائم نفوسهم ، ويصلح لزعمائهم .

لِمَ لا يتجر فى النفاق والجبن والمكر والرياء والخسة و .. الخ .

هذه لا شك ستكون بضاعة رائجة ، وستخرجه من حالة الركود التى سئمها .

ونظرت إلى الرجل ، قلت له ناصحًا :

ـــ إذا كان الأمر كذلك فلم لا تغير نوع البضاعة ؟ ما دمت تعرف أنها قد أضحت فى هذا الزمن كاسدة خاسرة ؟! لم لا تحاول أن تتجر فى نوع آخر كالنفاق مثلا ، أو الغش أو الكذب ؟

ورفع الرجل رأسه ونظر إلىّ كما ينظر إلى طفل غرير وقال فى أسف :

ـــ وأنّى لى أن أحصل عليها يا سيدى ، وقد استنفدها الناس جميعها ؟ لقد

سألت عنها صاحب الحانوت الأول فقال : إنه لم يبق منها ذرة واحدة وأنبأنى أن لذلك قصة قديمة ، فقد كان الحانوت عندما أنشىء أول مرة فى سالف الزمن يكتظ بكل أنواع البضاعة ، وأقبل الناس يتزاحمون وكلهم يطلب النوع الآخر ، الجبن والنفاق والمكر والرياء والخسة .. واشتد تزاحمهم وتكأكئوا على الحانوت يتدافعون بالمناكب والأيدى .. وكان أكثر البضائع رواجًا هو النفاق .

كانوا كلهم يطلبون النفاق .. النفاق . النفاق ..

واشتد الزحام حتى قتل من الناس خلق كثير .

وأخيرًا أصدر الحاكم أمره بإغلاق الحانوت ، وبالاستيلاء على كل ما به من نفاق ، وأضحى النفاق بذلك بضاعة حكومية ، ووضعت الحكومة نظامًا لتوزيعه بالبطاقات . ولكن المحسوبية تدخلت فى الأمر ففاز الأنصار والمحاسيب بنصيب الأسد ، وحرم سائر أفراد الشعب الذى ليسوا بالأنصار والمحاسيب .

وأخيرًا ضج الشعب المحروم من النفاق ، وطلب أن يأخذ نصيبه منه ، ولكن البضاعة الباقية كانت من الضآلة بحيث يستحيل توزيعها على الشعب ، ففكر الحاكم فى خير طريقة يوزعون بها الكمية الباقية بحيث يعطى كل إنسان نصيبه من النفاق .

وانتهى بهم الأمر إلى حل معقول ، وهو أن يقذفوا بكمية النفاق الباقية فى النهر .. فيلوّثوا بها المياه ، وبذلك يحصل كل إنسان على شيء من النفاق ، مهما قلّ فهو خير من لاشيء .

وهكذا جرت مياههم بالنفاق ، وسرى منها إلى كل شيء .. سرى فى النفوس التى لا غنى لأجسامها عن شرب مياه النفاق ، وسرى إلى أراضيهم التى لا بد لها من السقيا بمياه النفاق .

وهكذا سرى النفاق فى كل ما يشربون وما يأكلون ، بعد أن سقيت نباتاتهم وحيواناتهم بمياه النفاق .

أجل يا سيدى لقد أضحوا قوم النفاق ، وأضحت أراضيهم أرض النفاق .

وصممت الرجل بعد ذاك .. وأخذت أفكر فيما قال .

وكنت ما زلت أحمل فى يدى قرطاس الشجاعة .

وهممت بأن أعيد إليه القرطاس ، لكنى تراجعت وقلت لنفسى : لِمَ لا أجرب ؟.. إن المسألة لا تزيد على عشرة أيام فقط » أكون فيها رجلا شجاعًا .

عشرة أيام على سبيل التجربة ليس غير . فإن أفلحت كان بها ، وإن لم أفلح فإنى لم أخسر شيئًا .

أجل .. يجب علىّ أن أجرب جرعة الشجاعة .

وقلت للرجل :

ـ سآخذ القرطاس ، وسأتناول منه جرعة على سبيل التجربة ، وسأعود إليك بعد عشرة أيام ، لأخبرك ماذا فعلت .

وهز الرجل رأسه وقال :

ـ أمرك .. لقد حذرتك كصديق .. وأنت وشأنك .

وودعت الرجل وسرت إلى الدار ، وأنا أحمل فى يدى قرطاس الشجاعة .

(٢)
رجل شجاع

ما الشجاعة ؟! هل هي ذلك الشيء الذى يمكن تركيزه فى النهاية فى إحساس الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب بلقائه ؟

إذا كانت تلك هى الشجاعة ، فأنا بلا شك رجل شجاع .

سرت فى طريقى عائدًا إلى الدار ، حاملا قرطاس الشجاعة بإحدى يدى ، وبالأخرى أخذت أهز عصاى وأطوحها للأمام وللخلف ، وقد داخلنى من قرطاس الشجاعة وهم عجيب

إن مجرد حملى للقرطاس ، واعتقادى بأننى بعد لحظات سأصبح رجلا شجاعًا قد جعلنى بالفعل رجلا شجاعًا .

ما معنى أنى سأصبح رجلا شجاعًا ؟ وما معنى فرحتى بالجرعة التى ستملؤنى بالشجاعة ؟

أليس فى ذلك إهانة لنفسى ؟ وإتهام صريح بأننى رجل غير شجاع ، وأنه لو لم تتح لى فرصة لقاء « تاجر الأخلاق » ولو لم يتفضل ويهب لى بعض مسحوق الشجاعة .. لظللت طول عمرى رجلا جبانًا .. لا تداخله الشجاعة قط !!

ووجدتنى أسائل نفسى :

ـــ هل أنا رجل جبان حقًا ؟ هل أنا فى حاجة إلى هذه الجرعة لتجعل منى رجلا شجاعًا ، أم أننى بالفعل رجل شجاع ، وأن الجرعة لن تفعل بنفسى أى

تغيير أو تبديل ؟

ما الشجاعة ؟! هل هي ذلك الشيء الذي يمكن تركيزه في النهاية في إحساس الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب بلقائه ؟

إذا كانت تلك هي الشجاعة ، فأنا بلا شك رجل شجاع وما بي حاجة إلى جرعة الشجاعة لأنها لن تجعل مني أكثر مما أنا عليه .

أنا رجل لا أخشى الموت ، وليس في قولي شيء من الغرور أو الفخر لأنه في الواقع لبس به ما يستدعي التفاخر ، لأن عدم خشيتي للموت ليس مبعثها إحدى المزايا والفضائل التي يفخر بها الإنسان ؛ بل مبعثه حبي للنوم .

فأنا لا يمتعني شيء قدر أن آوي إلى فراشي في التاسعة أو العاشرة فأمدد جسدي على الفراش وأترك أعضائي تنعم بالفتور والاسترخاء بعد طول كد وكدح ، وأترك ذهني يهدأ ويستقر بعد طول تفكير وإجهاد ، ولا تمضي عليّ بضع دقائق حتى أكون قد خلفت هموم اليوم ومتاعبه ، وطرحت عن كاهلي كل ما أثقله ، وعن رأسي كل ما أنهكه ، وخلصت نفسي من الإحساس بأي عبء أو مسئولية ، ولم يعد للمتاعب والمشاغل أي سلطان عليّ ؛ لأني قد انطلقت من أغلالها ، وفككت من إسارها ، إذا أنقذني منها النوم .

والموت أخو النوم ، أو قل أبو النوم .. فهو النومة الكبرى ، أو هو الانطلاق النهائي من أغلال الحياة ، والفرار الأبدي من كل ما يثقل علينا فيها من متاعب ومشاغل ، وهو راحة دائمة من عناء العمل والتفكير .

ترى ماذا يمكن أن أخشاه من الموت ؟ وهو النوم الدائم وأحب شيء في حياتي هو النوم .

إذًا فأنا رجل شجاع !! ولا حاجة بي ألبتة إلى جرعة الشجاعة !!

ولكن إذا كنت شجاعًا حقا ، وليس بي من الموت خشية ، فلم لم أمت حتى الآن ؟

هل أنا متعلق بالحياة ؟ أبدًا والله .. هل الموت متعذر ؟ أبدًا أبدًا .. لماذا لم

أمت حتى الآن ؟!

لأنى — وإن كنت لا أخشى الموت فى جملته ونتائجه — إلا أننى أخشى منه تفاصيله ومقدماته .

أجل .. إن تفاصيله هى التى تخيفنى ، ومقدماته ووسائله هى التى تثير الذعر فى نفسى ، فلو أن الإنسان استطاع أن يقدم على الموت كما يقدم على النوم ، فيقول لأهله ببساطة :

— اتمسوا بالخير .. أنا رايح اموت !!

تماما كما يقول لهم :

— اتمسوا بالخير .. أنا رايح انام .

ثم يذهب إلى فراشه ويتمطى ويتثاءب ، ويفرك فى عينيه ويهرش فى رأسه ، ويقرأ فى مجلة حتى يهاجمه النعاس ، ثم يطفئ النور ، ويغمض عينيه ويموت .

ولو كان الإنسان يستطيع أن يموت بهذه السهولة .. إذًا لأقدمت على الموت منذ زمن طويل .. ولأثبت حقًا أنى رجل شجاع .

ولكن الموت — للأسف الشديد — لا يمكن الحصول عليه بهذه السهولة .. بل لا بد له من مقدمات « دراماتيكية » محزنة .. ولا بد له من مظاهر بها كثير من التهويل والتهويش .

حقيقة إن النتائج واحدة .. وإن الأسباب مهما تعددت فالموت واحد . وأن الإنسان خارج من الدنيا على أية حال .. ولكن ما من شك هناك فى أن تلك المظاهر هى أشد وقعًا على الإنسان من الموت نفسه

أجل .. إنى على استعداد للخروج من الحياة فى أى وقت .. ولكنى لست على استعداد قط لأن أتصور نفسى — مجرد تصور — وأنا معلق فى « سلم الترام » وقد طوتنى عجلاته الحديدية التى تنهب الأرض ، ووقع جسدى بين العجل والشريط ، وأخذت العجلات تدوز على جسدى كأنها الفرّامة .. جسدى يتمزق وعظامى تتهشم كأننى « قطعة بفتيك »، ودمائى قد سالت على الأرض ،

ورأسى قد تناثرت منه فتات المخ — إن كان به مخ !! — وشعرى الذى لمعته « بالبريل كريم » قد اختلط بالطين والدماء .

لا .لا .. هذا كثير .. كثيرًا جدًا .. والله إنى لأكاد أبكى على نفسى من مجرد الوصف .

إذًا فأنا إنسان جبان !.. وهل يمكن أن يكون جبن الإنسان فى تلك التفاصيل التافهة !؟ ماذا يخيفنى من كل ما حدث لجسدى .. ما دمت أعرف أن الجسد فان ، وأنه سيختلط بأديم الأرض ، فى جميع الحالات .

إنى إنسان جبان .. جبان فى التفاصيل .. جبان فى خوض المسالك .. ماذا تجدينى شجاعتى فى احتمال النهاية ؟ إذا كنت أجبن عن الخوض فى المسالك التى توصلنى إلى تلك النهاية .. إن شجاعتى لا تعدو أن تكون شجاعة نظرية .

ولقد كانت تلك هى أيضًا شجاعتى فى الحياة . كما كانت شجاعتى بالنسبة للموت .. شجاعة نظرية ليس إلا .

كنت أزعم لنفسى دائمًا أننى شجاع .. ولكنى ما صنعت قط ما يثبت تلك الشجاعة ، فلقد كان بعد النظر وتقدير العواقب ، والحلم ، والتنساهل ، والتسامح ، وإدارة الخد الأيسر ، لمن صفعنى على الخد الأيمن ، وأكل العيش وإرضاء الرؤساء ، والعقل والاتزان ، واتقاء الشر ، والمحافظة على الكرامة والهيبة والوقار ، وعدم التدخل فيما لا يعنينى .. الخ .. كل ذلك كان يقف عقبة فى سبيل إظهار الشجاعة ، وكان يمنعنى من أن أفعل ما يجب أن يفعله كل رجل شجاع .

إنى رجل جبان . فلقد طوت شجاعتى غيرها من الصفات التى بدت للناس فضائل ، فوصفونى بالرزانة ، والعقل والاتزان .

كم مرت بى ظروف ، هممت بأن أنشر فيها شجاعتى بعد طول انطواء ، وهممت بأن أندفع فأفعل ما تمليه علىّ الشجاعة . ولكنى أتريث ، وأفكر ، وأستبق الحوادث وأستعرض النتائج ، فيغلبنى الجبن ، وتتوارى شجاعتى ، أمام

التورى والتفكير ، وخشية العواقب ، وحب السلام وتجنب الشر ، وإذا بى قد انقلبت إلى امرئ جبان .

وهكذا قادنى التفكير إلى الاقتناع بأننى مخلوق جبان ، قد خلت نفسه من الشجاعة أو انكمشت فى نفسه الشجاعة وتوارت بحيث أصبحت كعدمها فكأنها سلاح فى غمده لم يسل قط ، فعلاه الصدأ وثلم حده .

و لم أشك عندئذ فى أن الجرعة التى أحملها ستحدث فى نفسى أثرًا مذكورًا ، فهى ستدفع فى نفسى الشجاعة إن كنت خلوًا منها ، وستنشرها إن كانت مستترة متوارية ، وتزيل ما علاها من صدأ ، وتجعل منها سلاحًا ماضيًا بتارًا .

إن الجرعة ستنقذنى من بعد نظرى وطول أناتى ، وتنزع من نفسى ذلك الخضوع والاستسلام وتجعل منى سهمًا ينفذ إلى كبد الحقيقة بلا التواء ولا دوران ولا تراخ ولا تمهل .

إنها ستجعل منى رجلا شجاعًا ، شجاعًا فى كل ناحية فى الرأى وفى التفكير وفى الأقدام وفى التصرف .

وكنت قد وصلت إلى الدار ودلفت إلى داخلها متسللا إلى حجرتى دون أن يحس بى أحد ، وأخفيت القرطاس فى أحد الأدراج وذهبت إلى المطبخ فأحضرت كوبًا من الماء

وأغلقت باب الحجرة وجلست أمام المنضدة وأخرجت القرطاس فوضعت ما به فى الكوب وأخذت أقلب المسحوق بملعقة صغيرة حتى ذاب فى الماء .

وأمسكت بالكوب ، ووقع بصرى على صورتى فى المرآة فترددت برهة .

لقد بدأ الخوف يداخلنى ، وتذكرت وقتذاك .. الدكتور جيكل . والمستر هايد .

ماذا يحدث لو أنه حدث لى مثل ما حدث للرجل التعس ؟!

ماذا يحدث لو أن الشجاعة أزمنت بى ، وأضحت شخصيتى الشجاعة تتغلب على شخصيتى الأخرى من تلقاء نفسها دون حاجة إلى مساعدة الجرعة ؟

ماذا يحدث لو أن الشجاعة التى ستثيرها الجرعة ، أبت أن تنطوى ، وأن سيفها الذى سل قد أبى أن يعود إلى غمده ؟

ماذا يحدث لو أن شجاعة الأيام العشرة التى أنوى تجرعها قد استمرت حتى نهاية العمر ؟

أنا لا أكره الشجاعة بالطبع ، وحاشاى أن أحط من قيمتها كصفة فاضلة يجب أن يتصف بها كل إنسان .

ولكنى مع ذلك أخشاها .. لأنى لم أجربها بعد ، وقد تكون كما قال الرجل تاجر الأخلاق « مودة قديمة » فى هذا الزمن .. « مودة » لا تلائم نفوس هذه الأجيال ، فماذا يحدث إذا استبدت بى .. وأبت أن تفارقنى ؟

ماذا يحدث إذا أزمن بى داء الشجاعة ، فى زمن الجبن ؟!

ونظرت إلى المرآة مرة أخرى ، فوجدت وجهى قد علاه الاصفرار وبدا عليه اضطراب ظاهر .

يالله ، لشد ما أنا جبان رعديد ، أن أخاف الشجاعة !!

وخجلت من نفسى ، وكرهت أن أكون بهذه الدرجة من الجبن .

ورفعت الكوب إلى فمى ، وتجرّعته مرة واحدة ، كما يتجرع الإنسان شربة زيت الخروع .

ووضعت الكوب على المائدة ، وأحسست أنى ألهث كأننى خارج من سباق .. وبدأت أحملق فى المرآة ، وأرقب وجهى جيدًا خشية أن تحدث الجرعة به من التقلبات ما أحدثته جرعة « الدكتور جيكل » فى وجهه عندما انقلب إلى « مستر هايد ».

ولكن وجهى لم يطرأ عليه تغيير يذكر ، اللهم إلا ذلك البريق الذى بدا فى عينى .. أو قد يكون ذلك مجرد وهم تخيلته .

أما التغيير الحقيقى الذى حدث فقد حدث فى جسدى ، فقد أحسست بقوة تسرى فيه ، وبعضلاتى تشد وتبرز ، حتى بدا لى أنى أستطيع أن أتحكم فيها

وأجعلها — تلعب — كذلك الرجل الذى أبصرته ذات مرة فى أحد الموالد وقد وقف أمام الجماهير المحتشدة « يلعب عضلاته » ويصيح فيهم أنا شوّال بطل ام بابه فى وزن الريشة »..

لقد بدا لى أنى أصبحت شديد الشبه بصاحبنا شوّال ، وما أسرع ما خلعت القميص والفانلة ووقفت أمام المرآة ، أتأمل جسدى بإعجاب مفرط « وألعب » عضلاتى بسرور زائد .

وأخيرًا ارتديت ملابسى ، وأنا أشعر بالرضاء عن نفسى كل الرضاء ، وفتحت باب الحجرة وخرجت إلى القاعة ، فكان أول ما صدم أذنى ، صوت صراخ الخادمة .

ولم يكن صوت الصراخ بالشئ الغريب الوقع فى أذنى ، فقد ألفته من طول ما سمعته ، فقد كنت أسمعه بمعدل مرة فى كل نصف ساعة .

وتفسير الأمر ، أن ضمن الأعمال الجليلة ، التى تؤديها حماتى ، بشغف وإخلاص وإتقان فى حياتها الملأى بجلائل لأعمال هو ضرب هذه الخادمة الصغيرة .

ويخيل إلىّ أن ضربها للخادمة قد أضحى عندها — غية — كما يهوى البعض تربية العصافير أو جمع طوابع البريد ، أو أنها تجد فى ضربها مخرجًا لدوافع الغضب المتجمعة فى نفسها ، فهى تتخذ المسكينة متنفسًا لها ، وإلا طال بها الكبت فانفجرت وأصابتها هى ومن حولها .

ولم يكن هناك ما يؤذى مشاعرى كصوت صراخ الخادمة أو بكائها ، وكان عامل الشفقة يتحرّك فى نفسى ، فيجعلنى أفور وأثور ، وأهم بالتدخل فى الأمر وتخليص الخادمة ومنع السيدة من ضربها ، ولكننى كنت أهدىء نفسى ، وأتروى وأفكر فى العواقب وأقدر النتائج .

إن السيدة عصبية متوترة النفس ، سريعة الغضب والانفعال ، أو قل إنها تحب الغضب والانفعال ، فهى تبحث عن كل ما يثيرها ويحنقها ، ويغضبها ، وتتجنب

كل ما يبعث فى نفسها الهدوء والسكينة ، وتأبى أن تريح نفسها ، ولم أكن أشك فى أن تدخلى فى الأمر .. ومحاولتى منعها من ضرب الخادمة ، سيتيح لها فرصة للفوران والغليان .. ويهيئ لها عمل « خناقة لرب السماء » والدخول فى معركة أكبر .. تعتبر معركة الخادمة بالنسبة لها ليست أكثر من « أبرتيف » ، وكنت أعرف أنها فى النهاية ستحملنى مسئولية كل ما حدث وستجعل منى مخطئًا أثيمًا .. ثم تمرض بعد ذلك عقب الخناقة وأكون أنا مسئولا عن مرضها .

وعلى ذلك فقد كان الأمر ينتهى بى فى كل مرة إلى السكوت و « الصهينة » وإلى أن أكبت غضبى فأحتمل بكاء الخادمة ، وأن أتخذ موقف « الحياد » وأكفى خيرى شرى .. وأنطوى فى حجرتى حتى تنتهى عملية الضرب .

ولست أشك أن عملى .. كان ينطوى على الجبن ، ولكنى لست أشك أيضاً فى أنه كان عملا ينطوى على الحكمة فقد كنت أعتقد أنه لابد أن يأتى وقت تتعوّد فيه الخادمة الضرب .. وأتعوّد منها سماع البكاء ، ويصبح الأمر مسألة طبيعية .. ليس فيها ما يثير .

أما فى هذه المرة — وبعد أن تناولت جرعة الشجاعة — فاختلف الأمر كل الاختلاف .. إنى لم « أصهين » ولم أنطو . ولم أكف خيرى شرى ، ولم أتخذ موقف الحياد ، ولم أفكر فى عواقب أو أقدر نتائج .. لقد تملكتنى الشفقة على الخادمة ، وأحسست مبلغ ما فى ضربها من ظلم واعتداء .. فاندفعت إلى السيدة ونزعت الخادمة من بين براثنها ... وقلت لها فى لهجة صارمة .. إنى أحذرها من أن تمد يدها إلى الخادمة ، بعد الآن وإلا حدث ما لا تحمد عقباه .

ونظرت إلّى السيدة فى دهش ، فقد أذهلها — وأنا الهادئ الرزين المنطوى على نفسه — أن أتدخل فيما تراه صميم عملها واختصاصها ، وأن أحاول بالتهديد منعها من مباشرة أول حقوقها .. والتمتع بخير متعها

لا .. لا .. لقد كان هذا شيئاً كثيراً .. كثيرًا جدًا .

وتركت الخادمة .. تركتها كلية ، بل ونسيتها تماماً ، والتفتت إلّى .. فقد

وجدت فىّ صيدًا ثمينًا .. صيدًا يهيئ لها خِوانا حافلا .. بأشهى المعارك والثورات والانفعالات .. صيدًا لم تستطع قط أن تتحرش به وتوقعه فى حبائلها .. من فرط بروده وهدوئه وانطوائه على نفسه .

وبدأت المعركة .. حامية دامية .. ثارت فثرت .. هاجت فهجت .. شتمتنى فشتمتها .. لعنت أبى .. فلعنت سنسفيل أجداد أبيها .. همت برفع العصا فنزعتها من يدها وألقيت بها من النافذة .. ارتمت باكية فلم آبه لها .. سخسخت فتركت الدار ، حيا الله جرعة الشجاعة . فقد نفست كربتى ، وفرّجت همى .. لقد جعلت منى حقًا رجلا شجاعًا .

وخرجت من الدار .. وأنا أحس بالقوة والنشاط والحماسة .. لقد شعرت أنى فككت من إسار الجبن وانطلقت من أغلال التروى وخشية العواقب . وأنى أستطيع أن أقدم على أى شىء .. غير هياب ولا وجل .

وكان أول ما فعلته قبل أن أخرج هو أن قذفت بالطربوش الذى كنت أضعه على رأسى ، والذى كنت أخشى الخروج من غيره .. حتى لا يقول الناس عنى إننى رجل غير محترم ..!! وأى صلة يمكن أن تكون هناك بين « الطربوش » والاحترام إلا إذا كانت هناك صلة بين « البليلة والترام » ، أو « الجوزية والأسد الضرغام » .

أى صلة هناك بين الطربوش والاحترام ؟.. وكيف يمكن أن يصل بنا السخف إلى أن نقول .. إن فلانا رجل محترم ، لأنه يرتدى طربوشًا .. وإن فلانا غير محترم لأنه لا يرتدى طربوشًا ؟ كيف خطر لنا أن ننشئ أية صلة بين الطربوش والاحترام .: والله لو كانت هناك صلة بين أحدهما والآخر .. لا رتديت مائة طربوش .. ولكنه قول هراء .

والواقع أننا لو حكمنا العقل وحاولنا أن نجد هناك صلة ، لو جدناها بين الطربوش ، وعدم الاحترام ، أو بينه وبين المسخرة . أجل .. إن هذا الوعاء الأسطوانى الأحمر ذا العنق الذى شدت به خيوط سود مبرمة .. هو المسخرة

بعينها .. نحمل رأسنا عبثه بلا أى مبرر ولا فائدة ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الناس يصنعون بقرصه ثقوبًا يجلبون بها الهواء إلى رءوسهم ويخرجون منها الصهد .. ما ضرّهم لو ألقوا بالطرابيش نفسها وتركوا رءوسهم حرة طليقة !؟

هذا الوعاء الأحمر لا يقى من برد ولا حر .. ولا يؤمن من مطر ولا شمس .. ولا يوحى باحترام ، ولا هو زينة .

ترى ماذا يجبرنا على ارتدائه ؟

الجبن !!

جبن التقاليد .. وجبن التقليد ، والخوف من أن نتهم بالشذوذ .

لا تقولوا إنه شعار لقوميتنا ، فهذا جهل وسخف .

منذ متى كان الوعاء الأحمر شعارًا لقوميتنا ؟ إنه لو تعملون .. شعار لاستعبادنا .

من قال : إن قوميتنا فى حاجة للطربوش ذى الزر ؟

حرروا رءوسكم من الطرابيش ، فأغلب ظنى أنها سبب محنتكم ، إنها تساعدكم على خفض الرءوس .. إنها تخفى شعاع أذهانكم ، وتحيط رءوسكم بظلمة معتمة .. وهكذا ألقيت بالطربوش .. وخرجت إلى الطريق رافع الرأس عاريه .

ووقفت فى إحدى محطات الأتوبيس ، فقد كنت على موعد لإنهاء صفقة هامة .. وكان الموعد قد أزف فقد عطلتنى المعركة الأولى التى خضت غمارها من أجل الخادمة ما يزيد على ربع الساعة .

ولمحت أول عربة من عربات الأوتوبيس فاقتربت من المحطة بسرعة ، وأشرت للسائق بيدى .. فلم يتوقف .. رغم أنه كان بالعربة محلات خالية .

ولم تكن المرة الأولى أن أشير إلى سائق أوتوبيس فلا يقف رغم خلو العربة .. وكان كل ما أفعله هو أن أنتظر وأنتظر .. وأن أقنع نفسى أن القاعدة هى ألا يقف السائق إذا ما أشار له إنسان فى محطة .. وأنه إذا وقف فيكون فضلا من الله ..

وليس عليّ إلا انتظار فضل الله .

وماذا أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. إنى لا أستطيع أن أوقف العربة ، ولا أستطيع كذلك أن أعدو فأقفز فيها وهى سائرة .. فأنا أجبن من أن أفعل ذلك .. أولا .لأنى أخشى على هيبتى وقيافتى أن تضيع .. وثانيًا .. وهو الأهم .. لأنى أخشى أن تنزلق قدمى فأهوى تحت العجلات ، وأنا — كما سبق القول — لا أخشى الموت فى ذاته .. ولكنى أخشى وسائله المسرحية الحمقاء .. وأكره أن أموت بهذه الطريقة المزعجة ، وحتى إذا كان لا بد من أن أموت بإحدى هذه الطرق المسرحية .. فلا أقل من أن تكون طريقة مشرفة .. استشهاد .. مثلا .. أما أن أموت تحت عجلات — ثورنيكروفت — فذاك والله ما لا أتمناه قط .

وتوالت أمامى العربة بعد الأخرى ، وهى تمر بى مر الكرام .. دون أن تفكر إحداها فى الوقوف .. فهى إما ملآى بالركاب ، وإما أن سائقها يضايقه الوقوف .. فهو يسوق العربة لمجرد النزهة .

وتملكنى الحنق ، وقلت لنفسى إن ذلك أحد مظاهر الفوضى فى أمة الفوضى .. فالحكومة تترك الشركة تعبث بمصالح الناس .. فلا تضع فى خطوطها إلا عددًا ضئيلا من العربات لا يفى بحاجة الجمهور الذى يحشر فيها كالسردين ، والشركة تترك السائقين يتحكمون فى عباد الله .. فلا يقفون إلا عندما يشاءون .

وأخذت أعزى نفسى بأنه لو كان بيدى الأمر ، وكنت وزيرًا للأشغال لعرفت كيف أضع حدًا لهذا العبث .. ولعرفت كيف أوفر للجمهور راحته .. ولكنى عدت فتذكرت أننى عندما أصبح وزيرًا للأشغال .. لن أحس قط بهذا العبث أو المضايقات .. لأنى سأكون وقتذاك صاحب عربة فخمة ضخمة .. ولن يخطر لى على بال قط أن هناك أناسًا يركبون الأتوبيس وأنهم يقفون الساعات الطوال فى انتظاره ، وأن عربات الأتوبيس لا تكفى الجمهور ، وأن السائقين لا يقفون فى المحطات .. إنى لن أذكر قط شيئًا من هذا لأنى سأكون « مجعوصًا »

فى عربة تسابق بى الريح وتنهب الأرض نهبًا .

وتلك هى العلة فى هذا البلد .. إن الذى يحس بالمصاب لا يملك منعه .. والذى يملك منعه .. لا يكاد يحس وجوده .

إن الذين يقطنون الحظائر ويبيتون على الطوى .. ويشربون مع البهائم من ماء الترع .. إن الهياكل التى هزلت من الفقر والجوع والحرمان .. والأجساد التى حطمها المرض وأنهكتها العلل .. لا تملك من أمر نفسها شيئًا .. إنها بلا حول ولا قوة .. إنها قطيع يسير إلى مصيره التعس فى رضا واستسلام .

أما الرعاة .. الذين يملكون زمام القطيع والذين يحركونه ويسوسونه .. فهم فى عيشة راضية .. أجل .. إن الذين بيدهم أمره لا يحسون بأمره ، ولا يدركون من أمره شيئًا .

كيف يحسون جوعه وبطونهم ملأى مكتظة !؟ كيف يذكرون أنه يشرب من ماء الترع .. إذا كانوا يشربون ماء « فيشى » !؟ وكيف يدركون أنه فى حاجة لأنابيب مياه إذا كانوا يأخذون مياههم من « الفريجيدير » ..!!

كيف يبصرون عريه ، وهم يرفلون فى « النايلون » و « الشارك سكين » ؟! وكيف يبصرون هزاله وأجسادهم السمينة « المربربة » تنضح منها قطرات النعيم ؟ كيف يحسون حاجته ، وهم لا يزيدون فى تفكيرهم عن « مارى أنطوانيت » حين قيل لها : « إن الشعب لا يجد الخبز ، فقالت : ليأكل جاتوه !!

أنى لراكب « البويك » أن يحس حاجة راكب قدميه؟ قدميه العاريتين اللتين يلسعهما لهب الأرض .. وأنى لماسك المروحة يروح بها على وجهه أن يحس حاجة ماسك الفأس يضرب بها أرضه .. تلفح الشمس وجهه ويغرق العرق جسمه !

إن شر ما فى المصاب .. أن الذى لا يحس .. يستطيع أن يفعل ، ولكنه لا يفعل لأنه قرير هانئ .. أما الذى يحس ، فهو لا يفعل شيئًا لأنه أعجز من أن يفعل .

إن خير وسيلة لإصلاح هذا البلد .. هو الصيام .

ولست أعنى بالصيام .. هذا الصيام الذى نصومه فى رمضان ، فعلم الله أننا قد أصبحنا نباشره — لو باشرناه — بطريقة أخرجته عن كل معانى الصيام ، فنحن لا نحرم أنفسنا خلاله أى شيء .. على العكس إننا نعطيها كل ما تشتهيه من المأكولات الشهية التى أضحت من خصائص رمضان ، كالكنافة ، والقطايف ، والمشمشية ، وقمر الدين ، والمكسرات .. وكل ما نفعله فى صيامنا أننا نؤجل موعد أكلة إلى موعد الأكلة التالية .. فنأكل غداءنا مع عشائنا ونسميه إفطارًا .. ونبكر فى إفطارنا فنسميه سحورًا .. ويزيد على ذلك أننا نظل طوال اليوم مستلقين بلا عمل ولا فائدة كأننا جثث هامدة .. يضيق خلقنا ونغضب لأقل سبب .. بحجة أننا صائمون .. ويسب أحدنا الآخر ! لأنه صائم وكفران ..

لا .. لا .. لست أقصد هذه الطريقة فى الصيام ، التى ليس فيها من الصيام قليل ولا كثير ، والتى ليست لها من نتائج الصيام أى أثر ، فلا هى أشعرتنا بحرمان الفقير ولا رققت قلوبنا نحوه .

إنى لا أقصد الصيام عن الأكل .. بل أقصد الصيام عن الغنى .. والصيام عن النعيم .. أجل يجب أن يفرض على كل إنسان أن يصوم عن الغنى شهرًا فى السنة يعيش فيه بدخل لا يزيد عن أربعة جنيهات .. يقضى بها كل حاجته وحاجة أسرته من مأكل وملبس ومسكن .

يجب أن يجرب رئيس الوزراء والوزراء وغيرهم من العظماء والأثرياء كيف يمكن لإنسان أن يعيش هو وأسرته بأربعة جنيهات فى الشهر .. يجب أن يقطنوا فى عشة من عشش الترجمان وزينهم .. إيجارها خمسون قرشًا .. يجب أن يجربوا كيف يمكن أن يأكل الإنسان لحمة مرة واحدة فى الشهر . لحمة لا تزيد على « الفشش والأزوار والكروش » التى تباع فى المذبح . يجب أن يعرفوا كيف يمكن لأربعة جنيهات أن تكفى حالة عائلة .

يجب أن يصوموا عن الغنى والنعيم .. لا إلى الأبد.ولكن يصومون لمدة شهر

واحد .. حتى يحسوا ذلك البؤس الذى لا يخطر لهم على بال . فإذا طلب من الوزراء بعد ذلك أن ينصفوا طائفة تشكو لم يتمهلوا و لم يتريثوا ، وإذا طلب من الأثرياء أن يدفعوا الضرائب لم يتألموا كما لو كانت تستقطع من جلودهم .

أجل .. لن تنصلح الأمة .. إلا إذا سن فيها قانون الصيام .. الصيام عن الغنى والترف والنعيم .

* * *

جال كل ذلك بخاطرى وأنا أنتظر على محطة الأوتوبيس ، ولمحت عربة مقبلة .. وبدا لى أنها خالية فعزمت أن أركبها بأية حال .. وأخذت ألوح للسائق .. وهو مقبل فى سرعة .. ومر بى دون أن يتوقف أو يأبه بى .. فدفعتنى الشجاعة التى استجدت فى نفسى إلى أن أفعل شيئًا لم أكن أجسر على فعله قبل أن أتناول الجرعة ، لقد أخذت أعدو وراء الأتوبيس محاولا اللحاق بـه و « الشعبطة » على سلمه .

اندفعت كالريح .. وقدماى منطلقتان بى كأنى جواد فى سباق ، حتى لحقت العربة وأمسكت بمقبض الباب ، ووضعت إحدى قدمى على السلم .

ولست أدرى ما حدث بعد ذلك بالضبط ؟

ولكن نتيجة ما حدث .. النتيجة النهائية التى بقيت فى نفسى .. هى احترام وتقدير وإعجاب شديد بأولئك « المتشعبطين » على سلالم جميع أنواع المركبات من ترامات وأتوبيسات ، فلقد أدركت أنها مسألة تحتاج لمهارة فائقة .

لقد وضعت إحدى قدمى على السلم ، و لم أضع الأخرى وظللت معلقًا فى العربة المسرعة تجرنى خلفها ، ثم حاولت أن أترك العربة وأعود إلى الأرض ، متمثلا قول القائل :

أنـل قدمـى ظهـر الأرض إنى
رأيت الأرض أثبت منك ظهـرا

وأفلت يدى ورفعت قدمى التى على السلم وحاولت أن أثبت جسدى على

الأرض ، ولكنى .. للأسف ، وجدت الأرض تعدو بسرعة تحت قدمى .

أجل .. لقد كانت الأرض تجرى بسرعة إلى الخلف أو هكذا بدا لى ، ووجدت من المستحيل أن أحتفظ بنفسى واقفًا ، أو أثبت قدمى على الأرض ، و لم أشعر إلا وقد لففت بضع لفات حول نفسى كأنى بهلوان ، ثم انطرحت أخيرًا ممدود الجسد على الأرض .

وصرخ الركاب ، ووقفت العربة ، وهبط بعضهم إلىّ ليرى ما حلّ بى ، وتحسست أنا نفسى .. فوجدت أننى لم أصب بشىء .. اللهم إلا البهدلة وقلة القيمة ، وسرعان ما نهضت واقفًا على قدمى .. أزيل الأتربة التى علقت ببدلتى .

وما من شك هناك فى أنه لو حدث لى ما حدث ، وأنا فى حالتى العادية دون أن أحتسى ما احتسيت من جرعة الشجاعة .. لكان أقصى ما أفعله مع السائق هو أن أعرف نمرته ، وأن أقدم فيه شكوى للشركة إذا لم يشغلنى عن تقديمها شاغل ، ذلك إذا لم أفر بنفسى من فرط الخجل الذى يصيبنى من « الهدر » الذى حدث لى .

أما أن أشتبك فى معركة مع السائق فذلك كان آخر ما أجسر على فعله ، فقد كنت أكره التشابك والتضارب ، وكانت خشيتى من العواقب ، وبعد نظرى تجعلنى دائمًا أتذرع بالصبر والحلم ، وأجبن عن الدخول فى معركة أيسر ما يصيبنى منها هو « البهدلة » والإهانة .

ولكن فى هذه المرة .. لم أكن كما تعودت أن أكون . لقد أضحيت رجلاً شجاعًا ، و لم يعد هناك ما يقف فى طريق شجاعتى .. لا بعد نظر ولا ترو ولا تفكير .. لقد كان يجب علىّ أن أثأر لنفسى من السائق المستهتر ، وأن أجعل منه عبرة للعامل النذل القذر الذى يطالب بحقه دون أن يعرف واجبه ، والذى يضيق ذرعًا بإهمال الحكام لمصالحه ، وهو لمصالح الجمهور أشد إهمالا وأكثر تراخيًا واستهتارًا .

وكان السائق ما زال جالسًا أمام عجلة القيادة دون أن يكلف نفسه مشقة

النزول لرؤية ما حدث .. فاقتربت منه ، ورأيته ينظر إلىّ فى سخرية ويقول هازئًا :

« لما انت خايب كده بتتشعبط ليه ».

وهنا لم يعد فى قوس الصبر منزع .. فمددت يدى إليه فى سكون وأمسكت به من قفاه وجذبته بعنف فأخرجته خارج العربة .

وكما يقول المثل « وعينكم لا ترى إلا النور » .. إنى ما عهدت فى نفسى هذه القوة ولا المهارة فى العراك .

أول ما فعلته أننى « لهفته مقص ».. فنزل « يرف » على الأرض ، ولم يكد ينهض حتى ناولته « روسية » ثم انهلت عليه باللكمات حتى « ضحضحته » !

ولمحت فى وجوه الركاب علامات الفرحة والشماتة .. كأنى بضربى الرجل أرضيت فى نفوسهم رغبة مكبوتة فى الاقتصاص منه .

وأخيرًا تدخل الركاب بيننا ، وأخذ السائق يصيح بأعلى صوته ويسبنى بأقبح الصفات ، وأقسم ألا يتركنى إلا فى القسم وأنه لا بد أن يجعلنى أبيت على الأسفلت .

ونظرت إلى الساعة فإذا بالموعد قد أزف ، وتملكنى الحنق ، فقد كنت حريصًا على ألا يضيع الموعد ، حريصًا على إنهاء الصفقة ، ومع ذلك فلم يكن هناك بد من أن أذهب مع الرجل إلى القسم .. ولم يكن هناك بد من ضياع الموعد .. وربما ضياع الصفقة أيضًا .. فقد لا تتاح الفرصة لإنهائها بعد ذلك .

وذهبت مع الرجل إلى القسم وبى كثير من الندم ، وبودى لو أنهى المسألة بالحسنى، ولكنى كنت رجلا شجاعًا، وكان على أن أحتمل عواقب شجاعتى حتى النهاية !!

(٣)

الخيانة العامة

إن اليهود الذين فرقهم الله فى الأرض شيعًا .. قد فرقوكم شيعًا . إن اليهود الضالين قد أضلوكم ، إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم جبناء . يا أمة العرب . يا أمة الخطب .

سرت مع سائق الأوتوبيس متجهين إلى أقرب مركز للبوليس .. ولم يكف سيل الشتائم المندفع من فيه عن التوقف .. بل أخذ يغمرنى بما لذ وطاب من ألفاظ التهديد والسباب حتى وصلنا النقطة ودلفنا إلى الداخل .

ووقفنا برهة أمام الحاجز الخشبى وقد جلس وراءه باشجاويش منتفخ الأوداج .. بادى الشر ، يتناقش مع امرأة ملتفة فى ملاءة سوداء وقد سقطت الملاءة على كتفيها وتهدل شعرها وسال دمعها وأخذت تقول له بصوت باك :

ــ سبع ليال على هذا الحال .. يأتى إلى الدار .. وقد ترنح من فرط السكر .. بعد أن يكون قد تركنى والأولاد طيلة النهار دون نقود ، فلا يكاد يرانى حتى ينهال علىّ ضربًا .

ونظرت إلى جوارها فوجدت رجلا ضخم الجثة أحمر العينين قد تلفح « بلاسة » وكسا جسده بجلباب طويل ودس قدميه فى مركوب أصفر .. ووجدته ينظر إلى المرأة شزرا ثم وجه القول إلى الباشجاويش قائلا :

ــ يا سعادة البيه .. (كان لهذا التعظيم أثر منعش على الباشجاويش وبدا لى أنه سيوافق الرجل على ما يقول) يا سعادة البيه .. هذه المرأة .. كذابة ومخرفة .. وتستحق الشنق لا الضرب ..

وهز سعادة الباشجاويش رأسه بالموافقة .. وأمر أحد الجنود أن يجر المرأة إلى الخارج فمد الجندى يده ، وسحب المرأة من قفاها ، ولم أحتمل أنا هذا المنظر فبدأت التدخل طالبًا من الجندى أن يترك المرأة ، ومن الباشجاويش أن يحقق جيدًا فى الموضوع ، ولم يكن مظهرى بعد سقوطى من الأتوبيس وتدحرجى على الأرض وعراكى مع السائق .. ليشجع الرجل على احترامى وخشيتى .. فوجدته يوجه إلىّ نظرة ملؤها الازدراء .. ويأمرنى بالسكوت .. بالتى هى أحسن !!

خرجت المرأة وزوجها .. وبدأ الباشجاويش فى استجوابنا . ولكن لم تمض لحظة حتى سمعت صراخ المرأة . وبدا لى أن زوجها لم يستطع أن ينتظر حتى يذهبا إلى الدار فبدأ فى تنفيذ انتقامه على سلم القسم .

واندفعت أنا من باب القسم فوجدت الرجل قد طرح المرأة أرضًا وانهال عليها رفسا ولكما، وتحكمت فى النخوة والشجاعة.. ولم أقل لنفسى كما تعودت أن أقول فى مثل هذه الظروف — وأنت مالك — بل هجمت على الرجل أنقذ المرأة من براثنه .

وحدث الأمر الطبيعى . الذى تعرفونه كلكم ، والذى يحدث دائمًا فى مثل هذه الظروف .. فلقد كف الرجل عن ضرب امرأته ، وكفت المرأة عن الاستغاثة ، وانهال الاثنان علىّ بالضرب .. فلم ينقذنى سوى الجندى الذى أرسله الباشجاويش لإحضارى حتى أدلى أمامه ببقية أقوالى .

ووجدت أن السائق قد أنبأ الباشجاويش أنى كنت واقفًا فى المحطة وأشرت له بالوقوف .. فوقف .. فلم يشعر إلا وأنا أقفز إلى العربة وأهجم عليه فأشبعه ضربًا ولكمًا ، وأدليت بصحة ما حدث ، ولكنى وجدت الباشجاويش ينظر إلىّ شزرًا ويقول :

— الظاهر أنك « غلباوى » ولسانك طويل ومتعافى .

ولم تعجبنى من الرجل نظرته ولا لهجته .. فقلت له منذرا :

ـــ خير لك أن تكون أكثر أدبًا .

وهنا احمر وجه الرجل واندفع صائحًا :

ـــ سأريك كيف أكون أكثر أدبًا .

ثم أشار إلى أحد الجنود أن يدخلنى إلى الزنزانة .

ولم تجدنى المقاومة نفعًا ، وبعد لحظات وجدت نفسى كما يقولون « على الأسفلت ».

من يصدق هذا ؟! من كان يصدق أنى أنا الرجل الهادئ الرزين .. العاقل المحترم .. تدفعنى الظروف الخرقاء بمثل هذه السهولة والبساطة إلى أن أبيت ليلتى على الأسفلت !

ولماذا ؟ بلا سبب ، وبلا أى مبرر ولا داع .

إنى حقا قد أضحيت رجلا شجاعًا .. ولكن أين الذى فعلته من مظاهر الشجاعة حتى يبرر ارتمائى هكذا فى إحدى نقط البوليس كالمجرمين والمتشردين ؟ أى شيء فعلته يتكافأ مع هذا الجزاء ، وأى فائدة أفدتها أنا .. أو أفادها غيرى من جراء كل ما فعلت ؟ وتذكرت « حماتى » وما يمكن أن يكون قد حدث لها من مضاعفات عقب معركتى معها من أجل الخادم فأصابنى غم شديد ؟

أهذا هو ما فعلته فىّ جرعة الشجاعة ؟!!

ولكن ما ذنب جرعة الشجاعة ؟ إن الذنب فى الواقع ذنبى أنا .. فلقد كنت محدث شجاعة .. أو كنت كما يقولون « هبلة ومسكوها طار » ..

لقد اندفعت استعمل شجاعتى .. ببله وجنون ، لقد كنت أشبه « بشجاع حرب » على وزن « ثرى حرب ».. و « أرتست حرب ».. وأخذت أبعثر الشجاعة التى أصابتنى بعد طول جبن .. ذات اليمين وذات اليسار .. لقد كنت أريد أن أعوّض حرمانى من الشجاعة ، وأن أظهر شجاعتى بأى وسيلة وعلى أى وجه تمامًا كما يفعل ثرى الحرب الذى أصابه الغنى فجأة .. بعد طول فقر .

لشد ما كنت مجنونًا أحمق ، وما هكذا والله تستعمل الشجاعة

ويكون الشجعان.

ماذا فعلت من مظاهر الشجاعة ؟.

تعاركت مع « حماتى » من أجل الخادمة ، وقذفت بطربوشي وخرجت عارى الرأس كأى غر حدث من الفتية المفتونين .. ثم لم أستطع الصبر حتى يقف الأوتوبيس فأركب فيه ، بل حاولت أن أركبه وهو سائر كأى متشرد من أبناء السبيل .. ولم تساعدنى خيبتى على « الشعبطة » . فسقطت على الأرض كأى مدب .. وذهبت قيافتى وضاع قدرى .. ولم أكتف بهذا ، بل هجمت على السائق واشتبكت معه فى معركة بالركلات واللكمات والروسيات .. كالرعاع والغوغاء ، ووجدت نفسى منساقًا مع شجاعتى الخرقاء إلى قسم البوليس .. وأضعت بذلك الموعد الذى كنت سأنجز فيه الصفقة الهامة .. ولم أكتف بكل هذا .. بل اندفعت كأى حمار .. لأتدخل بين زوج وزوجته .. فتلقيت من الضرب الشتائم ما كنت فى غنى عنه ، وأخيرًا .. احتددت على الباشجاويش كأى غبى .. فكان مصيرى الأسلفت .. يالى من محدث شجاعة ؟

أهذا هو ما استطعت أن أفعله بشجاعتى ؟

أهذا هو مصيرى بعد أن أضحيت رجلا شجاعًا ؟.. أرتمى على الأسفلت بلا مبرر ولا سبب ؟.. كأى نشال أو محتال !

لا .. لا !! لقد أسأت التصرف بشجاعتى ، وتعجلت باستعمالها فوضعتها فى غير موضعها .. لقد كان يجب علىّ أن أكون أكثر اتزانًا مما فعلت .. وأن أتريث فلا أستعمل شجاعتى إلا فيما يستحق .. وألا أكون شجاعًا إلا فى جلائل الأعمال التى تفيد المجتمع والناس .. فأقوّم ما اعوج من الأمور وأصلح ما فسد .. بدل هذا الذى فعلته من الشعبطة فى الأتوبيسات والعراك مع طوب الأرض .

وهكذا أقنعت نفسى بأن أكون أكثر حكمة ، وأن أكبح من جماح شجاعتى .. فلا أتركها تنطلق بى كالحمار الجامح يشبع الناس رفسًا وتلطيشًا ،

ولم يكن هناك بد والأمر كذلك — من مسايسة الباشجاويش ومداراته ، فرجوت الجندى الذى وضعنى فى الزنزانة أن يبلغ « سعادته » أنى أود أن أقول — لسعادته — بضع كلمات .

ووقفت مرة أخرى أمام الباشجاويش وبدأت أحدثه مستعينًا بجبنى القديم ، محاولا جهدى أن أكبح جماح شجاعتى خشية أن يفلت منى زمام نفسى فأبصق عليه وأصفعه على قفاه العريض .

وأخذت أعتذر لسعادة الباشجاويش .. حاشرًا كلمة — سعادتك — بين كل كلمة وأخرى ، وأنبأته أن ضيق خلقى هو الذى دفعنى إلى ما فعلت . وأنى جد آسف وجد نادم .. ثم أفهمته بطريقة مستترة أننى رجل محترم ذو مكانة وحيثية .. وأنى أخشى على سعادته .. لو أصر على حبسى أن يصيبه ضرر .. وأنه لم يدفعنى إلى أن أطلب منه الإفراج عنى إلا خوفى عليه .. وعلمى أنه صاحب أولاد .

وهكذا أمكننى أن أقنع الرجل بإطلاق سبيلى .. متبعًا فى إقناعه كل الطرق إلا الشجاعة .

وخرجت من مركز البوليس وسرت فى الطريق وأنا أحاول جهدى أن أسيطر على نفسى وأكبت شجاعتى .. وألا أكون محدث شجاعة .. فأثور لأقل سبب ، وأضيع وقتى فى الاشتباك مع الناس لأجل توافه الأمور ، وأشغل نفسى بذلك عن جلائل الأعمال .. التى يمكن أن أوجه إليها شجاعتى وأفعل بها ما لم تستطعه الأوائل .

وشرد بى الذهن فأخذت أفكر فى جلائل الأعمال التى يجب أن أستغل شجاعتى فى مباشرتها والإفادة منها .

وبدأت أستعيد الحوادث فى ذهنى وأستعرض المشكلات والمعضلات والأزمات والمصائب التى يمكن أن أستعين بشجاعتى على حلها .

وقفز إلى ذهنى .. من بين تلك المشكلات والمصائب .. مصيبة واحدة

يا أمة الخطب .

يا أمة التعاسة .. يا أمة الهزل .. يا أمة الجهل . « يا أمة ضحكت من جهلها الأمم » .

شرد بى الذهن إلى فلسطين ، ومن غير فلسطين تستحق أن أوجه إليها شجاعتى ؟!

وأحسست بفرحة شديدة .. إنى إذا استغللت شجاعتى من أجل فلسطين فلا شك أنى أكون قد وضعت الشىء فى موضعه .

إنى أكون بذلك قد أرضيت نفسى .. وأكون بذلك قد صرفت شجاعتى فيما يجب أن تصرف فيه .. لا فى تلك التفاهات والسخافات التى صرفتها فيها من قبل .

وأخذت أفكر فى خير السبل التى أوجه فيها شجاعتى فى خدمة فلسطين ، يجب أن أتطوّع للقتال .. وأذهب فأحمل السلاح ، وأخوض غمار المعركة .

هذا سبيل معقول ، أستطيع أن أظهر فيه شجاعتى .. وأبرز فيه جرأتى وإقدامى .. التطوّع للقتال واجب .. وطريقة مثلى لإظهار الشجاعة . ولكن حمل السلاح ، وخوض غمار المعركة هو الذى يستدعى شيئًا من التفكير ويتطلب شيئًا من الروية .

أى سلاح هذا الذى سأحمله ؟ وأية معركة تلك التى سأخوض غمارها ؟

لقد سمعت من صاحب لى عائد من فلسطين .. أنه ليس مع أهلها سلاح يحمل ، وأن معظم المقاتلين هناك عزل بلا سلاح ولا ذخائر .. وأن المعارك التى بدأت فى أول الأمر ليس بها شىء مما نعرفه عن المعارك الحربية ، بل هى أشبه بمعركة بين شاة وقصاب .. قصاب يهودى قد شحذ سكينه ، وشاة عربية .. لا حول لها ولا قوة .

القصاب يصول بسكينه ويجول .. ويذبح ويقتل .. والشاة تستغيث ، وما من مغيث ، وتستنجد وما من منجد .. إلا الأقوال والخطب .

استطاعت أن تبرز فى ذلك الحين من كل ما حولها .. جلية واضحة .. فتصيح بى لو كان لديك شجاعة ، فهلم بها إلىّ !!

مشكلة واحدة هى التى كانت تلح وتتذاك فى طلب شجاعتى .. وهى : فلسطين !! فلسطين الجريحة .. التى يضمدون بالكلمات جراحها .

فلسطين الباكية .. التى يجففون بالخطب مدامعها .

يا أمة العرب .. يا أمة الخطب . يا أمة الحفلات والمآدب ، والله ما كانت خطبكم إلا خطوبا .. وما كانت مآدبكم إلا مآرب ، والله ما كذب زياد بن أبيه حين قال فيكم :

« إن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التى ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير .

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تنصر ، والعدد غير قليل والجمع غير مفترق »

العدد غير القليل . يا أمة العرب .. فأنتم كالحصى .. والجمع غير مفترق .. يا أمة العرب .. وهذه الجامعة قد وحدت كلمتكم .. وجعلت منكم عصبة يخشى خطرها .. ومع ذلك فما دفعتم خطرًا .. ولا أظهرتم بأسًا ولا قوة .

إن العدو ينهش جسدكم .. فلا تفعلون شيئًا سوى الأنين والبكاء . إن الخطر يدهم أبوابكم فلا تفعلون شيئًا سوى العويل والصراخ .. إن الأنذال يسبون نساءكم ويذبحون أطفالكم ، وأنت تجتمعون وتنفضون . وتحلون وترحلون ، ثم تتشدقون بعد ذلك بشجاعة العرب يا أشباه الرجال .. ولا رجال .

إن اليهود الذين فرّقهم الله فى الأرض شيعًا .. قد فرقوكم شيعًا . إن اليهود الضالين قد أضلوكم .. إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم جبناء . يا أمة العرب .

قال لى صاحبى أشياء لا يصدقها عقل .. أشياء لا يجسر القوم على الاعتراف بها . قال لى : إنه ليس لعرب فلسطين تشكيلات عسكرية .. بل هناك مسخرة عسكرية ، وتهريج حربى . وصف لى هجوم الأعراب .. بأن القوم قبل أن يهجموا يطلقون نصف ذخيرتهم فى الهواء على سبيل التفاريح .. كما يفعل أهل البلد فى الريف . وإن اليهود يلقونهم بمدافعهم الآلية فيحصدون صفوفهم المتراصة حصدًا ..ويبيدونهم عن بكرة أبيهم .. قال لى : إن المواطنين العرب فى فلسطين يقاتلون ـــ بالذراع ـــ فلا تكتيك حربى ، ولا خطط موضوعة ، ولا قيادات منظمة .

سألت عن الطائرات والمدافع الثقيلة والمدرعات ؟ فقال لى : إنها عند اليهود . قلت : والعرب ؟ فقال : لديهم العصى .. قلت : وأين طائراتهم ؟ قال : وعود فى الهواء . قلت : ومدرعاتهم ؟. قال : كلام فى الأرض ، قلت : مدافعهم وقنابلهم ؟ قال : هباء فى هباء .

أجل .. إن عرب فلسطين لم ينظموا ، ولم يسلحوا ، ولم يحشد منهم جيش قوى يستطيع أن يذود عن ديارهم ويقاوم خصمهم الغاصب ، بدل أن يولوا منه فرارًا ويتركوا له الديار غنيمة سهلة باردة .. إن الجامعة لم تفعل هذا ، وهو أول ما كان يجب عليها فعله .

ماذا يفيد إذا ذهبت إلى فلسطين فزدت جيوش العزل أعزل آخر ! ماذا تستفيد فلسطين من شجاعتى إذا زدت الشهداء شهيدًا ؟

لا .. لا .. إن شجاعتى لن تغنى القوم شيئًا ، إذا ما ذهبت إليهم بنفسى .. مجرد فرد أعزل .

يجب علىّ أن أستعمل شجاعتى بطريقة عملية .. أستطيع أن أنقذ بها فلسطين فعلا .. يجب أن أحرّك جيوشًا مسلحة قوية .. يجب أن توضع خطة منسقة ، وهجوم منظم لتتعاون فيه القوات المقاتلة ، وتنقض على اليهود ، فلا تبقى منهم ولا تذر .

إن حيفا قد سقطت .. ومدافع اليهود الثقيلة قد بدأت تصلى العرب نيرانًا حامية ، ففروا من دورهم ، وهجروا أراضيهم .. وأضحى عرب فلسطين كلها مهاجرين لاجئين ، عالة على غيرهم لا يكادون يحصلون على الكفاف .

صح نومكم .. أيها النيام ، وأخطأ والله من سماكم عربًا .. لقد كان يجب عليكم أن تدعوا « نيام . نيام ».

ماذا كنتم تنتظرون ؟.. هل تخيلتم أن اليهود سيأخذون عرب فلسطين — بالحضن — أم تخيلتم أن القوم العزل يستطيعون بخطبكم وتصفيقكم أن يتغلبوا على المدافع والطائرات !؟

لقد سمعت زعيمًا عربيًا يقول عندما أعلن نبأ التقسيم : « إن القلم سيصمت وسيتكلم السيف » ، وأصابتني إذا ذاك هزة .. وانتشيت من فرط الحماسة .. وتذكرت خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وتذكرت انتصارات العرب وغزواتهم ، ورثيت لليهود المساكين .. وانتظرت أن أسمع حديث السيف .

انتظرت .. وانتظرت ، وطال منى الانتظار ، لأسمع شيئًا ، حتى اتضح لى فى النهاية أن السيف لا بد أن يكون به خرس .

لقد تحرّك النيام أخيرًا .. وبدءوا يتمطون ويتثاءبون ، وبدأنا نسمع أن الجيوش المسلحة ستتحرك وتطبق على اليهود .

ولكن هل يعنى ذلك أنها إذا تحركت .. فهل ستفعل شيئًا حاسمًا مجديًا ؟.. إن القوم بطيئو التنفيذ .. شديدو البلادة ، وليس هناك من ينخسهم أو يستحثهم على السرعة .. بل الكل يطبلون لهم ويزمرون .. ويهللون لاجتماعاتهم ويكبرون .

ماذا علىّ إذًا لو أكون أنا ذلك الناخس المستحث .. الدافع على العمل ، المنسق للخطط ، الحاض على التسلح والتعاون .. إن خير ما أفعله .. هو أن أدفع العرب للعمل الحاسم الفعال المتناسق الموحد .

إن المسألة لا تخرج عن شيئين .. إما أن يكون اليهود قومًا غير ذوى خطر ..

فنتركهم يفعلون ما يشاءون فى فلسطين .. ولا نتعب أنفسنا بالاجتماعات والمشاورات والخطب والمقالات والهجوم الفردى غير الفعال ، وإما أنهم خطر داهم .. يهدد كيان كل أمة عربية .. وأن اشتراك أية أمة عربية فى درء خطرهم عن فلسطين ، لا يعتبر مجرد مساعدة لفلسطين .. بل هو دفاع ، عن النفس .. وفى هذه الحالة يجب أن تشد القوى وتوحد الجهود ، وتوجه إلى اليهود ضربة قاضية لا تقوم لهم بعدها قائمة .

وهكذا استقر بى الأمر على أن أستعين بشجاعتى ، لكى تجعل منى قوة موقظة دافعة للزعماء النيام .. وبدأت أفكر فى الكيفية التى أستطيع أن أصل بواسطتها إلى ما أريد .

وكنت أعلم أن القوم سيجتمعون فى دار الأمانة العامة للجامعة العربية .. فقلت لنفسى : إن أول ما يجب علىّ فعله هو أن أتوجه إلى هناك .. ولا شك أن الله سيوفقنى إلى ما أفعله ، وسيهيئ لى من أمرى رشدًا .. ويهدينى إلى خير التدابير وأفضل الحلول .

واتخذت طريقى متجهًا إلى مقر الجامعة .. فوصلتها بعد فترة من الوقت .

ووقفت أتأمل البناء .. فلفتت نظرى لافتة كتب عليها « الأمانة العامة » فتقدمت إلى اللافتة .. وأخذت فى نزعها .. وتقدم إلىّ أحد الحراس فسألنى عما أفعله ، فقلت : إنى سأغير اللافتة .. و لم يناقشنى الرجل فقد اعتقد أننى مكلف رسميًا بتغيير اللافتة .. وتجديدها .. و لم يمنعى من عملى .

وكنت قد قررت أن أضع مكان اللافتة لافتة أخرى كتبت عليها بالخط العريض « الخيانة العامة »..

و لم أكد أنتهى من نزع اللافتة .. حتى سمعت ضجيجًا ورائى .. ورأيت موتوسيكلا مندفعًا فى ضجة وضوضاء حتى توقف أمام البواب ، وكانت تتبع الموتوسيكل عربة بها بضعة حرّاس مسلحين .. ثم عربة أخرى أنيقة فخمة ، وعربة ثالثة بها حشد آخر من الحراس .

وسمعت رجلا بجانبى يهمس فى أذنى « الأمين العام » ، وتملكتنى الرهبة .. وأحسست بخشية من الموكب ومظهره الفخم .. رغم تلك الشجاعة التى كانت تملأ نفسى .. وسألت الرجل بجوارى :

ــ وما هذا الموكب الذى يتقدمه ويتبعه ؟!

ــ حراس .

ــ حراس !. ولِمَ ؟

ــ يحرسونه .

ورفعت حاجبى فى دهشة وعدت أتساءل :

حرسه الله وصانه ، وأبقى حياته .. ممن يحرسونه ؟ وممن يخشون عليه ؟

ــ من الصهيونيين .

ــ من الصهيونيين !! و .. وما للصهيونيين وماله ؟

ــ أيها الغبى .. قلت لك إنه الأمين العام .. ثم تسألنى بعد ذلك ما للصهيونيين وماله ؟

وانتظر الرجل أن أقول « آه .. لقد تذكرت .. يا لى من غبى » ولكننى لم أقل له ذلك .. وعدت أسأل :

ــ وماذا يخشى على الأمين العام من الصهيونيين ؟

ونظر إلى الرجل نظرته إلى فلاح غبى لا يفهم من أمور السياسة وتذرع بالصبر وعاد يجيبنى :

ــ يخشى أن يغتالوه .

وتصنعت الفزع وتراجعت للخلف ، وقلت للرجل :

ــ يغتالونه ؟.. أبعد الله عنه الشر .. ولِمَ يغتالونه ؟

وماذا فعل بهم ؟!.. وأى مكروه أصابهم منه ؟ وأى أذى ألحقه بهم ؟!

رارتبك الرجل ، وأخذ يفكر فى قولى برهة .

ماذا فعل بهم ؟

وأى مكروه أصابهم منه ؟

وأى أذى ألحقه بهم ؟

هذا والله شيء محير .. فالصهيونيون كانوا حتى ذلك الوقت بخير وعافية .. ما أصابهم مكروه ، وما مسهم ضر... أما الذين أصابهم مكروه ، ومسهم الضر والأذى .. وأشبعوا ذبحًا وتقتيلا .. وضربًا وتدميرًا ، فهم العرب .

أخذ الرجل يفكر .. وأعياه التفكير دون أن يجد ما يجيبنى به .

وأخيرًا هز رأسه وقال فى ثقة واعتداد :

— إن الرجل بيده مفتاح الموقف .. إنه هو الذى يحرك الجامعة .. إنه رجل الأسرار .. إنه رجل خطير .

ووقع قول الرجل لأول وهلة فى مسمعى موقفًا حسنا .. فهو قول رنان فيه تفخيم وتبجيل .. ولم أجد فيه كثير غرابة .. فهو لا يعدو أن يكون من جملة الصفات التى طالما ألبستها أوهامنا للأمانة العامة .. فظهرتها لنا مفخمة مبجلة .

ولكننى أخذت فى فحص القول وتمحيصه ، ومحاولة فهمه . قطعة قطعة . إن الرجل بيده مفتاح الموقف !

أى مفتاح !! وأى موقف ؟!

إن الموقف كما نعلمه جميعًا .. « بهدلة .. فى بهدلة ». وهزل .. وسخرية فى سخرية .

إنه هو الذى يحرّك الجامعة !

ونحن أدرى بحركات الجامعة ، وما تتمخض عنه .. فكم من مرة تمخض الجبل .. فولد فأرا .. بل فيرانا من التصريحات والأعمال المرتجلة .. سرعان ما ابتلعتها الجحور فكأنها ما كانت .

إنه رجل الأسرار !

لا تذكرونا بالأسرار ، بالله عليكم .. فكم اجتمعت الجامعة فى بلودان ، وفى الزعفران .. وقيل لنا وقتذاك .. هس .. إياكم أن تتكلموا .. لقد وضعت

الجامعة قرارات سرية خطيرة جدًا .. ستذاع فى حينها .. إذا ما دقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وأخذنا نضرب أخماسًا فى أسداس .. ونقول : ماذا يا ترى قد قررت الجامعة ، وتوقعنا لليهود بئس المصير .

كم تحرّك الأمين من القاهرة إلى وشنطن ، وكم طار من وشنطن إلى لندن ، وكم نط من هنا إلى هناك كأنه « فرقع لوز »، وكم صرّح بتصريحاته الغامضة « العائمة » التى تكتنفها الأسرار ، ويحيطها الإبهام ، وحاولنا أن نعرف إذ ذاك سبب الحل والترحال والنط فى مشارق الأرض ومغاربها ، وحاولنا أن نفهم تصريحاته ، فحرنا ، وهززنا رءوسنا ، واتهمنا نفوسنا بالجهل . وقلنا : خير لنا أن ننتظر ، فسيظهر تأثير كل هذا بعد ذاك .

كنا نظن وقتذاك « تحت القبة شيخ » ، وأن الشيخ من نوع جواب رحال .. نوع يرى « أن العز فى النقل » نوع قفاز نطاط لا يستقر تحت القبة قط .. تراه اليوم فى نيويورك .. وتراه الغد فى لندن .. قلنا أعانه الله وقواه .

ودقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وانتظرنا أن يظهر الشيخ وتحل بركاته ، وأن تتفتق الأسرار فتهبط منها حممًا تحرق اليهود وتتركهم هشيمًا تذروه الرياح .. انتظرنا سر الشيخ الباتع .. انتظرنا أن تتحرك من فلسطين الجيوش المنظمة ، والقيادات العليا والتكتيكات العنيفة .. انتظرنا أن نرى الفن الحربى فلقد قالوا لنا : إن الشيخ كان فيما مضى محاربًا قديمًا شجاعًا .

وطال بنا الانتظار ، ونحن لا نرى إلا دخان البخور فى المجامر ، بدل دخان المدافع فى المعارك .. ولا نرى إلا خططًا لمزيد من الاجتماعات ، بدل خطط للهجوم . وإذا بأهل الدار العزل قد غادروها هاربين لاجئين .

رحم الله الشيخ .. لقد « استحلى » المشيخة .. والجلوس فى القبة .

ترى ماذا يمكن أن يخشى اليهود منه .. وقد كان عليهم بردًا وسلامًا !؟

ماذا يخشون من الجوّاب الرحالة النطاط .. صاحب الاجتماعات والخطب والبيانات والتصريحات ؟!

ماذا يخشون من جبل ..أقسم ألا يلد إلا فيرانا !؟

ونظرت إلى حشد الحراس ، وقلت : هذه والله سخرية .. فما أظن الصهيونيين قد بلغوا من الغباء بحيث يفكرون فى اغتيال الرجل أو الاعتداء عليه .. ولو كنت منهم لتطوّعت لحراسته ، ولدعوت له ليل نهار بدوام البقاء وطول العمر . وأن يحفظه الله للأمانة العامة .. وللصهيونيين عامة .

ونظرت إلى الرجل بجوارى ، و لم أحاول أن أناقشه بل أمنت على قوله ، إذ لم يكن المجال مجال نقاش . وما جئت إلى هنا للدخول فى جدل عقيم ، بل جئت لأحرك قادة العرب ، وأوقظ رءوسهم وأوحد خططهم ، وأنخسهم وأستحثهم حتى ينسقوا جيوشهم المسلحة المنظمة لسحق اليهود ..وأنبههم أنى على استعداد لأن أضع جسدى فى الطليعة .

وبدأت أنا أصلح من هندامى ، ووضعت اللافته بجوار الحائط ، ثم سرت فى خطا متئدة تجاه الباب ، وهممت بالدخول .. واستوقفنى الحارس وسألنى عما أريد .

وابتسمت فى ثقة وهمست فى أذنه :

ــ سأخبرك عندما أنتهى من مهمتى .. ادع الله أن يمكننى من إتمامها .

وبدت الدهشه على الحارس وأمسكنى من ذراعى .. قائلا :

ــ وأية مهمة هذه التى ستنهيها .. ألم تقل إنك ستصلح اللافتة ؟!

واستمررت فى الهمس فى أذن الرجل :

ــ لافتة !! لا تكن أبله .. أنا أحضر إلى هنا لمجرد تغيير اللافتة !؟ إن مهمتى أكثر من ذلك كثيرًا . إن لى مهمة عظمى سيهتز لها الشرق .

ثم ربت على كتفيه برفق وأردفت قائلا :

ــ عن إذنك .

ولكن الرجل لم يترك ساعدى ، بل ازدادت قبضته ضغطًا علىّ كأنما يخشى أن أفلت منه ، وعاد يقول :

ـــ مهمتك سيهتز لها الشرق ..!!

وفجأة رأيت الرجل يهجم علّى فيطرحنى أرضا ويصيح بأعلى صوته :

ـــ أيها المجرم الأثيم !

وتكأكأ علينا بقية الحرّاس وهم يتصايحون من حولى ، وأنا غريق بينهم ، وسرعان ما أخبرهم الرجل بأننى صهيونى أثيم .. وأننى أخذت أحوم حول دار الأمانة ، وأفهمته أننى قد أتيت لإصلاح اللافتة .. ثم حاولت التسلل من الباب واعترفت أننى سأفعل فعلة يهتز لها الشرق .

وازداد الضجيج ، وعلا الصراخ ، وهبط كل من فى البناء بعد أن نقل إليهم الخبر بأن صهيونيًا مجرمًا يحاول نسف البناء والفتك بقادة العرب .. كل هذا وأنا راقد على الأرض ، وقد تكأكأ علّى الحراس .. أحاول أن أشرح لهم حسن نيتى وسلامة قصدى .. ولكنى لم أكن أستطيع حتى مجرد التنفس .

وبعد لحظات أوقفونى ووضعوا الأغلال فى يدى وساقونى إلى عربة مقفلة .. وأنا أسمع الأقوال حولى مختلطة متداخلة ، فمن قائل . إنه رآنى منذ أسبوع أرسم مدخل الدار .. ومن قائل : إنه يعرف أننى على رأس عصابة صهيونية خطيرة .

ولم أكن أصدق قط أن هذا قد حدث لى .. أنا الذى منذ لحظة كنت أنوى تحريك الجيوش وتحميس القوّاد .. أصبح فى غمضة عين صهيونيًا أثيما .. ورئيس عصابة خطيرة لاغتيال قادة العرب !

وألقى بى فى السجن .. ومضت فترة ثم قادونى إلى النيابة لسماع أقوالى .. وفى طريقى إلى النيابة ، وصل إلّى أصوات باعة الجرائد .. « ملحق يا جدع . أكبر خيانة عرفها التاريخ . محاولة نسف الجامعة العربية وقتل زعماء العرب ».

وقفت أمام وكيل النيابة ، ونظرت إليه فإذا به صديق لى عزيز وزميل قديم ، ونظر هو إلّى فى دهش ، وقال متسائلا :

ـــ أنت ؟

وهززت رأسى ببساطة وقلت له :

ــ نعم أنا .

ولم يستطيع أن يكتم ضحكه وقال :

ــ أنت صهيونى !! مالك وللصهيونية ؟!

ــ ليست الصهيونية هى السبب .

ــ ما السبب إذًا ؟

ــ الشجاعة .. الشجاعة هى السبب .. أنا لست صهيونيًا .. ولكنى شجاع .

وقصصت عليه ما كنت أنوى فعله .. دون أن أذكر له شيئًا عن جرعة الشجاعة خشية أن يتهمنى بالجنون .

وانتهى الأمر بالإفراج عنى .. وعدت إلى دارى ..

وقد أحسست أن قدمى لا تكادان تحملانى من فرط ما عانيت من جراء جرعة الشجاعة .

(٤)

فى الطريق

إن الإنسان .. هـو الإنسان .. غشاش مخادع .. كذاب منافق .. فى كل أمة .. فى كل جيل .

لاتقولوا : رحم الله آباءنا وأجدادنـا .. لأنهم كانوا خيرًا منـا ، وأفضل خلقًـا .. لاتقولوا ذلك .. فما كانوا يقـلون عنـا .. رداءة وسفالة .

وصلت إلى البيت فوجدت القومَ قد رقدوا والصمت مخيما فتسللت إلى حجرتى ، وخلعت ملابسى فى سكون ، ورقدت فى الفراش منهك القوى ، محطم الأعصاب .

واستيقظت فى الصباح وتبينت من الضوء الذى انتشر فى الغرفة أنى قد تأخرت عن موعدى الذى تعوّدت الذهاب فيه إلى عملى .. والذى لم أجرؤ مرة واحدة على التأخر عنه .

أنا رجل شديد المواظبة .. وقد يكون فى مواظبتى هذه نوع من الجبن وخشية العواقب ، فأنا أخاف أن يؤخذ علىّ فى عملى أى مأخذ ، أو خطأ .. لا لحبى للعمل .. بل لخوفى من الظهور بمظهر المتراخى المكسال .

ولو كنت فى يوم عادى ــ لم تفعل فيه جرعة الشجاعة بنفسى ما فعلت ــ وأريت الضوء قد ملأ الغرفة كما رأيته عندئذ .. لقفزت من السرير كالملسوع

وارتديت ملابسى فى ثوان معدودات ثم خرجت أعدو فى الطريق ووصلت إلى عملى فى لمح البصر ، وأنا ألهث من فرط التعب .

ولكنى .. وبى من الشجاعة ما بى .. وجدتنى أنهض من الفراش ببطء وأذهب إلى الحمام فى تؤدة .. ومضت بى نصف ساعة ، وأنا أحلق ذقنى وأرتدى ملابسى بمنتهى التأنى كأنما أنا ذاهب إلى موعد غرام .. وجلست على مائدة الإفطار أتناوله فى شهية دون أن يدخلنى أى إحساس بقلق أو خشية .

ماذا يضرنى أو يضير العمل إذا تأخرت عن موعدى نصف ساعة أو حتى ساعة! من ناحيتى أنا .. لا أظنه سيصيبنى أكثر من كلمة تأنيب من الرئيس .. سأعرف ولا شك كيف أردّها له .. أما ناحية العمل .. فلا أعتقد أن تأخيرى يضيره كثيرًا .. لأننى لو جمعت كمية العمل التى أعملها فعلا خلال ساعات العمل الست لما كانت أكثر من نصف ساعة .

وهكذا خرجت من الدار ، ناعم البال مطمئن النفس .. ليس بى من خوف ولا عجلة .. أو كما يقولون — فى بطنى بطيخة صيفى — !!

ووقفت فى محطة الترام المزدحمة المكتظة بخليط عجيب من الناس ، وأقبل علىّ « حسين » بائع الجرائد ، وقد مد إلىّ يده بكومة منها ، وقال بلهجة مليئة بالثقة والاهتمام :

— الحالة صعب .. اليهود كانوا حاينسفوا الجامعة . لولا ربنا ستر .

وتناولت منه بضعة جرائد ومجلات ، وطويتها تحت إبطى .. فقد كنت أعلم تمامًا كل ما بها .

وأخذت أقلب الطرف فيمن حولى ، ولفت نظرى رجل منتفخ الأوداج ، بادى التأنق ، قد مال طربوشه على أحد حاجبيه ، وعلق سبابته وإبهامه بطرف شاربه يشبعه برمًا ولفا ، وأمسك بيده الأخرى عصًا اتكأ بها على الأرض ومال بجسده عليها ، وبدت عيناه حائرتين زائغتين .. بين نوافذ الدور المحيطة ، وبين الحريم الشارد فى الطريق ، والواقف على الأرصفة .

وأقبل الترام فاندفعنا إليه واستطعت أن أحشر جسدى بين الجمع الوقوف متعلقًا بإحدى الحلقات الجلدية المدلاة من سقف الترام .

وبعد هنيهة رأيت « الكمسارى » مقبلا يشق طريقه بين الأجساد المتراصة وهو ينقر بقلمه على خشبة التذاكر ، ويصيح بين آونة وأخرى — ورق — فأخرجت من جيبى ثمن التذكرة وتناولت منه تذكرتى .

وتابع الرجل طريقه يبيع الورق لغيرى من الركاب .

والتفت حولى فوقع بصرى على ذلك الرجل المنتفخ الأوداج ، المبروم الشارب ، الأرستقرطى المظهر ، ورأيت « الكمسارى » يشق طريقه إليه .. ولا شك أن الرجل قد أحس هو الآخر به فقد بدا عليه مظهر المطارد .

وهنا بدأت أرقب نوعًا عجيبًا من المطاردة الصامتة .. بين « الكمسارى » وبين الراكب المتأنق الأرستقراطى الذى يحاول أن يفلت من ثمن التذكرة ، دون أن تتهاوى أرستقراطيته أو تحد من كبريائه .

كان أول ما فعله الرجل حين أبصر « الكمسارى » مقبلا عليه هو أنه استدار بشىء من العظمة وأعطى ظهره لبائع — الورق — ممسكًا شاربه بيمينه .. موليًا وجهه إلى خارج الترام . كأنه يستنشق النسيم .. أو كأن المناظر التى يمر بها الترام .. لم تقع عليها عيناه من قبل فهى تستلفت كل اهتمامه ، أو كأنه — سرحان — لا يحس بشىء من هذه الدنيا الصاخبة حوله .

ولقد بدا الرجل كذلك فعلا .. حتى كدت أخدع فيه ، فأظن حركته تلك التى أعطى بها « الكمسارى » ظهره .. حركة غير مقصودة .. وأنه فعلا شارد الذهن ، لا يحس بالكمسارى ولا يقصد التهرب منه .. لولا شىء واحد هو الذى جعلنى أكشف الرجل .. وهو استراقه البصر — من تحت — ونظرته إلى « الكمسارى » بنصف عينه .. ومراقبته له خفية.... وتتبعه له فى حركاته وسكناته كأن الاثنين فى مبارزة .

وقام « الكمسارى » .. بحركة تطويق واسعة النطاق .. قادته مباشرة أمام

مواجهة خصمه .. وبدأ هجومه بلا رفق ولا هوادة .. وانطلقت منه أول قذائفه .. « ورق يا بيه ».

ولكن — البيه — تنحى بسرعة .. فأصابت القذيفة رجلا بجواره .. سرعان ما مدّ يده بالنقود إلى « الكمسارى ».

ولقد كانت حركته فى الدفاع حركة ماهرة .. دلتنى على أن الرجل متمرن فى الزوغان . وأثبتت لى أنه كان فى تمام اليقظة ، وأنه كان يتتبع جيدًا حركات خصمه ، فلم يستطع أن يأخذه بطريقة المفاجأة .

إن الرجل لم يكد يحس « بالكمسارى » حوله ويقترب منه حتى نظر إلى سقف الترام .. ثم بدا كأنه على وشك أن يعطس ورأيته يمد يده فى جيبه باحثًا عن منديله .. ووضعه على أنفه وأخذ يعطس عطسات ، مكتومة ، وكان يلف عقب كل عطسة ربع لفة .. بطريقة غير مقصودة .. حتى انتهى الأمر به بعد بضع عطسات إلى أن يعطى « للكمسارى » ظهره مرة أخرى .

و لم ييئس « الكمسارى ». بل أصر على أن يعاود الهجوم مرة أخرى .. وكان الرجل قد بدأ ينشر بين يديه جريدة تظاهر بأنه انهمك فى قراءتها وأنها قد شغلته عن كل ما حوله ، فلم يعد يحس لا بكمسارى ولا بغيره .. ومع ذلك كنت أعرف تمامًا أن « الكمسارى » لم يفلت من مراقبته لحظة واحدة بدليل هذا الالتفاف البطئ حول نفسه .. والذى يجعل ظهره دائمًا « للكمسارى ».

ولست أشك فى أن الرجل كان سينتصر فى النهاية .. وأنه كان سيفلت من ثمن التذكرة .. لولا أن حدث أمر جعل المعركة تنقلب فى غير صالحه .. وجعله يسلم فى النهاية .

لقد سقط الرجل بعد أن تكأكأ عليه خصومه .. وبعد أن استعملوا معه طريقة الكماشة التى لم يستطع أن يفلت منها .

لقد أخذ « الكمسارى » يطبق عليه كطرف من أطراف الكماشة .. أما الطرف الآخر .. فقد كان فى هيئة مفتش .. يقول للرجل فى أدب : « تذكرة

يا بيه » ، وهنا رأيت الرجل يترنح ويمد يده فى جيبه فيخرج « شلن » .. ويمد يده به إلى المفتش قائلا : « هات الباقى ».

وتناول المفتش « الشلن » وناوله الكمسارى وأخذ منه تذكرة فمزق طرفها وسلمها للرجل .

وفجأة انقلب الحال .. وتطورت المطاردة .. بعد أن أخذ الكمسارى « الشلن ».. وزاغ به بين الركاب دون أن يعطى الرجل بقية النقود .

لقد تبدل الأمر .. فإذا .. بالكمسارى هو الهارب الزائغ .. وإذا به يحوم من بعيد حول الرجل .. دون أن يقترب منه قط .

لقد أخذ يكيل بنفس الكيل الذى كال له به .. ويبادله استهبالا باستهبال ، واستعباطًا باستعباط .. والرجل قد انقلب حاله .. انقلابًا تامًا .. فتبدل شروده بيقظة .. وصهينته تحفزًا .. ونظرته للكمسارى من تحت لتحت .. أضحت بحلقة وذعرًا .. وخشيته منه ، وتجنبه له .. قد أصبحت لهفة عليه ، ورغبة فى الوصول إليه .

وهكذا أخذ الترام يقطع المحطة تلو المحطة ، والرجل يزداد قلقًا وتحفزًا وعيناه تزدادان تعلقًا بالكمسارى .. حتى شغلنى عنه صوت امرأة أجنبية قد جلست على كرسى قريب .

وأخذت تنادى « الكمسارى » فى إلحاح .

وسمعت رجلا بجوارى ــ يتصعب ــ بشفتيه ، ويهز رأسه فى أسف .. ويوجه الحديث إلىّ قائلا .

ــ يا سلام .. على الأمانة .. يا خسارة على المصريين .. لو كانت مصرية !! كانت انتهزتها فرصة .. وصهينت عن التذكرة .

يا خسارة على ولاد العرب !

واستنتجت من حديثه .. أن المرأة الأجنبية تنادى « الكمسارى » بذلك الإلحاح لأنه قد نسى أن يأخذ منها ثمن التذكرة ، ولم أستطع سوى أن أؤمن على

قوله ، ولا سيما بعد ما رأيته من صاحبنا الأرستقراطى وتفننه فى الزوغان من « الكمسارى ».

وبدأ الركاب يشتركون فى إبداء آرائهم .. ويشيدون بأمانة السيدة خاصة والأجانب عامة .. ويرددون الأمثلة المختلفة .

ولم يعدم الأمر .. أن يكون بينهم من زار — بلاد بره — أو من يعرف بعض من زارها .. فأخذ يضرب الأمثلة بأمانة القوم هناك ، وأن بائع الجرائد يترك الجرائد على الطريق .. والناس يأخذون الجريدة التى يريدونها .. ويضعون القرش فى صندوق بجوار الجرائد .

واخذ البعض يعلقون على هذا المثل بقولهم : إنه لو حدث عندنا مثل هذا .. لما وجد البائع .. لا الجرائد ، ولا النقود .

وهكذا انهمك الركاب جميعًا فى الحديث .

وسمعت فصلا كاملا عن أمانة الأجانب ، وأن حرماننا من هذه الفضيلة .. هو سر تأخرنا .

ولست أنكر .. أننى قد ألقيت بدلوى فى الدلاء .. وأنى اشتركت كغيرى فى ضرب الأمثلة التى سمعتها عن الأمانة فى — بلاد بره — !

وأخيرًا .. وصل « الكمسارى » إلى المرأة .. فإذا بها تهتف به .

— أين النكلة الباقية من القرش الذى أعطيته لك ؟!

وأحسسنا جميعًا بخيبة أمل .. وكان دشًا باردًا هبط علينا .. بعد ما اتضح لنا .. أن صياح المرأة لا يمت للأمانة بصلة .. وأن هذا الإلحاح منها فى طلب « الكمسارى » لم يكن إلا من أجل « النكلة » الباقية من القرش الذى دفعته ثمنًا للتذكرة .

وشرد بى الذهن .. فتذكرت أنه ليس أسهل علينا من أن نندفع دائمًا .. فنشيد بأخلاق الأجانب .. ومقدرة الأجانب .. وفضل الأجانب .. ونسلب أنفسنا من كل خلق .. ونحرمها من كل مقدرة وفضل . فننسب النقائص لأنفسنا .. والفضائل لسوانا .. يدفعنا إلى ذلك مركب النقص الذى نحسه فى

أنفسنا ، ولو بحثنا عن الواقع لوجدناهم شرًا منا .

إن الإنسان هو الإنسان .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .

إنى لأذكر ذات مرة .. كنت أدرس فيها أنا ومصرى آخر فى إحدى مدارس الجيش البريطانى ، وكان الطلبة معنا خليطًا من جميع الأجناس : إنجليـز ، وبولنديين ، وأستراليين ، وبضعة رجال من جنوب إفريقيا .

وعندما حل موعد الامتحان .. كنت أنا وصاحبى قد استوعبنا كل مـا درسناه جيدا .. فقد كنا نحس من الامتحان خشية ورهبة ، وكنا واثقين أن الغش فى مثل هذه الامتحانات التى يراقبها الإنجليز أمر مستحيل .

فهم قوم أخلاقهم مثلَى ، ويجب أن نعتمد نحن على أنفسنا ... فنضرب لهم مثلا .. إنهم ليسوا خيرًا منا .

وبدأ الامتحان ، وانهمكت فى الكتابة .. معتمدًا على نفسى ، ولكن لم تمض برهة حتى وجدت صاحبى يمد يده إلىّ بورقة .. فتناولتها منه ، وبى ارتباك شديد ، وقرأتها ، فإذا بها إجابة لبعض الأسئلة .. فتملكنى الحنق على صاحبى ، لأنه سيفضحنا وسط الأجانب ، وأصابنى خوف شديد ، وأخفيت الورقة تحت النشافة .. وأخذت أستعين بما فيها خفية .

ورأيت جارى الآخر ، وهو إنجليزى الجنس .. ينظر إلىّ بين آونة وأخرى .. فازددت حرصًا على إخفاء الورقة ، خشية أن يتبين أنى أغش .

ومضى الوقت ، وأنا أرى جارى يزداد تلفتًا إلىّ ، ويبدو عليه القلق .

وبعد فترة أخرى .. رأيت أن الأمر لم يعد يقتصر على جارى فقط بل سرى بين بقية الطلبة ، وأنهم كلهم قد أخذوا يرمقوننى بغيظ ، ويبدو عليهم قلق شديد .

وأخيرًا .. طفح بهم الكيل ، و لم يعودوا يطيقون صبرًا على أن يروا جريمة الغش ترتكب أمام أعينهم . فرأيت جارى قد نهض حانقًا وهجم علىّ .. فانتزع الورقة من تحت النشافة ، وعاد إلى مقعده بهدوء ، وجلس ينقل منها بمنتهى

البساطة .

إى والله ، هذا ما حدث .. لقد كنت أتوقع عندما نزع منى الورقة أن يذهب بها إلى مراقب الامتحان .. ويخبره بجناية الغش التى ارتكبها أحد المصريين .. ولكنى وجدت أن كل ما فعل هو .. أن أخذ الورقة ليغش منها .. ناظرًا إلىّ قائلا : « إنى بليد جدًا » ..

اتضح لى فى النهاية أن الورقة كانت مكتوبة بمعرفة المراقب .. وأنها كانت تمر على كل طالب ليغش منها ما يريد ثم يسلمها إلى جاره .. وهكذا ثار الطلبة عندما حجزت الورقة عندى .. ولم ير جارى بدًا من أن يهجم علىّ لينتزعها منى .

واتضح لى كذلك أن مهمة المراقب الكبرى لم تكن فى مراقبتنا نحن بل فى مراقبة الباب حتى لا يطب علينا أحد من الخارج .

هؤلاء هم الإنجليز .. وغيرهم من الأجناس .. نحسن الظن بأخلاقهم ، ونربأ بهم عن الغش .

إن الإنسان .. هو الإنسان .. غشاش مخادع كذاب منافق .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .

لا تقولوا : رحم الله آباءنا وأجدادنا .. لأنهم كانوا خيرًا منا ، وأفضل خلقًا .. لا تقولوا ذلك .. فما كانوا يقلون عنا .. رداءة ..

لقد كانوا أنانيين مثلنا .. كذابين مثلنا .. آثمين مثلنا . إن هذه العصا من تلك العصية ، أو هذا النعل من ذاك الوطا .

لاتقولوا : إنكم رأيتم فى ـــ بلاد بره ـــ الأمانة والصدق والإخلاص .. فقد رأينا نحن ـــ بلاد بره ـــ عندما أتت إلى ـــ بلاد جوه ـــ وخبرنا جيدًا أهل « بلاد بره ».

أوَ قد نسيتم جيوش الحلفاء .. وكيف كانوا يبيعون مهماتها ، وأسلحتها ، وعرباتها المسروقة بأبخس الأثمان ؟

هل نسيتم .. أن اللصوص .. كانوا هم أنفسهم جنود الحليفة ، وضباط

الحليفة !؟

سلوا كبار المتعهدين ؟ كيف كانوا يرشـون ـــ الصاجن ـــ أو ـــ الكابتن ـــ حتى يسمح بقبول البضائع ، رغم أنها غير مطابقة للعينات .. فكانوا بذلك يسببون خسائر لأمتهم التى هم أمناء على أموالها .. لقد كانوا لصوصًا .. ومرتشين ، وغشاشين .. وخونة .. سرقوا من أمتهم ، وغشوا أمتهم ، وخانوا أمتهم .

هؤلاء : هم أهل ـــ بلاد بره ـــ الذين نرى فيهم مثلا عاليًا .. نتشدق دائمًا .. بحسن خلقهم .. هل هناك أشد منهم انحطاطًا ، وأردأ خلقًا ؟

لا تحزنوا على أنفسكم .. فكلنا .. فى الهوى سوا .

لا تحطوا من قيمة أنفسكم .. فما كنا شرًا منهم . ولا كانوا خيرًا منا .

وكان الترام قد وصل إلى المحطة التى أبغى النزول فيها .. فشققت طريقى بين الأجساد ، حتى استطعت أن أهبط من الترام .. ووصل إلىّ صوت الرجل الأرستقراطى يصيح بالكمسارى بعد أن فاض به :

ـــ انت يا جدع انت .. فين الباقى ؟

ولم تكن المسافة بين مقر عملى ومحطة الترام طويلة .. وكنت دائمًا .. أقطعها مسرعًا فى بضع لحظات .

ولكنى اليوم أحسست برغبة فى ـــ التبختر ـــ رغم علمى أنى قد تأخرت عن موعدى ، ما يقرب من الساعة .

وأخيرًا ، وصلت إلى المكتب ، وجلست على مقعدى فى هدوء بعد أن ألقيت التحية على الزملاء الذين كانوا يحملقون فى وقد تملكهم الدهش .

كنت أعلم أن دهشهم لم يكن قد سببه تأخرى قدر ما سببته طريقتى فى الدخول .. فى الساعة التاسعة .

لقد كنت أتبع طريقة فى الدخول ـــ فى المرات القلائل التى تأخرت فيها عن موعدى من قبل ـــ لا تتناسب قط مع طريقتى التى دخلت بها اليوم .

كانت لى طرق ثلاث ، أتبعها دائمًا عند التأخر .

أولها : هى أن أقبل عليهم بطريقة توهمهم أنى حضرت مبكرًا جدًا ، وانهمكت فى العمل .. وأنى قد ذهبت لأقضى بعض المهام ، وأنى عائد منها فى التو .

وكيفية تنفيذ هذه الطريقة : هى أن أمر على أى مكتب آخر قبل الذهاب إلى مكتبى .. وليكن الأرشيف مثلا .. فأحمل منه بضعة دوسيهات ، وأسير وأنا أقلبها وأفحصها .. وقد بدا علىّ أبلغ آيات الانهماك .. وأدخل إلى المكتب .. دافعًا الباب بقدمى .. وأنا مستمر على النظر فى الدوسيهات دون أن أكلم أحدًا .. أو ألتفت إلى أحد .. ثم أقذف بالدوسيهات إلى المكتب فى ضيق وتبرم .. وأتمتم ببعض كلمات يفهم منها من حولى .. أننى — قرفان — وأننى الوحيد الذى أشتغل .. فإذا ما أنبأنى أحد أن — البيه — أى الرئيس — طلبنى حملت الدوسيهات مرة أخرى .. ودخلت عليه .. وبدأته أنا بالحديث قبل أن يبدأنى هو .. شاكيًا من أنه ليس هناك من يتعاون معى .. وأنه — ما من أحد أقبل على الشغل — وأنى لن أستطيع أن أتحمل مسئولية ما قد حدث .. فلقد فعلت كل ما فى وسعى .. وأخليت نفسى من المسئولية .

وتضرب لخمة مع — البيه — الرئيس ، وينسى ما ينوى أن يطلبه منى .. وينسى بالطبع ، أنه قد طلبنى .. فلم يجدنى .. وأنى تأخرت عن موعدى .. و — يندب — معى فى الموضوع المرتبك الذى دخلت أعرضه عليه .. وليس أسهل علىّ من أن أقدم موضوعًا مرتبكًا .. لأن كل الموضوعات عندى مرتبكة .

هذه طريقة للدخول فى حالة التأخر .

أما الطريقة الثانية . فهى أن أدخل حزينًا مكتئبًا .. مدعيًا أننى لم أنم طوال الليل .. لأن زوجتى .. أو حماتى .. كانت مريضة جدًا .. وأبدأ بوصف ليلة سوداء .. قضيتها فى الجرى وراء الأطباء .

أما الطريقة الثالثة .. وهى فى نظرى بمثابة الحالة — ج — فهى أن أدعى أننى

أنا نفسى مريض ، وعلى وشك الهلاك .

وهكذا كان يدفعنى جبنى وخشيتى من العواقب إلى أن أجد مبررات لتأخرى .. ولقد كانت تلك المبررات دائمًا .. تضمن لى أجمل العواقب وخير النتائج .

أما اليوم .. وقد انطوى الجبن فى نفسى .. وبرزت فيها الشجاعة .

ولم أعد أحس بأى خوف مما قد ينتج عن تأخرى فى الحضور .. فإنى لم أشعر بحاجتى إلى أن ألتمس أى مبرر للتأخر .. بل دخلت إلى المكتب — علنًا — وصحيحًا معافى .. وضاحكًا مستبشرًا .

ونظر إلىّ الزملاء فى دهش ، وردوا على تحيتى الصاخبة . وهمس لى « بهجت أفندى » بلهجة الناصح :

— البيه طلبك خمس مرات ، وعرف أنك ما جتش .

وكان فى قوله ما يكفى لأن أنهار وأتخاذل .. وأن أندفع إلى « البيه » فأختلق الأعذار لتأخرى .. وأطلب منه العفو .. ولكنى نظرت إلى « بهجت أفندى » ببساطة ، وهززت رأسى متسائلا :

— ما قلش عايز إيه ؟

وتعجب صاحبى من برودى وهدوئى .. وأجابنى بأنه — طلبنى ليس إلا — وقال على سبيل التحذير .. إن البيه هائج ثائر .

ويخيل إلىّ .. أنه يجب علىّ قبل أن أسترسل فى ذكر ما حدث أن أعطيكم صورة واضحة لهذا « البيه » وأن أصفه لكم قطعة .. قطعة .

« البيه » هو إبراهيم أفندى عبد المتعال .. رئيس قلم .. فى وزارة .. يتراوح عمره بين الأربعين والستين .

ولست أريد أن يؤخذ من قولى هذا دليل على غباوتى أو على عدم كفايتى فى تقدير أعمار الناس ، لأن لى كل العذر فى أن أعطى للرجل عشرين سنة — براحا — لكى يتراوح عمره فيها .

وماذا أقول ، وأنا أراه يومًا فى الأربعين ، ويومًا فى الستين ، وأخرى عجوزًا فى أرذل العمر ؟

إنى أرى عمر الرجل يتوقف على العوامل الآتية :

حلاقة ذقنه .. صبغة شعره .. عراكه مع زوجته ، هزيمته أو انتصاره فى الطاولة فى الليلة السابقة .. كمية ما احتساه من النبيذ والعرقى .

فقد أدخل عليه يومًا فأجد وجهه برّاقًا لامعًا .. وشعره أسود فاحمًا ، وعينيه ضاحكتين ، فلا أعطيه من العمر أكثر من أربعين عامًا ، وقد أدخل عليه يومًا آخر .. فأجده مغمض العينين .. أبيض الشعر .. أسود لحم الوجه ، تناثرت فى ذقنه الشعيرات البيض ، فلا أعطيه من العمر أقل من ستين عامًا . ولولا أنه لم يذهب للمعاش بعد ، لاعطيته أكثر من ذلك .

أما وصف الرجل .. فقد كان ممتلئ الجسد .. أحمر الوجه .. ذا ثلاثة كروش : كرش فى بطنه ، وكرش فى ذقنه ، وكرش فى قفاه .

أما الكرش الأولى ؛ وهى أكبرها حجمًا .. فقد كانت أبرز ما فيه تلك الكتينة الذهبية التى تتدلى عليه من جيب الصديرى .

وأما الثانية : فقد كانت تتهدل أسفل ذقنه حتى تخفى ياقته ، وجزءًا من الكرافتة .

وأما الثالثة : فقد كانت من نوع دهنى ، متحجر .. تقوم على قفاه .. كأنها سنام الجمل .

فإذا ما تركت هذه الظواهر الطبيعية الثلاث ، وجدنا الرجل فى حد ذاته معقولا كأى آدمى من أبناء آدم .. وعلى عينيه وضع تينكم القطعتين من الزجاج اللتين تميزان ابن آدم عن بقية الحيوان .

أما شاربه فهو لا يستقر على حال .. يومًا مبرم ويومًا متهدل .. ويومًا حليق ، ويومًا مسترسل .

وكانت علاقتى بالرجل على خير ما يرام ، وقد لا أكون مبالغًا إذا ما قلت :

إننى كنت أحب الموظفين إليه .. لا لقدرتى فى العمل أو لتفوّق على غيرى من الزملاء .. بل لأنى استطعت أن أفهمه .

والواقع أنى لا أرى فضلا يمكن أن ينعم به الله على عبده قدر أن يعينه على أن يعينه على أن يفهم رئيسه ، ويعرف يروضه ويسوسه ، ولا شك فى أن أسعد الناس فى الحياة ، هم أقدرهم على فهم الناس .

كان « إبراهيم أفندى ».. أو — البيه — كما تعودت ألسنتنا أن تنطق به ، من أكسل خلق الله وأبلدهم .. ولم يكن يفعل شيئًا أكثر من — الإمضاء — وحتى هذه الإمضاء التى كان يبصمها على الأوراق ، كان غالبًا ما يضيق بها ذرعًا .

كنت أدخل عليه بالدوسيهات ، وكانت إمضاءاته دائمًا تتوقف على حالته النفسية .. لا على فهمه للموضوع ، ولا على استحقاق المسألة للقبول أو للرفض .. وكنت كما سبق القول أقدر الناس على ترويضه ، وعلى أن أحوّل غضبه رضا ، وكنت أحس حينذاك ، أن الرجل على كبره لا يزيد عن أن يكون فى قرارته طفلا صغيرًا .

كنت إذا ما رأيت الرجل غاضبا ، تركت الدوسيهات جانبًا ، وأقبلت عليه أحييه فى أدب واحترام ، وسرعان ما أسوقه إلى أحد الموضوعات الثلاثة التى لا يمل أبدًا من تكرارها والحديث فيها .

ولم تكن هذه الموضوعات إلا مفاخر يشيد فيها الرجل بنفسه ، وأشاركه أنا فى هذه الإشادة حتى أجعله يشعر بمنتهى الرضا والسعادة .

كانت أول هذه الموضوعات .. حكاية قصها الرجل علىّ ما يقرب من سبعمائة مرة .. وكنت فى كل مرة أسمعها أدهش منها وأبدى تعجبًا كأننى لم أسمعها من قبل .. ثم أعلق عليها بما استطعت من كلمات التقدير والإعجاب .

خلاصة الحكاية .. أن الرجل — كما يزعم — كان فيما مضى من كبار « الفتوات » وبطلا من أبطال حمل الأثقال .. ممن تخشى سطوتهم ويهاب غضبهم ، وكان له صديق — غلبان كده زى حالاتك (كذا كان يقول الرجل

فى كل مرة .. وكنت أنا أبتسم موافقًا على قوله) وكان يحب فتاة لا تكاد تشعر به .. ففى ذات يوم ذهب إليه ، وقد بدا عليه الهم وملأه الاكتئاب وسأله أن يصنع فيه معروفًا لن ينساه مدى العمر .. واستفسر منه عما يطلب . فإذا به يرجوه أن يشتبك معه أمام الفتاة التى يحبها .

ويرفع الرجل منظاره فيضعه على المكتب ويتمم قصته قائلا :

ـــ أجل لقد وجدته يرجونى أن أشتبك معه أمام ـــ البنت ـــ وأتهجم عليه ، ولكنى لا أضربه ، بل يثور هو فى وجهى ويناولنى بوكسًا خفيفًا .. فأصرخ أنا وأفر هاربًا ، وهكذا يبدو هو فى نظر الفتاة بطلا .. ويستطيع بذلك أن يكتسب حبها .

وفكرت فى الأمر جيدًا ، وهممت بأن أرفض .. فقد كان كثيرًا علىّ أن أضرب من فتى هزيل كصاحبى .. ولكن دافع الصداقة والإخلاص دفعنى للقبول ، واتفقنا على الموعد ، وتركت له تدبير المسألة .

وذهبنا إلى المكان المتفق عليه ، وهو مقهى أمام دار الفتاة ، وانتظرنا حتى أطلت من النافذة ، فبدأنا نتبادل السباب ، ونهضت من مكانى متهجمًا على صاحبى ، ونهض هو مندفعًا إلىّ وناولنى ـــ البوكس ـــ المتفق عليه .

ولكن الظاهر أن صاحبى كانت قد أخذته الجلالة .. وتملكته النشوة ، وحمى بعض الشىء ، فجاءت لكمته أقوى مما كنت أتصوّر ... وأحسست منها بألم شديد جعلنى أستشيط غضبا ، وأنسى كل ما اتفقنا عليه ، وأمسك بصاحبنا الهزيل .. وعينك ما تشوف إلا النور .. لقد حملوه من المقهى إلى الإسعاف ..

ويسكت « إبراهيم أفندى » .. فأسأله أنا ذلك السؤال الذى أعرف أنه ينتظر أن أسأله إياه :

ـــ والبنت يا سعادة البيه ... عملت إيه ؟

ويضحك إبراهيم أفندى فى تخابث .. وينظر إلىّ نظرة ؛ يفهم منها أنها قد أحبته ، ثم يقول ضاحكا :

— يا واد عيب .. دا كان زمان .

وهنا أندفع فى عاصفة من التقريظ ، وينساب من فمى سيل من المديح وأقول كل ما أستطيع قوله من أكاذيب أرضى بها الرجل .

وقد تكون قصة الرجل على شىء من الطرافة ، وقد يحتمل الإنسان سماعها مرة ، ومرتين وثلاثًا .. أما أن تقص علىّ سبعمائة مرة — بلا مبالغة — (فقد كان يقصها على بمعدل يوم بعد يوم) فذلك ما لا يحتمل .. ولكنى مع ذلك استطعت احتمالها فى سبيل أن أرضى الرجل ، ولم أمل من التعليق عليها والإفاضة فى مديحه وتقريظه ، وهذا هو ما كنت أراه فضلا فى .. وقوة احتمال للمكاره .

أما الموضوع الثانى فقد كان موضوع الترقية ، وكيف أنه رغم كفايته وقدرته لم يحظ بمثل ما حظى به من هم أقل منه كفاية وقدرة .. وذلك لأنه صريح شجاع لا يحب التملق ولا المداهنة — ووافقته أنا على ذلك مع علمى أنه أكبر مداهن متملق رعديد — ثم يقص علىّ كيف كان « فلان باشا » زميله فى المدرسة ، وكيف كان « فلان بك » معه فى مكتب واحد ثم أضحى وكيل وزارة ، ولم يزل هو رئيس قلم .

وهكذا يندفع الرجل فى ذكر فضائله ومزاياه ، وأنه ليس هناك من يقدر تلك المزايا والمواهب .. وأندفع أنا فى موافقته على طول الخط .

أما الموضوع الثالث فقد كان موضوعًا داخليًا .. أعنى خاصًا بحياته الداخلية .. وعلى وجه الدقة .. خاصًا بعلاقته مع الست « أم على » حرمه المصون .

كانت شكوى الرجل من امرأته ، وفضفضته بما تفعله فيه هو خير ما يروّح به عن نفسه ، وكان يبدأ الفضفضة عادة بسؤاله — أنت متزوج يا « فلان أفندى ؟ فأجيبه بالنفى ، فينفخ بشدة كمن يزيح عن صدره كابوسًا يطبق عليه ويقول : يا بختك !

وأنتظر أنا عليه برهة حتى يشم نفسه ثم أسأله عن الموضوع فيبدأ بوصفه

قائلا :

ــ الوليّه .. حاتجيب خبرى ، يا أخى المحكوم عليه بالسجن المؤبد بيخرج بعد عشرين سنة ، وإذا كانت أخلاقه حسنة بيشيلوا عنه سنتين ، وآنا بقالى خمسًا وعشرين سنة مع الوليّة مش قادر افلت أبدًا منها .

ــ إيه اللى حصل يا سعادة البيه ؟!

ــ موريانى المر .. سودت عيشتى .. انبارح طول الليل تدق بالهون .. آل إيه بتشبشب علشان فيه ناس عاملين لها عمل ، ومسنكرة الشبابيك علشان ما بصبصش للجيران .. قل لى أعمل إيه ؟

وأجاوبه أنا بمنتهى البساطة :

ــ طلقها ؟

ثم أبدأ فى إقناعه أنه ما زال شابًا ، وفى أوج قوته ، وأظل أنفخ فيه مدحًا وتقريظًا حتى يحس بالرضا التام .

وهكذا كنت أستعمل مع صاحبنا كل ما وهبه الله لى من قدرة فى النفاق والرياء والمداهنة ، وكنت بهذه الطريقة أريح نفسى من شرّه وأتقى غضبه .. ما ذكرت مرة واحدة أنى عارضت له رغبة ، أو خالفت له رأيًا .

وكنت بين آونة وأخرى أقدم له بعض الهدايا.. بثمن صورى زاعمًا أنى حصلت عليها لقطة، وأذكر أنى قدمت له مرة صندوقًا من الشوكولاته يقدر ثمنه بثلاثة جنيهات.

وسألنى عن ثمنه ، فقلت له ابتعته لقطة بخمسة قروش ، و لم يدهش الرجل بل نظر إلىّ ببساطة ، وقال لى :

ــ اوعى يكون أغلى من كده ؟!

لقد كنت أستعين على الرجل بالجبن والنفاق والرياء .. أما الآن ، وقد تناولت جرعة الشجاعة ، وتطاير عنى الجبن وتبدد النفاق والرياء ، ترى كيف أستطيع أن أتعامل معه .. وهل أستطيع أن أحتمل غباوته وحمقه وسخافته وسلاطة لسانه ؟! لقد غادرت مكتبى ودفعت بابه ، وأنا أقول فى نفسى :

ــ اللهم رفقًا بى .. وبه .

(٥)

اللعبة الكبرى

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات وأحزاب وسياسة ،هي شر ما ابتليت به مصر !!
إنها العقبة الكئود ، والأغلال الثقيلة ، التي تعرقل سير الأمة وتثقل كاهلها .

دفعت الباب .. واقتحمت الحجرة وأنا أحس بجرأة لم أتعودها قط من نفسى عندما أتجاوز باب الرئيس .. ووجدت الرجل جالسًا على مكتبه .. وقد بدت عليه بوادر الشر ، وكأنه يتحفز للانقضاض .

ولم أشك عندئذ أن الرجل فى أسوأ حالاته النفسية .. التى لا تنتج إلا أثر معركة حامية ـــ على الريق ـــ بينه وبين حرمه المصون .. وكان يجب علىّ والأمر كذلك .. أن أبدأ بالترفيه عنه ، والتسرية عن نفسه .. وفرفشته ونعنشته بشتى أحاديث النفاق والرياء والمداهنة .. ولكنى شعرت أنى لم أعد أجيد هذه الطرق ، وأن نفسى قد بدأت تعافها .. وأن الشجاعة الكامنة فى جوفى تأبى أن تنزل بى إلى هذا الدرك .

ونظرت إلى الرجل وأشرت له بالسلام وسألته :

ـــ هل طلبتنى ؟

ونظر إلىّ الرجل مكشرًا عن أنيابه وسألنى فى غضب :

ـــ أين كنت ؟

ولم يكن لدىّ أى شك فى أنه على استعداد لقبول أى عذر أعلل به تأخيرى ، وأنه فى أشد الحاجة إلى أن يسرى عن نفسه بالفضفضة والشكوى ، ولكنى أجبته فى غير اكتراث :

ــ لقد تأخرت بعض الشىء .

وهز رأسه متسائلا :

ــ ولِمَ تأخرت ؟

ــ لأنى تأخرت فى الاستيقاظ .

وبدأ صبره ينفد ، وحملق فىّ بعينيه وقال مزمجرًا :

ــ ولِمَ تأخرت فى الاستيقاظ ؟

ــ لأنى قد تأخرت فى النوم .

ــ ولِمَ تأخرت فى النوم ؟

فأجبته ببرود :

ــ هذا ليس من شأنك .

ذهل الرجل فما كان يتوقع منى هذه الجرأة فى الرد .. وأخذ يرمقنى شزرًا وتوقعت أن ينفجر ، فبدأت أتحفز للرد عليه وأصررت على أن أكيل له الصاع صاعين .. ولكنى ــ لشدة دهشتى ــ رأيته قد كظم غيظه وأشار إلىّ بالاقتراب والجلوس .

وجلست أمامه متأففًا .. فقد أدركت أنه ينوى أن يملى علىّ الأسطوانة إياها .. أسطوانة الشكوى والفضفضة .. ويقص علىّ ما تفعله به امرأته .. ويستشيرنى عما يفعله بها ، وأن علىّ بعد ذلك أن أملى عليه الأسطوانة المقابلة .. التى أشير عليه فيها أول ما أشير بطلاق امرأته ، ثم آخذ بعد ذلك فى امتداحه والثناء عليه .

وبدأ الرجل حديثه ، وهو ينفخ ويزفر قائلا :

ــ إن الحياة مع هذه المرأة لم تعد تطاق .. ذهبت بالأمس إلى مقهى النيوبار

وجلست ألعب عشرة مع « عبد الحميد بك » ، وفى الساعة الثامنة طلبت واحد زبيب ، ثم تركت المقهى إلى ..

وبدأت أنا أتململ .. فقد كنت أعرف كل ما سينوى قوله ، و لم أكن أحس فى نفسى كثير صبر على احتمال سماعه ، وساءلت نفسى كيف استطعت أن أحتمله كل تلك المرات السابقة .. و لم أجد بدا من مقاطعة الرجل متممًا حديثه قائلا فى سخرية :

— تركت المقهى إلى كازينو الشرق ، وقضيت وقتًا بريئًا مع كيكى الراقصة ، ثم ذهبت إلى البيت تترنح من السكر .. فقابلتك زوجتك بخناقة .. لرب السما .. هل عندك أكثر من هذا ؟ ما ذنبى أنا ؟ تثقل علىّ كل يوم بما فعلت وفعلت زوجتك .. لعنة الله عليك وعليها ، ثم كيف تبيح لنفسك وأنت فى هذه السن وهذا المركز التلكؤ على المقاهى والتسكع على البارات مع الراقصات ، ثم تذهب إلى البيت سكران طينة ، وتشكو مع ذلك مما تفعله بك زوجتك .

ثم رفعت بصرى وحملقت فى وجه مليًا وأردفت قائلا :

— لقد فضفضت أنت عن نفسك كثيرًا فيما مضى .. هل تسمح لى بلحظات أفضفض أنا فيها عن نفسى ، وأزيح بها العلة التى وضعتها على قلبى .

أولا .. هل تستطيع أن تذكر لى ما فائدة ذلك — الهباب — الذى تضعه على رأسك .. هذه الصبغة التى تلوّث بها شعرك .. هل خدعت بها أحدًا سوى نفسك ؟.. هل تعتقد أن هناك حمارًا — سواك — يتوهم أن هذا لون شعرك الحقيقى ؟! هل تظن الناس قد أصابهم العمى وقلة التمييز .. بحيث يكفى هذا السواد الذى تضعه على رأسك ، لإقناعهم أنك ما زلت فى شرخ الشباب ؟ هل يعقل أن يكون رجل مثلك .. فى وجهه مثل ما فى وجهك من تجاعيد له مثل هذا الشعر الحالك السواد ؟!

ثم هب أنك معجزة عصرك ، وأن الله قد أنعم عليك بحلكة فى الشعر أبدية ، بم تفسر للناس هذا السواد الذى يبدو فى أرضية رأسك ؟ ماذا تخشى من بياض

الشعر ، وماذا تبغى من تسويده . مزيدًا من جمال ؟ وإيهامًا بفتوة ؟

إن لكل سن مميزاتها ، ومميزات الشباب جماله وقوته ، ومميزات الكهولة وقارها وهيبتها ، وأنت بصبغة شعرك قد قلبت سنن الطبيعة ومسخت نفسك فأضعت وقارك وهيبتك دون أن تكسب جمالا ولا فتوة .

إنى ما رأيت أتفه منك مخلوقًا ، تضيع ثلاثة أرباع يومك فى أحاديث تافهة ، ومصالح الناس معطلة .. لا هم لك إلا الشكوى من امرأتك ومن حالتك : فلان باشا كان زميلك ، وفلان بيه أضحى وكيل وزارة ، وأنت ما زلت رئيس قلم .. احمد الله لأنك أصبحت رئيس قلم ، تور الله فى برسيمه ، ماذا كنت تريد أن تكون أكثر من ذلك ؟

ورأيت الرجل قد اصفر وجهه وفغر فاه من فرط الدهش ، وأصبح من فرط الذهول لا يكاد ينطق ببنت شفة ، وكأنه على حد قولهم « قد نزل عليه سهم الله » فنهضت ببساطة وغادرت الحجرة فى سكون كأننى لم أفعل شيئًا .

جلست إلى مكتبى ونظر إلىّ جارى ليسألنى عن حالة البيه .. فأجبته مبتسما : أحسن .

وبدأت أقلب فى الدوسيهات المحتشدة على مكتبى ، دوسيهات مكتظة بالأوراق .. مليئة بالتعقيد والحشو واللغو .. وكلها مصالح معطلة .. تتسكع فى دروب الروتين الحكومى وحواريه .. تظل تلف وتدور حتى ينهكها التعب فترقد فى ملفاتها .

ونظرت إلى ركن الغرفة ، فوجدت أكوامًا من الملفات قد خيمت عليها العناكب وعلتها الأتربة .. كلها مصالح أناس قد أنهكها الروتين الحكومى فرقدت فى غيبوبة .

ولأول مرة أحسست بمرارة ، وتملكنى هم وأسى ..

وهذا والله هو الداء المستعصى والعلة المستحكمة. هذا هو السرطان الذى لا أمل للأمة فى الشفاء منه .

هذا البطء المميت فى الأعمال الحكومية ، وفى قضاء مصالح الشعب الذى يتناول الموظفون أجرهم من قوته .

إن أكثر ما يحز فى النفس هو أن العلة لا علاج لها ولا أمل فى البرء منها ، لقد قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به   إلا الحماقة أعيت من يداويها

ولكنى أعتقد أن الشاعر لو عاش فى زمننا هذا لا ستبدل بالحماقة الحكومة وقال :

« إلا الحكومة أعيت من يداويها ».

إن الآلة الحكومية ، تسير كالسلحفاة تتسكع وتتهادى وتغفو وترقد .

آلة خربة عتيقة ، محطمة مهشمة ، مركبة على قاعدة من السخافات والتعقيدات ، يديرها أناس كأنهم تنابلة السلطان ليس لهم فى العمل رغبة ولا دافع ، كأنهم فى سخرة .. ليس هناك منهم من يحس بحقيقة واجبه .

هذا هو أحد الملفات الراقدة أمامى ، لننظر ما به .

إنه ملف « السيدة زهرة عبد الحميد » زوجة المرحوم « إبراهيم أفندى عبد الواحد » الموظف بوزارة الأوقاف .

هذه المرأة تطلب تنازل الحكومة عن نصيبها فى معاش زوجها الراحل لأن كل ما سيبقى لها من المعاش هو أربعة جنيهات ، و لم يترك لها الرجل أى ريع تعيش منه سوى معاشه .

الملف منتفخ ، حاشد بالأوراق ، مكتظ بالتأشيرات والإمضاءات ، وكيف لا ينتفخ وقد مضى على طلب المرأة سنتان ، والدوسيه يتهادى بين أروقة الوزارة ويغفو فى الأدراج ويرقد على المكاتب ، وفتحت الملف وقرأت آخر — تأشيرة — أنعم عليه بها فكانت كما يلى « يرفض الطلب لأن ميزانية الدولة لا تتحمل كل هذه الأعباء » ..

برافو ، هذا والله منتهى الإخلاص لميزانية الدولة ، ترى ماذا كانت تفعل ميزانية الدولة لو لم يتح لها الله مثل هذا الحارس الأمين الذى يخشى أن يرهقها بالجنيهين اللذين كانا على وشك أن ينتزعا منها ويتركاها خربة خاوية ؟! هذا الحارس الأمين الذى رفض أن يسمح بالجنيهين لأرملة « إبراهيم أفندى » ، لكى تستعين بهما على الحياة — بفرض أنها ما زالت على قيد الحياة —

ترى أين ذهبت هذه الأمانة وهذه الشفقة بميزانية الدولة عندما وافق منذ بضعة أيام على صرف ألفين من الجنيهات لأرملة المرحوم فلان باشا !!!

أغلب الظن أن ميزانية الدولة لا توجعها إلا الجنيهات القلائل ولا ترهقها إلا المبالغ التافهة ، أما هذه الآلاف التى تتدفق فهى أحمال خفيفة لا تثقل كاهلها ، ولا تنقض ظهرها .

ولقد تركت أنا الملف يأخذ غفوته النهائية على مكتبى ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟

أجل .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل ، قبل أن أتناول جرعة الشجاعة ؟ لا شىء ، ليذهب الملف وصاحبته إلى حيث ألقت .

أما الآن ، وقد أضحيت رجلا شجاعًا ، فقد أحسست أن الأمر يختلف تمام الاختلاف ، وأنه يجب علىّ أن أفعل شيئًا .

و لم يطل التفكير حتى فتحت الملف وبدأت أكتب مذكرة جديدة بالموضوع لرفعها إلى صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر .

وانتهيت من كتابة المذكرة وأعدت قراءتها لنفسى راضيًا مسرورًا ، وكان بها ما يلى :

مذكرة

« مرفوعة إلى حضرة صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر فى موضوع تنازل الحكومة عن نصيبها الذى تستحقه من معاش أرملة المرحوم إبراهيم أفندى عبد الواحد» .

« رفضتم سعادتكم طلب الأرملة المذكورة لأنكم لا ترغبون فى إرهاق ميزانية الدولة ولا نشك أن التأشيرة قد حدثت خطأً ، أو هى نوع من السهو أو زلة القلم لأن المعروف عن سعادتكم ، أنكم من غواة إرهاق الميزانية ، وأنكم تتحينون الفرصة — للبعزقة — فى أموال الدولة ، وليس أدل على قولنا هذا مما يأتى :

١ — سعادتكم ، أول عبء يرهق ميزانية الدولة ، فأنتم ولا شك تعرفون مدى جهلكم بالشئون المالية ، وتعرفون أدوار الاستثناءات التى مررتم بها ، وتعرفون أنكم لم توضعوا فى مركزكم إلا لعلاقتكم بمن تعرفون .

والتى لولاها لكنتم ما زلتم تغطون فى الدرجة السادسة كغيركم من عباد الله الموظفين .

٢ — سعادتكم تجيدون — البقششة — من أموال الدولة ، والإغداق على الأقارب والمحاسيب .

٣ — سعادتكم تحبون جدًا صنع المعروف فى بعض الجهات ولبعض الناس بشرط أن يكون هذا المعروف من ميزانية الدولة ، وبشرط أن يكون مرهقًا لها .

وعلى ذلك فقد أدهشتنا جدًا تأشيرة سعادتكم التى تقولون إنكم لا تحبون أن ترهقوا الميزانية ، ولهذا أعدناه إلى سعادتكم للتكرم بإعادة النظر عسى أن يكون ما زال لديكم بقية حياء ».

ثم وضعت الملف جانبًا ، عازمًا أن أرفعه بنفسى إلى سعادة الوكيل المذكور .. وأمسكت بملف آخر ، لم يكن أقل من الآخر انتفاخًا ، وبدأت أقلب فيه . فلم أتمالك نفسى من الضحك .

هذا الملف قد وصل هو الآخر إلى حالة اليأس ، وأضحت وقفته فى مكتبى وقفة شترية .

ماذا به ؟. مسألة هينة جدًا ، فى غاية التفاهة ، ومع ذلك فالقواعد الحكومية ؛ لا يمكن أن تتجاوز عنها .

الملف لأرملة أخرى ، لكنها لا تطالب باستثناء ولا تنازل ، بل تطلب حقًا لها يجب أن تأخذه .. إنها تطلب المكافأة القانونية التى يجب أن تصرفها الحكومة بمجرد وفاة زوجها ، حتى تتمكن بواسطتها من العيش ، هى — ولا شك — فقيرة وفى أشد الحاجة لهذا المبلغ من المال . ومع ذلك فقد مضت سنة ونصف على وفاة زوجها دون أن تقبض شيئًا .

لماذا ؟ الأمر بسيط جدًا ، وسخيف جدًا .

لأن الأوراق التى كان ينقصها بعض الاستيفاء ، تمت كلها ما عدا أمرًا واحدًا ، وهو اسم المأذون الذى عقد قران الأرملة المذكورة على زوجها المرحوم منذ ثلاثين عامًا على الأقل .

أى والله هذا هو السبب !!

ولقد استمر الملف راقدًا .. سنة ونصفًا ، وسيرقد إلى ما شاء الله حتى يعرف اسم المأذون ؟!

يا للسخف ! إنى والله مخلوق سخيف جبان .. أو هكذا كنت ؟

وفتحت الملف وأمسكت القلم وكتبت فى إحدى الأوراق ، اسم المأذون أحمد إبراهيم على .

أى اسم !! ماذا يضرنى لو كتبته من زمن مضى وأنهيت المسألة ، وساعدت المرأة المسكينة على صرف النقود .. من الذى سيناقشنى فى اسم المأذون ؟

وهكذا شمرت عن ساعد الجد وعزمت أن أكون شجاعًا فى عملى ، وعلىّ أن أنهى كل هذه المسائل المعطلة وأدفع بمصالح الناس الراقدة على المكاتب وفى الأروقة .

وأخذت أعمل بجد ونشاط حتى خطر لى فجأة خاطر أوقفنى عن العمل .

ما قيمة أن أنجز هذه المصالح ثم تتعطل بعد ذلك عند الرؤساء ، وحتى لو جاوزت هؤلاء الرؤساء فلا شك أنها ستأخذ نومة طويلة فى مكتب الوزير .

أجل .. إن معظم هذه المسائل ستعرض على الوزير ، ومن يدرى ربما حوّلت

على مجلس الوزراء ؟

وشرد ذهنى بين الوزير وبين مجلس الوزراء أو ما يسمونه الهيئة الحاكمة .

هذه فى مصر هى اللعبة الكبرى ، واللاعبون فيها هم الساسة .. أما الجمهور المتفرّج فهو الشعب التعس .

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات وأحزاب سياسية ، هى شر ما ابتليت به مصر !!

إنها العقبة الكئود ، والأغلال الثقيلة ، التى تعرقل سير الأمة وتثقل كاهلها .

ما هى السياسة فى مصر ، وما هى الأحزاب ؟ هل جنت مصر منها شيئًا أم جنت هى على مصر ؟.

السياسة فى مصر .. هى الحرفة التى توصل إلى الحكم ، والأحزاب هى فرق تتبارى وتتسابق فى الوصول إلى الحكم ، والحكم مفروض فيه أن يكون الوسيلة لقيادة البلد والنهوض به والعمل على رخاء الشعب ، ولكن الحكم فى هذا البلد ليس وسيلة لشىء ، اللهم إلا رخاء هذه الفرق السياسية المسماة الأحزاب ، أما رخاء الشعب وقيادته وإصلاحه والنهوض به فتلك أشياء ، قد لا تأتى فى أذهان الحاكمين إلا عرضًا ، أو لا تأتى أبدًا .

هذا البلد لا يحتاج إلى شىء كحاجته إلى الاستقرار .. استقرار وهدوء توضع فيه المشروعات التى تؤدى إلى رخاء الشعب .. ثم تنفذ فى صمت وسكون وفى عقل وحكمة .. بلا تهريج ولا ضوضاء ولا شغب .. ولا دعاية ولا حفلات ولا زينات .. بل تحدد الأهداف التى سنصل إليها ، والطريق الذى سيوصلنا ، والزمن الذى يستغرقه الوصول . ثم نسير فى طريقنا قدمًا .. بلا تلكؤ ، ولا هزل، ولا عبث .

ولكن كيف يمكن الوصول إلى ذلك الاستقرار ، وفى بلادنا فرق تتبارى فى لعبة الحكم الكبرى ، واللعبة تحتاج إلى تصفيق وصفير .. وتنطيط وشقلبة ؟! كيف يمكن الاستقرار .. وهذا الفريق ينقض ما أبرم ذاك .. ويحل ما ربط ،

ويربط ما حل .. ويؤخر ما قدم ويقدم ما أخر !! وهكذا نجد أنفسنا دائمًا بفضل مجهود الأحزاب السياسية التي تتوالى على الحكم كأننا « يا بدر لا رحنا ولا جينا». كيف يمكن الإفادة من المشروعات .. إذا كان غرضها الأساسى .. هو الدعاية والمحافظة على كراسى الحكم ، والحصول على هتاف الشعب لا على فائدته ؟

كيف يمكن الوصول إلى الاستقرار إذا كانت اللعبة الكبرى قد تحكمت فينا ، وسيطرت على عقولنا ؟!

تبدأ اللعبة الكبرى .. بتلك المهزلة المسماة بالانتخابات .. والتى لم تحدث قط فى أى عهد من العهود .. منذ بدأنا حياتنا النيابية .. أن سلمت من أن ترمى بالتزوير والغش .

ومهزلة الانتخابات عندنا شيء ظريف يبعث التسلية فى نفوس الجماهير ، والفرق خلالها تنشر أفرادها بين الجماهير ، ويعلقون اليفط كأنهم أصحاب سيرك .. ثم يخطبون فى الجماهير .. قائلين كلامًا « يموّت من الضحك » يتلخص فى أنهم .. أى أفراد الأتيام (سيجعلون السماء تمطر ذهبًا وفضة).

وهكذا يروح الشعب كأنه فى مولد .. وهو شعب « هليلى » يحب التفاريح ، ثم يحين وقت الانتخابات فيجريها رجال الإدارة بمعرفتهم .. بصرف النظر عن رغبة الجماهير .

وتظهر نتيجة الانتخابات فإذا تيم من الأتيام قد نال كل الأصوات والباق لم ينل شيئًا .

وتتم بعد ذلك بقية اللعبة .. فيبدأ مجلس النواب .. فى الظهور واللعب ، ويتكوّن معظمه من أفراد تيم واحد بينهم بضعة أفراد من الأتيام الأخرى . إما أن يشتموا ويقاطعوا من أغلبية المجلس وإما أن ينسحبوا .

وعمل مجلس النواب الأساسى هو التصفيق بحماسة لكبار أفراد التيم ، أو كما يسمون التيم الأول ، وهم الوزراء وعلى رأسهم صاحب الدولة كابتن التيم .

مجلس النواب ليس عليه سوى التصفيق بشدة . والموافقة على طول الخط .. والإعجاب والتقدير لأى عمل ، وكذلك الإعجاب والتقدير للعمل الذى يناقض هذا العمل بدون أى خجل ولا استحياء .. ما دام الكابتن يريد ذلك .. وماذا يضيرهم من الإعجاب والتقدير ؟ ما دام فى هذا الإعجاب والتقدير ضمان لبقائهم ، وبقاء تيمهم .

فإذا ما تركنا « السكندتيم » فى تصفيقه وتهليله وانتقاله إلى جدول الأعمال ، ثم التفتنا إلى « الفرست تيم » ، وقد انهمك فى اللعب .. لعب الحكم .. راعنا ما رأينا .

التيم حائر قلق .. يخشى على نفسه من الأتيام الأخرى التى أخذت تضع له العقبات و « الخوازيق » وتهتف بسقوطه ، وأفراده منهمكون فى قضاء مصالحهم والعمل على رخاء أنفسهم والأقربين إليهم ، ثم يفزعون فجأة على صوت ضجيج الشعب الساخط فيتظاهرون بالعمل لمصلحته محدثين فى مظاهرتهم أكبر ضجة وأكبر دعاية ، محاولين استرضاءه بوسائلهم الجوفاء .. ومشاريعهم الشبيهة بالطبل .

والشعب بين الأتيام ضائع حائر .. منصرف بكليته إلى مشاهدة اللعبة .. متلهف على التغيير والانقلاب .. يجب أن يسقط هذا ، ويرتفع ذاك .. ثم يسقط ذاك ويرتفع هذا .. لمجرد التسلية .. والمشاهدة .. يشاهد أحد الأتيام فى اللعب .. فيسخط عليه ويكرهه ويطلب إخراجه من الميدان . فإذا ما بدأ التيم الآخر فى اللعب .. عاد إلى سخطه وطلب الأول .. ونسى كل ما كان من أمره ، هو شعب طيب ، سهل الخداع ، سريع النسيان ، حائر بين هذا وذاك .. لأن هذا شهاب الدين .. وذاك أخوه .

كيف يمكن الاستقرار إذًا .. وهذه اللعبة تسيطر على العقول وتشغل الأذهان ؟.. كيف يمكن الاستقرار ، ومحترفو السياسة مغلغلون فى البلد مسيطرون على دفة أمورها ؟

وأخذت أجهد الفكر فى طريقة تخلص البلد من ساستها ، ومن أتيامها ، ومن لعبتها الكبرى .. من حكم وانتخابات ونواب .. إلخ .

وخطر لى فجأة خاطر عجيب .. وفكرة مدهشة .

لِمَ لا نحاول أن نفصل لعبة الحكم عن الحكم فعلا ؟

إن السياسيين والأتيام والجماهير لا غنى لها أبدًا عن لعبة الحكم.لا بد من أحزاب وقيام وزارات وسقوط وزارات وكل ما ينتج عن ذلك من ضجيج وتهريج وإشاعات ودعايات .. هذا كله لا يمكن أن يستغنى عنه البلد .. فتلك أشياء مسلية جدًا وحرام أن نحرم الشعب مشاهدتها .

ولكن ما الداعى لأن نربط بينها وبين مصلحة البلد ؟

لِمَ لا نجعل التسلية شيئًا والمصلحة شيئًا آخر ؟ لِمَ نحاول أن نربط بينهما .. فتضيع مصلحة البلد ؟

أجل .. والله إنها لفكرة هائلة .

نبقى الأحزاب كما هى .. والبرلمان كما هو .. وكل شىء كما هو ، ولكننا نجعل عملهم مجرد لعب ولهو وتسلية . فلتجر الانتخابات ولتؤلف الوزارات ولتعقد البرلمانات .. ولتستمر لعبة الحكم كما هى .. على ألا تكون أية صلة بينها وبين الحكم فعلا .

دعوا هؤلاء فى لعبهم ولهوهم وتهريجهم وخطبهم .. دعوهم يتسابقون إلى الحكم .. دعوهم يتشاتمون ويتخاصمون ، ويتبادلون التهم والسباب . دعوهم يفعلون كل شىء .. إلا شيئًا واحدًا ، وهو الحكم .

يجب أن نضع فى الحكم فعلا رجالا لم تلوثهم الأتيام ، ولم تلقنهم أصول التهريج ، ونفرض عليهم تنفيذ مشروعات معينة ، فى مدة معينة .. على أن يقوموا فى كل عام بتنفيذ الجزء الذى يجب تنفيذه خلال هذا العام .. ويقودوا نهضة البلاد فى جميع الشئون : اقتصادية وزراعية وصناعية وعسكرية .. يعملون فى صمت وسكون ، ويدعون الصياح والضجيج للأتيام المنهمكة فى لعبة

الحكم .

واستحكمت فى رأسى الفكرة وملأنى منها إعجاب شديد ، ووجدت فيها الحل الأكبر لصلاح هذا البلد فهى تضمن مصلحة الشعب دون أن تضر بمصلحة محترفى الحكم والسياسة .. وسرعان ما أخرجت من أحد الأدراج ورقة بيضاء .. وبدأت أسطر فيها ملخص الفكرة .. عازما أن أعرضها على أولى الأمر .

ومضت برهة ، وأنا أكتب وأشطب حتى انتهى بى الأمر إلى أن أصوغ المشروع فى صيغة مرضية .. وتلوته بضع مرات ، ثم أخذت فى تبييضه ، وانتهى بى الأمر إلى أن أصر على عرضه على الوزير مباشرة !

وماذا فى ذلك ؟.. إنه لا شك سيقدر الظروف التى دعتنى إلى التفكير فى هذا المشروع .. « مشروع فصل الحكم عن لعبة الحكم » ، وهو لا شك سيقدر أن حاجة البلد تستدعى إخراج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ ، ثم إنه لن يضيره منه شىء .. فهو سيبقى وزيرًا كما هو ، وسيبقى له الجاه والمظهر ، والعربة والسعاة ، وسيذهب إلى مجلس النواب ويتحدث بما تعوّد أن يتحدث به من سقط الكلام ، وسيبقى كما هو صاحب معالى . فماذا يريد أكثر من ذلك ؟

وهكذا اختمرت الفكرة فى رأسى ، وسرعان ما نهضت من مكتبى حاملا ورقة المشروع متجهًا إلى مكتب الوزير .

وكان مكتب الوزير هذا يعتبر عندى من المناطق المحرّمة التى لا أجسر قط على الاقتراب منها . فقد كنت أحس للوزير بهيبة وخشية .. لشد ما وجدتها تتطاير من نفسى ، وأنا أتجه إليه حاملا فى يدى المشروع الخطير .

ودفعت باب المكتب ببساطة ودلفت إلى الداخل وتقدمت إلى صاحب المعالى ووضعت أمامه الورقة فى سكون ثم أدرت له ظهرى وغادرت المكتب عائدًا إلى مكتبى كأنى لم أفعل شيئًا .

وجلست على المكتب وانهمكت فى إنهاء بقية الملفات المتأخرة ، ولكن لم تمض لحظة حتى وجدت البيه « الرئيس » مندفعًا من حجرته كأنه الزوبعة وهجم

علىّ يهزنى من كتفى صارخًا :

ـــ أيها المجنون .. أأنت الذى كتبت هذا ؟

ودفعته جانبًامظهرافرط اشمئزازى من غضبه وثورته ووقع بصرى على الورقة التى كتبت فيها المشروع إياه ، والتى تركتها منذ لحظات على مكتب معالى الوزير ولمحت عليها تأشيرة بإمضاء الوزير جاء فيها ما يأتى :

« يكشف على قواه العقلية » .

وعاد الرجل الثائر يصيح بى :

أنت الذى كتبت هذا ؟

وأجبته ببرود :

ـــ أجل .. أنا الذى كتبته .. ماذا به ؟.. كفر ؟!

ـــ لا شك أنك جننت .

واندفع الرجل عائدًا إلى حجرته ، آمرًا إياى بالانتظار حتى يتخذ معى الإجراء اللازم ، ولكنى لم أر من الصواب أن أنتظر حتى أرى هذا اللازم الذى ينوى إجراءه معى وقلت : إن من الخير لى أن أغادر المكتب .. إذ لم يعد لى مقام بين هؤلاء المنافقين المداهنين .

و لم تمض برهة حتى كنت أنطلق فى الطريق عائدًا إلى البيت ، ولكنى لم أكد أسير بضع خطوات حتى التقيت بمظاهرة كبيرة حشد فيها جمع خفير من الطلبة يهتفون بضعة هتافات مختلطة .

ونظرت إلى الصبية وساءلت نفسى : ماذا يريد هؤلاء الحمقى !! وماذا يمكن أن يفيدوا أو تستفيد البلد من هذا العبث ؟. وهممت بأن أوجه القول إليهم ناصحًا .. عندما أبصرت بحجر قد ارتفع واستقر على أحد فوانيس النـور فحطمه ، ثم أبصرت بجمع من الرعاع قد اندفعوا إلى واجهة حانوت فحطموها وأخذوا ينهبون البضائع التى بها .

وأبصرت بصاحبه الكهل ، وقد تكأكئوا عليه وأخـذ هـو فى الصراخ

والاستنجاد ، فاندفعت لنجدته وأمسكت بواحد منهم فألقيت به على الأرض .

وهنا أحسست باللكمات والضربات تنهال على كالمطر ، وصدق على المثل « الكثرة تغلب الشجاعة » . فلقد تلقيت علقة .. لم أتناول مثلها فى حياتى .

وأخيرًا تمكنت من الهروب .. محطم الأعضاء .. لا تكاد تخلو بقعه فى جسدى من كدم أو خدش .

ووصلت إلى البيت ، وأنا ألهث من فرط الإعياء ، وقد ورمت إحدى عينى ، حتى أحسست أنى لا أكاد أبصر بها .

وتلقانى أخى عند الباب مرتاعًا وسألنى :

ــ ماذا أصابك ؟

ــ الحقنى .

وارتميت على الفراش ، وأنا أشير بأصبعى إلى فمى .

وعاد أخى يسألنى فى دهش وذهول :

ــ ماذا تريد . ماء ؟

فهززت رأسى ، فعاد يسأل :

ــ أسبرين ؟

فأشرت بالنفى ، واستمررت على الإشارة بيدى إلى فمى ، ولم يفهم أخى ماذا أريد .. فصاح بى وقد تملكه الذعر :

ــ تكلم .. ماذا بك ؟، ماذا تريد ؟

وأخيرًا استطعت أن أتكلم فقلت له لاهثًا :

ــ الحقنى بشوية ..

ــ شوية إيه ؟

ــ شوية جبن .

(٦)

فضيلة الجبن

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره ..
إن أفضل خلق الله أجبنهم .

نظر إلىّ أخى فاغرًا من الدهش فاه وهز رأسه متسائلا :

ـــ شوية جبن ؟

فأجبته بصوت خافت ضعيف :

ـــ أجل .. إنى لم أعد أحتمل هذه الشجاعة التى ستؤدى بى إلى التهلكة .. لشد ما صدق الرجل قال إنها بضاعة خاسرة .. يوم واحد منها قد فعل بى ما فعل .. فما بالك بالتسعة الباقية ؟.. لا .. لا .. هذا كثير .. كثير جدًا .. إنى لا أتصور ماذا يمكن أن يحدث لى فى بقية المدة لو انطلقت بين الناس على هذه الحال ؟

وصمت برهة ثم أردفت متوسلا :

ـــ أرجوك .. أدركنى بجرعة جبن .. اذهب إليه وصف له حالى .. استعطفه واسترحمه وقل له إنى راقد على الفراش أشلاء محطمة وأعضاء مهشمة . قل له إنى على وشك أن أفصل من عملى .. وأن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على قواى العقلية .. قل له ارحم المسكين التعس الذى دفعت به إلى بئس المصير بفضل جرعة الشجاعة .. لا كنت ولا كانت الشجاعة .. قل له أن يبحث فى قاع الأدراج وفى الشوالات الفارغة عله يجد بقايا جبن تذهب عنى الشجاعة

وتنقذنى من شرورها .. استعمل معه كل ما استطعت من وسائل الوعيد والتهديد .. قل له إنه سيكون مسئولا عن كل ما يحدث لى خلال الأيام التسعة الباقية وأنى سأكون ضحيته .. وأنى سأبلغ النيابة .. افعل معه كل ما يمكنك . اضربه .. أو توسل إليه .. ولكن ائتنى منه بجرعة جبن تذهب عنى شجاعتى وتعيدنى إلى ما كنت عليه .

ومضت فترة سكون .. لم ينبس أخى خلالها بنت شفة فقد ارتج عليه من فرط الدهش وأخذ ينظر إلى نظرته إلى أبله ذى جنة .. وبدا لى أنه لم يستقر فى ذهنه غير قولى : إن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على قواى العقلية وأنه لم يعد يشك فى أن بعقلى لوثة ، وأن كل ما قلته عن جرعة الشجاعة والجبن ليس إلا هذيان مخبول .. وأن ما بى من كدمات وضربات ناتج عن اشتباكى مع الناس وأنا فى حالة هياج .

وهكذا أقنع أخى نفسه بأنه أمام مجنون خطر ..

ووجدته يبتسم لى ابتسامة زائفة ستر بها ما اعتمل فى نفسه من الفزع والخوف علىّ ، وأخذ يربت علىّ برفق ويقول لى مهدئًا :

— نم .. نم .. استرح ، هدئ من روعك .. سأحضر لك ما تريد من شوالات الجبن ، فأنا معك أن هذه الشجاعة شىء خطر .. وأنها لا بد مؤدية بك إلى التهلكة .. اطمئن .. سأحضر لك الجبن بأية وسيلة .. فقط اهدأ .. واسترح .

ولم يكن فى قول أخى شىء يبعث على الغضب ، فقد كان هو الرد الطبيعى على ما سألته إياه .

لقد طلبت منه أن يحضر لى شيئًا من الجبن .. فأنبأنى أنه سيحضره ووافقنى على أن الشجاعة شىء خطر ، ومع ذلك استفزنى قوله ، أو على الأصح استفزتنى اللهجة التى أسر بها إلى قوله ، لهجة اللين المفرط والرقة المتناهية ، لهجة جعلتنى لا أشك فى أنه يعاملنى كمجنون وأنه — على حد قولهم — (واخدنى على قد عقلى) .. وليس أدل على ذلك من أنه لم يحاول أن يتفاهم معى فيسألنى من أين

سيأتى بالجبن ؟..

ولا حاول أن يستفسر عن كيفية حصولى على جرعة الشجاعة كأن المسألة طبيعية جدًا .. وكأن حوانيت الأخلاق تملأ الميادين والطرقات .. أو كأن الشجاعة يسرح بها الباعة على العربات .

ونظرت إليه فى ضيق وحنق وسألته متهكمًا :

ـــ هل تعرف من أين ستأتى بالجبن ؟

ـــ أجل .. أجل .. أعرف تماما .. لا تتعب نفسك كثيرًا .. إنها مسألة هينة .

وزاد بى الحنق من هذا الأبله الذى يصر على معاملتى كمجنون واستمررت على تهكمى منه قائلا له :

ـــ أنا أعرف أنها مسألة هينة ، ولكننى أريد فقط أن أتأكد من معرفتك لحانوت الرجل .

ـــ يا أخى لا تتعب نفسك كثيرًا .. إن الجبن ملء الطرقات والأسواق وسأعرف كيف أحصل لك عليه .. وأخلصك من هذه الشجاعة التى ستودى بك ..؟

وهنا غلى مرجلى و لم أعد أحتمل فصحت به غاضبًا :

ـــ أيها الغبى السخيف . أية أسواق هذه المليئة بالجبن ؟ هل تظننى مجنونًا أخرف بما لا أعى ؟ كف عن هذه الموافقة الحمقاء على كل ما أقول .. واعلم أننى فى كامل عقلى ، وأنى فى حال طبيعية جدًا .. لم يطرأ علىّ أى تغيير .. عدا ما أحدثته فى نفسى جرعة الشجاعة .. فأنا والأمر كذلك لست بمجنون .. قد تكون نتيجة الحالتين واحدة .. وقد تتساوى الشجاعة فى هذا الزمن مع الجنون ، ولكننى أؤكد لك أنى أبعد ما أكون عن الجنون

وكان أخى يهز رأسه موافقًا على كل ما أقول دون أن يحاول أن ينبس ببنت شفة خشية أن أعود إلى حالة الهياج ـــ كما كان يتصور ـــ وأكملت حديثى قائلا :

ـــ وهكذا ترى أن علاجى كائن فى جرعة جبن .. لست أدرى إذا كنت ستجد منه عند التاجر شيئًا أم لا .. فقد أنبأنى أنه ليس لديه من هذا النوع من الأخلاق الرديئة ذرة واحدة .. ولكن من يدرى .. ربما كان لديه بعض منه وسط ـــ الكناسة ـــ القديمة . أو ربما كان لديه شوال منسى أخفى تحت بقية الشوالات ، على أية حال اذهب إليه .. وقل له : إن أخى ـــ فلان الفلانى ـــ الذى أخذ منك بالأمس شجاعة عشرة أيام ، قد جعلته فى يوم واحد راقدًا بلا حراك .. وارم العين .. مشجوج الرأس ، تعارك ـــ فى أربع وعشرين ساعة ـــ مع حماته ، ومع سائق الأتوبيس ، ومع باشجاويش القسم ، ومع رجل يضرب امرأته . ثم قبض عليه بتهمة الصهيونية . واعتدى على رئيسه بالإهانة والسب . وتقدم إلى الوزير بمشروع كانت نتيجته أن طلب الكشف على قواه العقلية .. ثم تعارك مع بعض الرعاع فأكل منهم ـــ علقة ـــ لم يذق مثلها فى حياته .. كل هذا فى أربع وعشرين ساعة ، وهو راقد الآن فى انتظار نجدة من الجبن ـــ يا تلحقه يا متلحقوش ـــ إن حانوت الرجل كائن فى آخر الطريق على يدك اليمنى .. بالقرب من شجرة الجميز الكبيرة . وهو رجل طيب جدًا .. ولا شك أنه سيرق لى .. وسيرسل إلىّ النجدة .

أما إذا لم تجد عنده للجبن أثرًا .. فستكون ـــ واقعة سودة ـــ وسأضطر أن أحبس نفسى فى الحجرة حتى تنقضى العشرة أيام .. دون أن أتصل بأحد .

كل ذلك وأخى يهز رأسه موافقًا ، على طول الخط .. وأخيرًا قال فى لهجة مؤكدة :

ـــ لا .. لا .. اطمئن ، إن شاء الله سأجد عنده مطلبنا ، إذ ليس من المعقول أن يكون قد نفد .. لابد أن يكون هناك ـــ على حد قولك ـــ شىء منه فى الكناسة .. أو فى قعور الأدراج أو الشوالات .. اطمئن واعتمد علىّ كل الاعتماد .

وأخذ أخى ينسحب من الحجرة بانتظام حتى وصل إلى الباب فخرج فى

سكون وأغلق الباب خلفه ، وبعد لحظة سمعت صوت الباب يغلق بالمفتاح .

يا للخائن .. المخادع .. لقد أغلق الباب علىّ إنه ما زال يعتقد أنى مجنون ، ولقد وافقنى على ما قلت وتظاهر بتصديقى حتى يهرب ويسجننى فى الغرفة .

ووجدت أن المسألة ستزداد حرجًا .. وستتطور تطورًا لن ينتهى بأية حال إلا إلى أسوأ الأمور ، وأننى سأتهم بالجنون وسيحاولون معاملتى كأننى مجنون ، ولا أظن هناك أبعث إلى جنون العاقل سوى أن يتهمه الناس بالجنون وأن يؤولوا كل أفعاله وأقواله إلى أنها صادرة من مجنون ، ولن يعدموا بعض ما يبرر لهم ظنونهم .. فلا أظن هناك فارقًا كبيرًا بين الإنسان فى حالة الجنون أو فى حالة العقل .. ولا أظن هناك حدودًا معروفة فاصلة بين الجنون وحالة العقل .. إذ ليس هناك مقاييس للعقل تجعلها مستوى للمقارنة .. فالمسألة .. كلها مسألة نسبية ، والعاقل فى قوم مجانين يتساوى مع المجنون فى قوم عقلاء ، ومن منتهى العقل منتهى الجنون .. فأعقل الناس أشدهم نبوغًا ، وأشدهم نبوغًا أكثرهم جنونًا .

وهكذا سأجد نفسى متهمًا بالجنون .. ويزيد الطين بلة هذه الشجاعة التى تملأ نفسى .. فلو كنت على حالتى الأولى من الجبن .. لاستطعت بسهولة أن أثبت لهم صحة عقلى ، بمختلف أنواع النفاق والرياء .. ولاستطعت أن أداريهم وأسايرهم وأتبع معهم اللين ، والسياسة ، والمكر ، والدهاء ، أما وأنا على ما فىّ من شجاعة وجرأة وصراحة ، فالله وحده يعلم ما سينتهى به أمرى معهم .

وأخذت أفكر فى حل ينقذنى مما أنا فيه ومما أوشك أن أقع فيه .

أين المخرج ؟ كيف النجاة ؟

هذا الأحمق الذى أغلق الباب علىّ ، و لم يعد لى فيه أى أمل لكى يذهب إلى الرجل ويحضر لى جرعة الجبن .. فهو يعتقد اعتقادًا جازمًا أننى مجنون ، وعلى ذلك لم يبق أمامى سوى الاعتماد على نفسى .. و « ما حك جلدك مثل ظفرك » .

أجل يجب أن أسرع بالفرار قبل أن يسرى فى الدار نبأ جنونى .. وقبل أن يطبق

علىّ القوم .. ويضيقوا علىّ الخناق،يجب علىّ أن أتحامل على نفسى وأسرع إلى الرجل .. وأريه ما قد وصلت إليه .. وأقنعه بأنى لم أعد أحتمل أيام الشجاعة الباقية ، وأتوسل إليه أن يعيدنى إلى ما كنت عليه من الجبن .

وكان من العبث أن أحاول الخروج من الباب .. فقد أحكم أخى غلقه ، وكانت أية محاولة أبذلها ستثير ضجة تنبه أهل الدار .. وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى النزول من النافذة .

النزول من النافذة ؟!.. أنا أفكر فى النزول من نافذة الحجرة الكائنة فى الدور الثانى ؟.

ولِمَ لا ؟.. هذا شىء كان يتعذر علىّ عمله فيما مضى . أما الآن .. وأنا الرجل الشجاع .. فلا أظنه بالمتعذر علىّ النزول من نافذة الدور التاسع .

وهكذا لم تكد تمضى برهة قصيرة على خروج أخى حتى كنت قد امتطيت النافذة .. كأنى « طرزان » وبدأت أهبط متسلقًا عمود الشرفة أسفل الحجرة متكئًا بيدى على كورنيش يحيط بالعمود ، ولم أكن أشك أن المسألة ستنتهى على خير حال ، وأنى سأصل إلى الأرض سليما .. حتى بدأ الكورنيش يتهاوى تحت يدى فإذا بيدى تفلت ، وإذا بى أقطع بقية الطريق إلى الأرض فى لمح البصر .

سقطت على الأرض ، وكانت السقطة — سليمة — بإذن الله ، ولم يحدث لى منها إلا التواء بسيط .. فى القدم ، سبب لى بعض العرج .. وخرجت من الدار متسللا وأنا — أزك — بقدمى .

ولم أكد أغادر الباب .. حتى وجدتها ؟!؟

من ؟ هى .. هى بعينها أو بعينيها وشفتيها ونهديها .. وساقيها ؟ هى جارتى .. أو جارة الوادى .. أو جارة السوء ، التى طالما أقضت مضجعى وألهبت عواطفى وأهاجت مشاعرى .

جارتى التى لا ترحم .. جارتى التى طالما هتفت بها : يا جارتى لو تعلمين بحالى .. جارتى التى أعلنتها علىّ حربًا شعواء .. ونصبت لى من عينيها مدفعى

برن .. سريعى الطلقات .. لا أكاد أقف فى النافذة حتى ينهال علىّ منها وابل من النظرات شديدة الفتك محكمة التصويب لا ترضى بغير القلب هدفها .. أما شفتاها فقد جعلت لى منهما قاذفات للهب .. شفتان حارتان ملتهبتان .. يحس لهيبهما من بعد .. ما نظرت إليهما إلا وأحسست بلسعة ، وكأنى بهما لو مستهما قطرة ماء — لطشطشت — وتبخرت أو مستهما شفاه أخرى — لبقبقت — واحترقت .

أما صدرها فقد ركبت به قنابلها الشديدة الانفجار .. قنبلتين قد رفعت عنهما طابة الأمان .. فهما عرضة للانفجار فى أى لحظة لا باللمس .. بل بمجرد النظر .

أما الساقان فقد كانتا من نوع ذرى لم يكشف عنه بعد ، ولا جرّب أثره ، ولكن مجرد التلويح به .. كان كافيًا للانهيار والتسليم .

لقد وجدتها أمامى .. جارتى المسلحة .. التى طال هجومها علىّ .. واشتد حصارها حولى وأنا صامد أمامها .. لم ينهد لى حصن .. ولا دكت لى قلاع .. أدافع وأقاوم وأصد الهجمة تلو الهجمة .. مستعينًا فى دفاعى بشىء واحد هو الذى أعاننى على المقاومة ، وهيأ لى الدفاع .. شىء واحد هو الذى صد عنى كل تلك الغارات والهجمات .

أى شىء .. ذلك الذى أعاننى وهيأ لى المقاومة ؟ الضمير ؟ أبدًا .. فالضمير شىء لا يستيقظ إلا بعد أن تقع الواقعة وتتم الهزيمة .. فيبدأ وخزه وتأنيبه الذى لا جدوى فيه ولا فائدة منه .

حب الفضيلة ؟ لا تكونوا سخفاء .. فتذكروا أشياء وهمية لا وجود لها فى عالم الحقيقة .. واذكروا قول الشاعر :

مررت على الفضيلة وهى تبكى
فقلت علام تنتحب الفتاة ؟

فقالت كيف لا أبكى وأهلى
جميعًا دون خلق الله ماتوا ؟

إذن أى شىء ذلك الذى أعاننى على المقاومة ؟ والدفاع ؟ حتى لا أسقط متداعيًا أمام جارتى المسلحة .

إنه الجبن !!

أى والله الجبن !!.. لا تدهشوا ، ولا تنكروا علىّ قولى .. فكلنا ذلك الرجل .

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره .. إن أفضل خلق الله أجبنهم .

كيف ؟.. الناس من حيث رغبتهم فى النساء نوعان .. نوع زاهد فاضل ، ونوع مستهتر متهتك .

والنوع الفاضل نوعان .. نوع فاضل حقًا ، ونوع مخادع يعرف كيف يستر آثامه فيبدو أمام الناس فاضلا .. وهذا النوع الأخير يستوى مع المستهتر المتهتك .. بقى أمامنا النوع الزاهد الفاضل حقًا .. ما هى علة زهده وفضيلته ؟. أمر واحد .. هو جبنه وخوفه من أن يفتضح أمره .. أترى لو أتيحت لأحد من هؤلاء الزاهدين الأفاضل فرصة أن يمتع نفسه بإحدى حوريات الجنان وسهلت له المسألة بحيث لا يفضح أمره ولا يعود عليه منها أى ضرر أو عاقبة .. هل تراه يقاوم أو يتورع !؟

لقد كانت جارتى العزيزة التى يجرى فى عروقها ماء الشياطين تهاجمنى بلا رفق ولا هوادة .. وكنت دائمًا أتقى هجومها بدرع حصينة من الجبن .

أقف فى النافذة .. فأجدها على أهبة الهجوم ، ويبدأ هجومها دائمًا بخلع الفستان .. ثم يستمر بعد ذلك بطريقتين : الطريقة الأولى الجمباز ، والثانية طريقة القراءة ..

أما الأولى .. فالجارة العزيزة اللذيذة .. لا تكاد تخلع الفستان .. حتى تتوارى وراء « برفان » قصير لا يبدو منه سوى رأسها وكتفيها .. ثم تنهمك فى

خلع بقية ملابسها وهى تنعم علىّ بين آونة وأخرى بابتسامة تبل حرارتى وتهدىء من ثائرتى .

وبعد لحظات تخرج إلىّ وقد ارتدت — شورت — وبلوزة حرير .

وتبدأ الجارة بعد ذلك فى اللعب والقفز والانحناء والالتواء .. مسلطة علىّ ما لديها من أسلحة وقنابل ومدافع .

أما الطريقة الثانية .. طريقة القراءة .. فهى لا تكاد تخلع فستانها حتى تستلقى على الفراش وتأخذ فى القراءة ، وهى فى قراءتها لا تقرأ كبقية عباد الله .. بل تتقلب وتتلوى وتتثنى وتتمطى ، ثم تلقى بالكتاب فترة لتمسك بقطة صغيرة تحتضنها وتقبلها .

ولا أجد أنا فى النهاية خيرًا من الانسحاب من النافذة عائدًا إلى قواعدى سالمًا أو غير سالم .

كانت الجارة ولا شك تستدعينى ، ولم يكن هناك أحب إلىّ من أن أسلم إليها نفسى رافعًا الراية البيضاء ، ولو لم يكن بنفسى رغبة فيها وتشوق إليها لأغلقت النافذة وكفيت نفسى شر القتال ، ولما تركت رابضًا وراء النافذة أصلى نيران العيون ولهب الشفاه .

كنت أقاوم بالجبن .. كنت أقول لنفسى : إن هذه مسألة خطيرة ، وإننى رجل متزوج ، وإن من العبث أن أعلق نفسى بمتعة تحيطها الأشواك ، وأنه قد يرانى فى رفقة الجارة أحد معارف السوء — وما أكثرهم فى مثل هذه الظروف — فتبلغ زوجتى ، أو قد يرانا أحد الجيران فينشر أمرنا ثم ما النهاية ؟ إما متعة زائلة ، تنتهى بالملل ، وإما علاقة دائمة وفيها شر مستطير .. لا .. لا .. إن من الخير .. أن أتقى شرها وأنأى بنفسى عنها .

وهكذا كان الجبن ،. وخشية العواقب تلبسنى درعًا من الفضيلة .

أما اليوم ، فقد ذهب الجبن ، وتبددت من نفسى خشية العواقب ، وتهاوت تلك الدرع الزائفة من الفضيلة ، فماذا أفعل ؟!!

كانت تقف أمامى فى الشرفة وقد ارتدت ثوبًا من الحرير الأبيض ذا كم جابونيز كشف عن ذراعها وعن جزء كبيرة حوله، وقد تهدل شعرها وانساب على كتفيها وبرز صدرها حتى فسرت كل قطعة به .

ونظرت إلىّ الجارة الفاتنة وابتسمت ، وسرعان ما تحولت ابتسامتها إلى قهقهة عندما رأتني ــ أزك ــ بقدمى ثم أشارت إلىّ بقبلة من أطراف أصابعها .

ولو كنت فى حالتى الطبيعية لهرولت فى مشيتى هاربًا خشية عيون الجيران وألسنتهم .. ولكنى ، والشجاعة تملأ نفسى ، لم يسعنى إلا أن أرد على تحيتها بأحسن منها ، وأرسلت لها قبلة طرقعت فى الهواء .

ودهشت الحسناء من تلك الشجاعة التى حطت علىّ فجأة وهزت رأسها متسائلة كأنها تسألنى : « إيه جرالك » ؟ فأشرت بسبابتى إلى رأسى ، وهززت أصابعى بحركة مستديرة قاصدًا أن أقول لها : « جننتينى » !

وانطلقت منها ضحكة أخرى نزلت علىّ بردًا وسلامًا .. وأشارت بيدها كأنها تقول « تفضل ».

مرة واحدة !!.. ترى كيف أستطيع أن أرفض دعوة الحسناء بالتفضل !

ورفعت لها يدى إلى رأسى بمعنى « متشكر ».. ولكنها كررت الدعوة .

فرفعت سبابتى وإبهامى ــ كأنى أبرم بهما شواربى ــ وهززت رأسى متسائلا : هل يوجد لديك رجل ؟.. فهزت رأسها بالنفى .

وملأتنى النشوة .. ورأيتنى أندفع نحو دارها ، لا يقف فى طريقى جبن ولا تقدير عاقبة ولا خشية نتيجة .. لقد استسلمت سريعًا أمام هجوم المرأة .. وانهارت مقاومتى .. فرفعت الراية البيضاء .

لقد هزمتنى شجاعتى شر هزيمة .

واندفعت إلى دار الحسناء .. أعرج الساق .. وارم العين ممزق الثياب ، غير آبه لما أنا عليه من ــ بهدلة ــ و ــ قلة قيمة ــ ولو كان بى بعض الجبن لتريثت طويلا قبل الاندفاع فما كنت أجسر قط أن أبدو أمام حسناء ، بهذه الهيئة المشينة

والشكل المزرى .

ولكن اشتياقى إلى الحسناء مضافًا إلى الجرأة المستحكمة فى نفسى لم يتركا لى الفرصة أن أفكر فى شكلى أو فى ساق العرجاء أو فى عينى الوارمة ، بل كان كل همى هو اقتناص اللذة العابرة والفرصة السانحة متمثلا بقول الشاعر :

وانهب من اللذات جهدك واعلمن .
أن القبـــور عـــديمة اللـــذات

علام الزهد والتقى والورع ؟ أزهد على ظهر الأرض وفى باطنها ؟ أتقى فى الحياة وفى الممات ؟

لا تضق همًّـا بـأمس وغـــد
أمس ولى وغـــد لم يولـــد
ويلنا إن ضاع يومى من يـدى
عاطـلا مـن زينـة اللهـو ومـا
صقلت أطرافـه شمس المدام

وهكذا ازدحمت فى رأسى كل فلسفة الخيام ، ووجدتنى بعد لحظة .. أصعد سلم الدار .. وأقف أمام الحسناء وجهًا لوجه .

من يصدق هذا ؟.. أنا الرجل الفاضل الزاهد .. الجبان .. الرعديد ، أقتحم دار الحسناء ، وأجلس وإياها فى حجرة واحدة ، وقد كان أقصى ما أستطيع فعله هو استراق النظر من النافذة !

وجلست وإياها وقد تلاصق جسدانا وسرى منهما تيار أشبه بالتيار الكهربائى ... وبدأت أملى البصر منها من قرب ، وأحقق فى الأسلحة التى طالما صوبتها إلىّ وأصلتنى بنيرانها .

ورأيتنى مغاليًا فى خشيتى منها ، ووجدت البعد والحرمان قد بالغا فى تأثيرها ، وأضفيا عليها روعة .

لا جدال فى أن المرأة كانت جميلة ، ولكنها ليست بذلك الإفراط الذى كنت أتوقعه منها .

إن شفتيها أو قاذفات اللهب .. لم يكونا كما خيل إلىّ من السخونه والحرارة .. أو على الأصح كانت سخونتهما مبعثها إصبع الأحمر الذى رسمهما بإتقان ، وهى سخونة .. باردة زائفة .. الفرق بينها وبين سخونة الشفاه الحقة .. كالفرق بين صورة اللهب ، واللهب نفسه .

وأبصرت مدفعى « البرن » من قرب .. فإذا بطلقاتهما « فشنك » مجرد طرقعة فى الهواء ، ولا إصابة .. وإذا بالريميل يبدو واضحًا فى جفونهما .

لقد وجدت المرأة المسلحة .. أسلحتها بعيدة المرمى .. إلا على بعد ، ولكنى لا أنكر أنى كنت أتحرّق شوقًا إليها ورغبة فيها ، فهى كما قلت امرأة حسناء .. عارية الأذرع ، متهدلة الشعر ، ناضجة الجسد ، وأهم من هذا كله .. ليست زوجتى .

قد جمعتنى وإياها حجرة واحدة .. ولم يكن الشيطان ثالثنا .. لأنه كان أحدنا .

وبدأنا الحديث ناعمًا رقيقًا ، وكانت الشيطانة — خفيفة الدم — فسرعان ما رفعت الكلفة بيننا .. وأحطت الحسناء بذراعى ، وضممتها إلى صدرى ..

وأحسست بجسدها لينًا دافئًا ، وتملكتنى نشوة جارفة .. وعجبت لنفسى كيف استطعت الصبر طوال تلك المدة التى طالما استدعتنى الفاتنة خلالها ، وكيف وقف الجبن امامى سدًا منيعًا يصدنى عنها ؟

ولم تمض لحظة حتى التقت منا الشفاه ، ووصل إلى أذنى همساتها الرقيقة ، وأصوات أخرى آتية من بعيد .

أصوات ما أبعدها عن الهمسات .. أصوات حملتها إلى أذنى نافذة الحجرة المقابلة .. حجرتى أنا .

أجل . لقد عاد أهل الدار إلى حجرتى ليطمئنوا علىّ بعد أن أنبأهم الأخ العزيز بخبر جنونى ، فوجدوا أننى قد هربت من النافذة .

وأصخت السمع .. مرهفًا أذنى ، وكانت شفتاى ما زالتا على شفتى الحسناء ، واستطعت أن أميز بين الأصوات بكاء امرأتى ، وصراخ حماتى ، وهى تنبئهم أنها أول من اكتشف مسألة جنونى عندما تهجمت عليها وهى تضرب الخادمة .

ومر بذهنى خاطر طارئ .. خاطر بسيط جدًا .. ومع ذلك جعلنى أرتجف رغم كل ما فى من شجاعة !!

ترى ماذا يحدث لو فتحت نافذة الحجرة التى أجلس فيها والتى تواجه نافذتى مباشرة ؟ ماذا يحدث لو أزيل هذا الحاجز الخشبى الرقيق .. فوقع بصر أهل الدار علىّ ، وقد احتضنت الجارة العزيزة .. وألصقت شفتى بشفتيها ، ورحت وإياها فى نشوة من الهوى ؟!

أنا رجل شجاع .. ومفعول جرعة الشجاعة أكيد فعال .. ولست أشك أنى أستطيع بفضله أن أخوض أحمى المعارك ، والأقى أشد الأهوال .. ولكن شيئًا واحدًا هو الذى لا أستطيع مواجهته ولا حتى تصوره .. وهو أن يقع علىّ بصر امرأتى وحماتى .. وأنا فى هذا الوضع العجيب .

أجل .. لقد نزلت علىّ أصواتهم كالصواعق . وأحسست منها برودة سرت فى جسدى .. أضاعت كل ما أكسبتنى الحسناء من حرارة ونشوة .. وجدتنى — ألطع — شفتى على شفتيها كأنى ألطعها على ضريح أحد الأولياء ..

وأحست منى الحسناء شرودًا وبرودًا .. فهمست متسائلة : « مالك » ؟

وأجبتها ببساطة ، وأنا أسحب شفتى من شفتيها .

— لا شىء .

ثم بدأت أسحب جسدى ببطء وأبتعد عنها شيئًا فشيئًا .. وهمست إليها :

— عن إذنك .. خمسة .

وهزت رأسها متسائلة فى دهش :

— إلى أين ؟

ورفعت يدى إلى فمى وعدت أهمس :

ـــ أشرب .

ـــ سأحضر لك كوبًا من الماء .

ولكنى هززت رأسى بالنفى .. فتضاحكت .. وقالت مازحة :

ـــ ويسكى صودا ؟

ـــ لا .

ـــ ويسكى سك ؟

ـــ لا .. أريد جبن سك .. جبن مركز .

ثم أدرت ظهرى وانطلقت أعدو بساقى العرجاء .. وجاوزت البـاب ، وهبطت الدرج كأنى قذيفة مندفعة ، تاركًا الحسناء تضرب كفًا بكف .

وقد تملكها منى ذهول شديد .

وانطلقت فى الطريق غير ملتفت يمنة ولا يسرة ، وقد استقر بى الرأى على أمر واحد .. وهو الوصول إلى تاجر النحس بأقصى سرعة .. قبل أن يصادفنى إنسان وقبل أن تقودنى شجاعتى إلى ما لا قبل لى به .

وهكذا أخذت أعدو حاملا شجاعتى ، حتى وصلت أخيرًا إلى الحانوت المنشود ، حانوت الأخلاق .. فوجدت التاجر الكهل ما زال فى جلسته كما هو حتى ، لكأنى لم أفارقه لحظة ، وارتميت أمامه على أحد الشوالات مبهور الأنفاس ، منهوك الأعضاء ، وهتفت به :

ـــ أغثنى .. أدركنى .

وقطب الرجل جبينه وتملكته دهشة وهز رأسه متسائلا :

ـــ ما بك ؟

ـــ شجاعة .. ضحية من ضحايا الشجاعة .

ـــ ولكنه لم يمض عليك سوى يوم واحد ، وما زال أمامك تسعة أيام .

ـــ هذه هى المصيبة .. تصوّر يا سيدى .. يوم واحد من الشجاعة قد فعل بى

ما ترى .. عرج وعور وجنون ورفت من الشغل .. ومن يدرى ربما رفت من البيت أيضًا ؟ فقد يكون أحد من أهل الخير رآنى وأنا أدخل دار الحسناء فيبلغ امرأتى .. تصور يا سيدى .. هذا ما فعله يوم واحد . فما بالك بالتسعة الباقية ؟. أرجوك يا سيدى .. أغثنى .

ورأيت الرجل يهز رأسه آسفا :

ـ هذا ما كنت أتوقعه .. لقد نصحتك فلم تقبل النصح .. وأبيت إلا أن تركب رأسك فتجرّب الشجاعة .. ما ذنبى أنا وقد حذرتك فضربت بتحذيرى عرض الحائط .. إنى لست مسئولا عما حدث لك .. إن كل المسئولية واقعة على عاتقك .

ـ لا يهمنى كثيرًا أن تكون أنت المسئول أم أنا .. إن كل ما أريد هو علاج سريع لهذه الشجاعة .. إنى أتوسل إليك .. إنى أرجوك .

ـ وماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

ـ جرعة جبن .. تكفى للتسعة الأيام التالية .. جرعة جبن تتعادل مع الشجاعة فتجعل منى إنسانًا طبيعيًا أرجوك .. أنا فى عرضك .

ـ ولكنى قلت إن هذا النوع من البضاعة قد نفد ، ولم يبق لدى منه ذرة واحدة .. لا جبن ولا نفاق ولا كذب ولا رياء ، ولا لؤم ولا خسة ، هذه أصناف قد استنفدت كلها .. فماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

ـ ابحث يا سيدى .. ابحث .. نقب وراء الشوالات وخلف الأدراج ، اكنس أرض الحانوت فقد يكون بها أثر جبن من بقايا الماضى .. من يدرى ؟ ابحث يا سيدى أرجوك إنها مسألة حياة أو موت .

وبدأ صبر الرجل ينفد ، وقال فى شىء من الحدة :

ـ قلت لك إنه ليس لدّى منه ذرة واحدة ، وأنا لا أقول إلا ما أعنى قوله .. أنا أعرف حانوتى .. شبرا .. شبرا وأعرف كل ما به ، فوفر على نفسك مشقة الرجاء الذى لا طائل تحته .

وتملكنى من قول الرجل يأس شديد ، وأطرقت فى حزن واستسلام .. وسادت فترة صمت طويلة ، رفعت رأسى وقلت للرجل مستعطفًا .

— إذا لم يكن لى علاج عندك لهذه الشجاعة .. هل تسمح لى أن أمكث عندك التسعة الأيام الباقية .. حتى تنتهى بسلام ؟

— على الرحب والسعة .. إن الحانوت حانوتك .

وصمت الرجل برهة ثم رفع حاجبيه وأردف قائلا :

— لقد خطرت لى فكرة .. فيها لك نوع من العلاج .

وسألته بلهفة :

— ما هى ؟!

— إننا نستطيع شفاء الشجاعة التى بك ، ولكنه ليس شفاء بمعنى الكلمة ، بل هو استبدال الشجاعة بشىء آخر .. فإنك تستطيع أن تختار لك نوعًا آخر من الأخلاق .. فتأخذ منه جرعة تسعة أيام .. فيحل فى نفسك محل الشجاعة .. ما رأيك ؟

وأخذت أفكر فى المسألة ، وأستعرض جميع الأنواع البائرة التى حواها الحانوت .. الإخلاص والصدق والوفاء والأمانة والمروءة والكرم .

إن فكرة الرجل صائبة .. فلا أظن هناك أخطر من الشجاعة ولا أشد أثرًا ، ولا شك أنى أستطيع أن أنتقى من بين هذه الأصناف صنفًا محتملا .. يستطيع المرء أن يصبر على مكارهه ويحتمل أضراره خلال التسعة الأيام الباقية .. وأحسست كأنما قد انزاح عن كاهلى عبء ثقيل وقلت للرجل :

— هذه فكرة صائبة .. إن أى شىء يمكن احتماله .. غير الشجاعة .

وألقيت نظرة أخيرة على الشوالات .. وأخذت أقلب البصر فيها حتى استقر على واحد منها .. خيل إلىّ أنه أخفها ضررًا .. فقلت للرجل :

— أعطنى جرعة من هذا .

— تقصد شوال المروءة ؟

ــ أجل .. ما رأيك ؟

ــ لا بأس بها ..

وبدأ الرجل يعبئ لى فى قرطاس مروءة تسعة أيام .

ثم أعطانى إياه ومد يده مودعًا ، ولكنى عدت أقول له مستعطفًا :

ــ لى رجاء أخير .

ــ ما هو ؟

ــ هل تسمح لى بتناول جرعة المروءة هنا .. إنى أخشى على نفسى من العودة ، وأنا رجل شجاع .. إنى أخشى أن ألقى أهل الدار وما زال بى أثر من شجاعة .. ثم من يدرى .. ربما تدفعنى شجاعتى فى الطريق إلى أن ألقى قرطاس المروءة فى الأرض ، وأعود إلى الدار رجلا شجاعًا .

وهز الرجل رأسه بالموافقة .. ثم مد يده فأخرج كوبًا وجرعة ماء وأذاب فيه قرطاس المروءة ثم أعطانى الكوب فتناولت الجرعة .

وهكذا شفيت من الشجاعة لأصاب بالمروءة .

ترى أكنت مستجيرًا من الرمضاء بالنار ؟

من يدرى ؟!!

(٧)

ذو مروءة

يا أهل القذارة .. رحماكم .. إن النظافة من الإيمان .. وهي نوع من الإيمان لا يكلفكم كثيرًا ولا قليلا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتعودوا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتناسوا قليلا فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا قذرين .. ولكن بقدر .

لم تكد جرعة المروءة تستقر فى جوفى حتى أحسست بعضلاتى التى شدّتها جرعة الشجاعة تتراخى وتنكمش ، وخيل إلىّ أن جسدى قد رق ، وأن نفسى تتسامى ومشاعرى ترهف .

لقد أشاعت جرعة المروءة فى نفسى إحساسًا عجيبًا بالحب والحنان والرقة والعطف ، وملأت قلبى برغبة جارفة فى مواساة الناس وتخفيف أحزانهم وتضميد جراحهم .

فكان أول ما فعلت هو أن نظرت إلى التاجر المسكين فأحسست بالرثاء له والعطف عليه .. يا للرجل البائس الشقى ! يا لطول ما أضنته الوحدة وآلمته الوحشة والفراغ !.. يا لطول ما قبع وسط بضاعته الخاسرة الكاسدة .. بضاعته الطيبة فى عصر ملأ أسواقه الفساد !! بضاعته الخيرة فى زمن غذاء أهله الشر والسوء .

إيه يا تاجر الحق فى أرض النفاق ! يا بائع الصدق فى دنيا الرياء يا مُهدى الشجاعة لمعشر الجبناء ! والإخلاص لجمع ضاع بينهم الحق وعز الوفاء !! لشد ما آلمتنى فجيعتك وأوجعتنى خسارتك .

واقتربت من الكهل الطيب فضممته إلىّ فى عطف وحنان وقلت له فى لهجة تفيض ألمًا وحزنًا :

ــ لشد ما عانيت من وحدتك يا سيدى وقاسيت ، إنى لا أطيق أن أتركك هكذا وحيدًا محزونًا ، سأجعل من نفسى رفيقًا لك يؤنس وحشتك ويشاركك فى ضرائك .. أجل يا سيدى لقد عزمت أن أقضى معك بقية عمرى .

ونظر إلىّ الرجل بطرف عينيه وقال فى هدوء :

ــ أشكر لك مروءتك الطارئة ، ولكننى لست فى حاجة إلى من يعيننى فالعون من عند الله ، ولقد تعودت طول الوحشة حتى ألفتها ، ولم أعد أحس منها بضيق أو ملل .

وصمت برهة ، ثم أردف قائلا :

ــ خير لى أن أذكرك بشىء يجب أن تضعه نصب عينيك ، إياك أن تعطى وعدًا يربطك بقية العمر ، فلا لزوم لأن تعدنى مثلا بأنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمرك ، بل الأضمن أن تقول : إنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمر مروءتك ، البالغة تسعة أيام ، هذا هو المدى الذى تستطيع أن تلقى فيه الوعود .. تسعة أيام فقط ، أما بعد ذلك ، بعد أن تتبدد من نفسك المروءة ، وتصبح كما كنت خلوًا منها فلا ترتبط بوعد أبدًا لأنك لا شك حانث به .

وهممت بأن أجادل الرجل وأخبره أن هذه المروءة طبيعية ، وأنها ستستمر فى نفسى إلى آخر العمر ، وأنى سآتى إليه إذا ما تبددت لأتناول منها جرعة أخرى لأعيدها إلى نفسى ، لأنى ما أحسست قط بلذة كلذة المروءة ، لذة صفاء النفس والرغبة فى فعل الخير .

ولكن الرجل أسكتنى بإشارة من يده وقاطعنى قائلا :

ــ أعرف كل ما ستقول ، لقد جربت أثرها وأحسست بكل ما أحسست به .. اذهب يا بنى ، أعانك الله عليها !

ونظرت إلى الرجل فى دهش وساءنى منه آن يرفض العون الذى عرضته

عليه ، وأنه يأبى أن أبقى إلى جواره لأعينه على احتمال وحدته ، و لم أجد بدًا من الانصراف ، ولكنى قبل أن أنصرف خطر لى أنى أستطيع أن أعين الرجل بطريقة خفية ، لا تمكنه من رفضها .

إن الرجل لا شك فى حاجة إلى المال فهو على ما يبدو رقيق الحال لا يملك غير تلك الشوالات المكتظة بالبضاعة البائرة ، ويعلم الله كيف يحصل على معاشه فهو لا يقبل لبضاعته ثمنًا ، بل يؤجل الحساب ليوم الحساب ، وعلى ذلك فإن أى مبلغ أدسه له خفية بين الشوالات لا شك سييسر له حاله ويعينه على قضاء حاجته .

وانتهزت فرصة غفلة من الرجل فأسرعت بإخراج محفظتى وأخرجت كل ما بها من نقود فدسستها بين الشوالات بحيث تظهر أطرافها ويسهل على الرجل رؤيتها ، ثم شددت يد الرجل شاكرًا وانصرفت فى طريقى عائدًا إلى الدار .

وهكذا كان أول ما فعلته بعد أن أصبحت رجلا ذا مروءة ، هو أن تركت للرجل المسكين كل ما كان معى من نقود وسرت فى الطريق خاوى الوفاض لا أحمل مالا ولا همًا ولا حقدًا ولا ضغينة .. لا شىء أبدًا إلا أكداسًا من المروءة تشع من نفسى وتضىء جوانحى كأنها الفوسفور فى الظلمة الحالكة .

سرت فى الطريق متجهًا إلى البيت ، و لم أكد أقترب من الباب حتى صادفت كلبًا قد تمدد على الأرض وتدلى لسانه وأخذ يلهث من فرط العطش .

أى عالم هذا الذى نعيش فيه ؟ عالم القسوة والغلظة والجمود !! هذا الكلب المسكين يكاد يموت من فرط العطش ، والناس تمر به دون أن يفكر واحد منهم فى أن يمد يده إليه بجرعة ماء .

أيها العزيز ، أبشر . لقد صادفت ذا مروءة ، سيروى غلتك بعد طول ظمأ .

واقتربت من الكلب وربت عليه برفق وأشرت إليه أن يتبعنى .

ودخلت الدار والكلب معى ، و لم يكد أخى يلمحنى من النافذة حتى صاح فرحاً وهتف بمن فى الدار :

— لقد عاد .

ثم أطل علىّ من النافذة قائلا فى رفق :

— أين كنت ؟ لقد كدنا نجن خوفاً عليك .

و لم أجب بل أشرت إليه رافعاً يدى إلى فمي حتى يحضر للكلب جرعة ماء .. ولكن الغبى لم يفهم .. وسمعته يجيب بمنتهى الأدب والرقة :

— أجل .. أجل .. لقد أحضرته لك من أفخر الأنواع وأشدها تأثيراً ، لقد صدق ظنك ، إذ رفض الرجل فى بادئ الأمر أن يعطينى إياه زاعماً أنه قد نفد ، ولكنى عرفت كيف أؤثر عليه وأنتزعه منه .

و لم أعرف ماذا يعنى أخى بهذه — الخطرفة — فهززت له رأسى مستفهماً عما يقول ، فأجاب :

— لقد قال لى إن لديه عينة من نوع جديد ، نوع مركز جداً ، تكفى جرعة منه لأن تجعل عنترة بن شداد أجبن خلق الله .. إنه أحسن أنواع الجبن الموجودة فى السوق .

وفهمت ما يعنيه الأخ الغبى .. وأدركت أنه ما زال يعتقد أنى مجنون .. وأنه يرى أن يقنعنى بأنه قد أحضر إلىّ جرعة الجبن التى طلبتها .. حتى يهدئ من روعى ويطيب خاطرى .

وصحت به ضاحكا :

— أى جبن هذا الذى أحضرته أيها الحمار ؟ لا شك أن بعقلك لوثة .. إنى أريد جرعة ماء أسقى بها هذا الكلب الظمآن .

وبدت الدهشة على وجهه وأجاب مرتبكا :

— حالا .. سأحضر لك الماء .

واختفى من النافذة وسمعته يقول لمن بالداخل :

— الظاهر أنه قد شفى .. لقد كان ما به نوبة طارئة .

وبعد لحظة وجدته قد هبط إلىّ حاملا فى يده كوزاً مملوءاً بالماء وتقدم به إلى

الكلب الذى أخذ يعب ما به عبا .

وارتوى الكلب .. ومد فمه ففعل بأخي .. ما فعل الثعبان بصاحبه حين أحس بالدفء والشبع .. أجل .. لقد عض أخي .

كان الكلب مسعورًا ، وانطلق فى الدار يشبع أهلها نهشًا وعضًا حتى استطعنا أخيرًا أن نوقفه ، ولكن — بعد خراب مالطة — فلقد عض ما لا يقل عن سبعة أشخاص .

و لم تمض لحظة .. حتى كان الأهل جميعًا نزلاء مستشفى الكلب !!

لم ينج منهم إلا واحد .. هو أنا .. صاحب المصيبة وصاحب المروءة .

وتملكنى الحزن ، وملأنى التشاؤم ، فقد كرهت أن يكون أول قصيدتى كفرًا ، وأن أبدأ مروءتى بإرسال أهلى جميعًا إلى مستشفى الكلب ، ولكنى أخذت أعزى النفس بأن كل ما حدث لم يعد أن يكون من فعل القضاء والقدر ، وأنى لو لم أحضر أنا الكلب ، لاستضاف هو نفسه ، وحضر إلى الدار دون حاجة إلى دعوة ، وأن الله ما دام قد كتب على الأهل رحلة إلى مستشفى الكلب فلن ينفى فى طريقهم مخلوق ، ولو لم يعضهم الكلب لعضوا أنفسهم .

وهكذا سريت عن نفسي وأقنعتها بأن المروءة لا دخل لها فى كل ما حدث ، وعزمت أن أحتمل لوم الأهل وتقريعهم بصدر رحب وحلم شديد ، و لم يغضبنى قط أن أسمع من حماتى — أنى طول عمرى جلاب المصايب — وأنها لم تر من ورائى إلا كل النوازل والكوارث . وأنى لا شك قد — سلطت — الكلب عليها و « انشلك » كل الأهل الأعزاء حقنة كلب « على الماشى » وهم يستنزلون علىّ غضب الله ويستمطرونه اللعنات .

و لم أجد خيرًا من أن أترك الدار وأنأى بنفسى عن أهلى برهة حتى تخف حدة غضبهم .

وغيرت ثيابى ، واغتسلت ، وتسللت من البيت .. بعد أن أعدت ملء المحفظة الخاوية بالنقود .

سرت فى طريقى ، وقد تملكنى إحساس جارف بالعطف على الناس والرثاء

لهم بلا أدنى سبب ، وتمنيت لو وهب لى الله عدة أجساد أنشرها بينهم .. أحمل عنهم أعباءهم وأخفف مصائبهم .. وضايقنى أن أجد نفسى عاجزًا عما أود فعله لهم ، فقد كانت قدرتى ـــ كإنسان ـــ محدودة .

ولكنى هدأت نفسى وطيبت خاطرى قائلا : لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، وأنه ليس علىّ إلا أن أفعل كل ما فى طاقتى .

وبدأت أفكر فى أنجع الوسائل لتخفيف ويلات الناس ، فاستقر الرأى على أن أذهب فورًا إلى أحد الأحياء البلدية . فلاشك أنى واجد فيها مرتعًا لمروءتى ، وأنى سأحصل على مورد خصيب للهموم والبلايا ، فى أزقتها وحواريها وحول أضرحة الأولياء فيها .

وبدأت أستعرض لنفسى الأحياء إياها .. الزاخرة بالمصائب .. الرازحة تحت عبء الأمراض والأقذار . بولاق ، القللى ، زينهم ، الحسينية ، عشش الترجمان ، السيدة ، الحسين .

ولم أجد هناك معنى للمقارنة فقد كانت كلها فى الهوى سوا .. وأخيرًا اخترت « القللى ».. فقد وجدت أنى أستطيع الوصول إليه بسهولة وكنت قريب العهد بزيارته ، فقد ذهبت إلى إحدى ورش النجارة هناك ، وما زالت صورته مطبوعة فى ذاكرتى .

لم يكن الوصول إلى القللى بالأمر الشاق ، فقد كان فى قلب القاهرة ، ولم يكن علىّ إلا أن أركب أى ترام أو أتوبيس يمر بشارع الملكة ، ثم أنزل قرب الإسعاف عند الكنيسة ثم أعبر الشارع الجديد المسمى بشارع « الجلاء »، وأدخل فى أحد الجحور المفضية إليه فأجد نفسى فى القللى ، وما أدراك ما القللى ؟!

شارع ترامت فيه الخضرة ذات اليمين وذات اليسار ، ولست أقصد بالخضرة خضرة الأشجار .. بل خضرة عروق الملوخية .

خطر لى وأنا أجول فى الشارع أن الأسماء التى يكنى بها عن مصر .. كأرض

الفراعنة وبلاد الأهرام ، ينقصها اسم قد يكون أصدقها وأدقها تعبيرًا ، وهو أمة الملوخية .

أجل والله إنها أمة الملوخية ، على جوانب الطريق أكوام من القمامات أظهر ما فيها عروق الملوخية ، والعربات المتجوّلة منتشرة على الطريق أظهر ما فيها — ورق العنب يا ملوخية — وفى كل دار لا يصل إلى أنفك إلا رائحة واحدة .. تقلية الملوخية ومن كل نافذة لا تصب على رءوس المارة إلا حلل الملوخية ، حيا الله الملوخية ، وأمة الملوخية .

سرت فى القللى على قدمى طبعًا .. فالطريق أو السرداب لا يكاد يسمح بالمرور إلا على القدمين فهو طريق بينه وبين المدنية مائة عام .. طريق أغلب الظن أنه يتمتع باستقلال تام ، وفى الوقت نفسه بالموت الزؤام .

أما عن تمتعه بالاستقلال التام .. فأمر لا يحتاج إلى مناقشة فلا أظن للحكومة سلطانًا على المكان أو أهل المكان ، وكيف يكون لها سلطان على شيء لا تكاد تحس بوجوده .. ما للحكومة ولهذه الأمكنة العفنة المنتنة ؟! ما لها ولهذه القاذورات المتراكمة ! مالها ولهذه السراديب الضيقة التى لا تتسع لمرور عرباتها الفخمة الطويلة العريضة ! ما لها تقض مضجعها وتشغل بالها بهؤلاء — الرعاع الحوش — ومساكنهم وطرقاتهم ! ماذا يعنيها من القللى ما دام طريق الملكة بفخامته وأبهته قد ستر أطلاله وأخفى خرائبه ، فما عاد منظرها الكريه يؤذى العيون القريرة ، وما عادت رائحتها النتنة تزكم الأنوف التى تعودت على الاتكنسون ، والسوار دى بارى ؟! ما لوزير الأشغال ومدير التنظيم ومدير النظافة و .. و .. و .. ! ما لكل هؤلاء ولهذه الجحور المظلمة والكهوف الخربة ، ما دامت — بوابير الزلط — والعمال .. دائبين مجدين فى تنسيق الزعفران وتبليط الخليفة المأمون والدقى والزمالك !! ما لهم وللجحور التى لا تبصرها إلا عين هؤلاء التعسين المساكين !! ما لهم وللجحور التى ما دار بخلدهم قط أنها كائنة منهم على قيد خطوات وهم يطوون بعرباتهم الطرقات الفخمة

الواسعة .!

ترى لو أننا حكمنا على أحد هؤلاء بالسكنى فى جحور القللى أو بولاق أو زينهم أو الماوردى .. ماذا كان يصيب الحى التعس ؟!

تصوروا معى لو أننا أمسكنا بوزير الأشغال وأجبرناه إجبارًا على السكنى فى القللى . ماذا يمكن أن يحدث ؟!

أول ما يحدث هو أن يستدعى الوزير الوكيل ومدير التنظيم وغيرهما من المسئولين ويسألهما فى حنق ودهش كيف يبقى حى كالقللى فى قلب القاهرة وهو على حالته تلك من القذارة والنتانة ؟!

كأنه — لافض فوه — لم يكن يعيش فى القاهرة من قبل ، ولم يكن يعلم أن القللى .. وغيره من أمثاله .. كائنة فى قلب القاهرة .

وهنا يأمر الوزير المصلح فورًا بإصلاح الحى رفقًا بأهله ، وحرصا على صحتهم وراحتهم ، ولا تكاد تمر بضعة أيام حتى تجد العمل والإصلاح والهدم والإنشاء قد قام على قدم وساق ، وإذا بالقللى قد مسته يد ساحر ، كما مست من قبل أرضًا بورًا يملكها واحد من أصحاب السلطان فشقت فيها النزع والمصارف وأفاضت على ما حولها خيرًا عميمًا .

مرت بذهنى كل هذه الخواطر وأنا أسير فى السرداب الضيق .. أشق طريقى وسط كراسى الخوص التى فاضت بها المقاهى القائمة على الجانبين فرصت فى عرض الطريق .

وكان أول ما لفت نظرى فى الحى وأهله هو ما تجلى فيه من روعة الفن .. فن القذارة الرائع .

إن الحكومة لا شك مقصرة فى أمر هؤلاء التعسين ، ولا شك أيضًا أن ما بهم مرجعه الأول إلى الفقر الذى يكبلهم بأغلاله ، ولكن ما ضرّهم لو ضغطوا على أنفسهم ، فحاولوا أن يكونوا من تلقاء أنفسهم أكثر نظافة ! ما ضرّهم لو طلقوا بالثلاثة فن القذارة ؟!

(أرض النفاق)

ولا تظنوا بقولى« فن القذارة » سخرية أو مبالغة .. فإنى والله جاد فى قولى كل الجد .. إذ لا شك فى أن المسألة فن .. وأن أى إنسان غير هؤلاء المتبحرين فى فن القذارة لا يمكنه أن يفعل مثل ما فعلوا ، ولا يمكنه أن يصل به الحال إلى مثل ما وصل حالهم ؟

وكيف لا تكون القذارة فنًا .. وأنا أبصر هذه المرأة الفنانة وقد جلست على قارعة الطريق بجوار الجدار .. لا فارق هناك بين لون وجهها وملابسها والأرض .. فهى مثل لصدق قول أبى العلاء « أديم الأرض من هذه الأجساد » أو هذه الأجساد من أديم الأرض .. وفى حجرها تمدد وليدها .. أو قطعة أخرى من أديم الأرض ، وقد رمدت عيناه .. وحط الذباب على وجهه زرافات ووحدانًا ، وأمامها قفص قد رصت عليه بضع قطع من « نبوت الغفير » (وإن كنت أشك كثيرًا فى أن نبوت الغفير بمثل هذه القذارة) وبضع قطع أخرى من الحلوى المختلفة الأحجام والألوان والتى قد وجد الذباب فيها مرتعًا آخر غير عينى الطفل ، وبجوار المرأة طفل آخر يحبو على قوائمه الأربع فيستقر به المقام على كوم من القمامة .. هو خليط من قشور الخضر والأتربة والماء العطن .. « والبطيخ البايت » ، ويفزع الذباب من وصول الصبى فيطير عن كوم القمامة ، ولكنه يتبين أن القادم صديق .. أو هو جزء حى من القمامة ، فيحط رحاله مرة أخرى مرحبًا بالطفل .

هذه المرأة .. لا شك فقيرة .. ولكن ما دخل فقرها ، فى هذا التفنن فى القذارة !؟ ماذا يكلفها أن تغتسل وتغسل طفليها !؟ ماذا يكلفها أن تبعد نفسها عن كوم القذارة !؟ ماذا يكلفها لو غطت حلواها (إذا كان لا بد لها من بيع الحلوى) بقطعة قماش نظيفة !؟ ماذا يكلفها لو أمسكت فى يدها منشة رخيصة من القش تذب بها الذباب عن وجهها وعن طفليها !؟

لن يكلفها كل ذلك إلا أمرًا واحدًا .. وهو إتلاف تابلوه القذارة الذى تفننت فى عمله بالاشتراك مع زرافات الذباب وأكوام القمامة .. هذا التابلوه الحى

المتحرك .. سيذهب برونقه نظافتها ونظافة أولادها .. وتلك المنشة التى ستمسكها ستخرق المحالفة القائمة بينها وبين الذباب .. فلا يعود إلى معاونتها فى إبراز فنها .

وتابلوه آخر .. ذلك الرجل الذى وقف على ناصية أحد الأزقة وقد وضع أمامه « طبلية » رصت عليها « شقق البطيخ » وبدت « الطبلية » كأنها مصيدة ذباب ، وكأن شقق البطيخ ورق ذباب ، والرجل نفسه — أجاركم الله — تمثال للقذارة .. يتمخط ويبصق بين ثانية وأخرى .. وقد لوثت يده بماء البطيخ الأسود — بعد خلطه بما تيسر من الأتربة — وحوله قد تناثر قشر البطيخ واللب .. وعلى مقربة منه جدار يقضى الناس حاجتهم بجواره فهو بمثابة (مبولة) تفوح منها رائحة الصنان .. وبجواره نافذة تسكب منها امرأة من سطل فى يدها ماء أسود قذرًا .

أليس هذا والله فنًا ؟ ماذا يكون فن القذارة أكثر من ذلك !!

يا أهل القذارة .. رحماكم .. إن النظافة من الإيمان .. وهى نوع من الإيمان لا يكلفكم كثيرًا ولا قليلا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتعوّدوه .. لا يكلفكم أكثر من أن تتناسوا قليلا فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا قذرين ، ولكن بقدر . لتجعلوا لكم يومًا فى الأسبوع تمتعون فيه أنفسكم بالقذارة . تتمرغون فى التراب ، وتطلقون أطفالكم فى أكوام القمامات ، وتسكبون من النوافذ ما شئتم من الماء الآسن .. وتحتفلون فيه بتكريم الذباب والبق وكل أنواع الحشرات التى تعاونكم على التمتع بالقذارة . أما فى باقى الأيام فاغتسلوا واغسلوا أطفالكم ودوركم ونظفوا أزقتكم وادفنوا القمامة ، وحاربوا الذباب وغيره من حلفاء القذارة .. افعلوا ذلك .. جرّبوا النظافة .. فإنى أؤكد لكم .. أنها لن تكلفكم شيئًا ، وأنكم « ستستحلونها » وتطلقون القذارة .. بلا رجعة .

فإذا لم تفعلوا .. فإنى أهيب بالحكام .. أن يفرضوا عقوبة الجلد على عشاق

القذارة وفنائها .. وأن يجلدوكم حتى تستقيم قناتكم .. أو تموتوا .

فخير لكم .. أن يموت منكم البعض جلدًا من أن تموتوا كلكم من جُراثيم القذارة .

سرت فى الطريق .. أنقل البصر بين تابلوهات : القذارة ، والفقر .. والمرض .. ونفسى تفيض عطفًا على أهل الحى .

وبودى أن أفعل شيئًا لأرفع عنهم ذلك البؤس الذى حط عليهم على أجد مخرجًا للمروءة التى تصطخب فى نفسى .. حتى وقع بصرى على شحاذ قد انكمش أسفل جدار .. ومد يده فى صمت وسكون .. وبدت عليه المذلة والحاجة .

نظرت إلى الرجل .. فأحسست برثاء له شديد .

كان الرجل .. مقطوع الساق والذراع ، ولم يكد يرانى ، حتى تطلع إلىّ ببصر متلهف .

وهممت بأن أضع يدى فى جيبى لأعطيه شيئًا من النقود .

ولكننى تذكرت أن هؤلاء الشحاذين فئة مخادعة ، وأنهم يتخذون الشحاذة حرفة .

وكان تذكرى .. ما قرأته فى بعض الصحف عن الثروات التى يخلفها بعض هؤلاء عقب موتهم .. يجعلنى دائمًا أحجم عن مد يد المساعدة إلى أى شحاذ .

ولكنى .. فى هذه المرة — والمروءة تملأ جوانحى — وجدت نفسى أتريث أمام الرجل ، وأنعم الفكر برهة .

أليس من المحتمل .. أن يكون هذا الرجل بائسًا فقيرًا ، محتاجًا إلى المساعدة ، وأنه ليس مخادعًا ، ولا محتالا ؟!

وهل يعنى ، مجرد أن يخلف بعض الشحاذين ثروة .. أنهم جميعًا .. من أصحاب الثروات ، وأنهم جميعًا محتالون ؟ وإلى من نقدم يد الإحسان إذا كنا سنمنعها عن كل سائل ؟

لا .. لا .. هذا فرض خاطئ .. يجب ألا نأخذ الكثرة بالقلة .

يجب ألا نأخذ البرىء بذنب المجرم .

يجب أن أمد يد المعونة إلى الرجل ، مهما كان الأمر .

واقتربت من الرجل ، فوجدته يقول لى بلهجة المتوسل :

« إننى لم أذق طعامًا منذ يومين !! »

ووجدتنى أهتف بنفسى « فرجت » .

أجل .. والله .. إنها « فرجت » !

لقد حل الرجل المشكل ، وأنقذنى من حيرتى وترددى .

إن الرجل قد وضح حاجته بما لا يقبل الشك .

إنه جائع .. لم يأكل منذ يومين ، وهكذا أستطيع أن أقدم له مساعدة عملية « مضمونة الأثر » وذلك بإطعامه فعلا !! فأكون بذلك قد أسديت إليه معروفًا ، وأنا ضامن أنه لم يخدعنى .

وهكذا استقر بى الرأى على أن أطعم الرجل .. أطعمه بنفسى .. لا .. أن أعطيه نقودًا لكى يشترى بها طعامًا . حتى لا أعطيه الفرصة للاحتيال وحتى أضمن — إذا كان جائعًا حقًا — أن يأكل أكلة دسمة محترمة .

هذا هو المعروف ، وتلك هى المروءة .. معروف فى موضعه ، ومروءة نتيجتها مضمونة مائة فى المائة .

ووقفت أمام الرجل ألقى عليه التحية :

— السلام عليكم يا حاج .

وأجاب الرجل بصوت متوسل ، ولهجة منكسرة :

— وعليكم السلام يا بنى ورحمة الله .

— أحقًا .. لم تأكل منذ يومين ؟

— من امبارح الصبح .. وأنا لم أذق لقمة .. أعطنى قرشًا لله .. أشترى به شقة حاف .

— لا .. لا .. شقة حاف .. لا تنفع .. ولا تسمن .. ولا تغنى من

جوع !.. لا بد لك من غذاء كامل .. يربى عليك .. ويعوّضك الأكلات التى ضاعت منك .

ونظر إلىّ الرجل فى ذلك متوهمًا أنى أسخر منه ، وأجاب :

ـــ يا سيدى .. شقة كفاية .. ربنا يعمر بيتك .

ـــ ما رأيك فى أن تتناول الغداء معى .. إنى لم أتناول الغداء حتى الآن ويمكننا أن نتغدى سويا .

ورأيت الرجل يرمقنى بطرف عينيه بنظرة فاحصة .

وبدا له أنى إما أبله مجنون .. أو ساخر متهكم .

وأخيرًا أجابنى :

ـــ يا سيدى أنا رجل مسكين .. حرام عليك !!

ـــ حرام علىّ ! إنى لا أسخر ، ولا أمزح .. إنى أتكلم جادًا .. وإنى أصر على دعوتك للغداء معى .. وماذا فى ذلك ؟ هل هناك فارق بين عبيد الله ؟

وهكذا استطعت أن أقنع الرجل بصدق رغبتى . فى أن يتناول الغداء معى ، وحاول الرجل التهرب ، ولكنى أصررت .

وأخيرًا .. نهض يتوكأ على عكازه ، وسار بجوارى .

وأخذت أفكر فى أنسب الأماكن ، لتناول الغداء مع الشحاذ المحترم ، وكان أول ما خطر ببالى .. هو : أن أصطحبه إلى الدار . فقد كان التناقض بين منظرنا سيثير الدهشة واللغط فى أى مطعم أطرقه وإياه .. فما تعوّد الناس .. أن يبصروا « أفنديا » محترما مثلى يدعو « شحاذًا » لتناول الغداء معه .

ولكن قليلا من التفكير جعلنى أستبعد نهائيًا فكرة الذهاب إلى البيت .. ترى ماذا يمكن أن يلقانى به الأهل لو ذهبت إليهم مصطحبًا هذا الذى ينضح قذارة .. وطلبت منهم أن يجهزوا لنا الغداء ؟

ماذا يمكن أن يحدث لى منهم ؟ وعضة الكلب المسعور الذى استضفته من قبل ما زالت تحز فى أجسادهم ؟

لا .. لا .. إن من الحمق أن أحاول اصطحابه إلى الدار .. فلا أظن الأهل يستطيعون الصبر علىّ هذه المرة !

أين نذهب ؟.. كيف نأكل ؟.

نبتاع سندوتش بالطعمية والفول .. ونأكله ونحن سائران ؟

وفجأة لاحت لى لافتة ، وجدت فيها خير حل للمشكلة لافتة كتب عليها :

« المصمت الوطنى الوحيد » لصاحبه « الحاج عبد القادر عيد » .

وجدتها أخيرًا .. حمدًا لله !

هذا « المصمت » هو خير ما نتناول فيه الغداء .. فإن دخولنا فيه لن يثير الدهشة ، فهو جامع حاو لكل من هبّ ودب .

عمم .. ولبد .. وطواق .. وطرابيش .. من كل صنف .. ومن كل نوع .

وأهم من هذا وذاك .. لقد كنت متشوقًا لأن آكل فتة كوارع بالثوم .. وهكذا أستطيع أن أرضى نفسى ، وأرضى الرجل .. دون أن أخشى لومة لائم .

وسحبت الرجل من ذراعه السليمة .. ودلفت به إلى الداخل .. واحتللنا منضدة فى أحد الأركان .

وصفقت بيدى مناديًا المعلم .

ومضت برهة قبل أن يجيبنى أحد ، فقد كان المكان يعج بالزبائن ، وكان صبيان المحل فى حركة دائمة .

وجلست أنظر إلى ناحية « القزان » الذى قام مواجهًا الباب ، وقد وقف أمامه من لم أشك قط فى أنه « الحاج عبد القادر عيد » نفسه .. فقد كان بشواربه المبرومة ، و « لاسته » الملفوفة بعناية حول رأسه .. و « الكبشة » فى يده يقلب بها القزان .. كأنه قائد يتوسط أرض المعركة .. وقد أمسك فى يده عصا المرشالية .

وكانت الأبخرة تتصاعد حول المعلم « عيد » كأنها دخان المدافع .. وقد رصت أمامه ، عشرات السلاطين ، المليئة بالعيش المكسر ، أو « الفتة الجافة » ..

وهو يسكب فى كل منها بكبشة من الشوربة ، التى ملئ بماء القزان ، ثم يتركها برهة حتى (تبوش) .. وحتى (تشرب ميتها) .. ثم يبدأ بتغطيتها بطبقة رقيقة من الأرز الموضوع فى قزان آخر .

فإذا انتهى من عملية التغطية بالأرز .. كشف عن حلة (الصلصة) .. وأخذ ينقل منها بكبشة صغيرة .. بمقادير محدودة .. يزين بها سطح السلاطين .

وتبدأ بعد ذلك عملية تقطيع الكرشة .. فيخرج من القزان .. كرشة كبيرة .. تتصاعد منها الأبخرة ويأخذ فى تقطيعها على رخامة البنك ، ثم توزيعها على السلاطين .

وهنا يهجم الصبيان فيحمل كل منهم نصيبه من السلاطين ، وينطلقون بين المناضد لتوزيعها على الزبائن .

ويأخذ المعلم (عيد) بين آونة وأخرى فى تجهيز الرءوس ، وتوضيبها ، وفصل اللسان والجوهرة ، وإخراج المخ .. ثم يقذف بالعظام إلى القطط الملتفة حوله .

وأعدت التصفيق .. فحضر إلىّ أحد الصبية الذى علمت بعد ذاك أنه يعمل مناديا فى (المصمت) .. إذ لم أكد أطلب منه ما أريد .. حتى وجدته قد رفع يده إلى فمه ، كمن يهم بالغناء .. ثم جعد وجهه .. وأغلق عينيه .. وصاح بصوت ملحن ، ملؤه النغمات والآهات :

« اتنين بالصلصة والكرشة .. وجوز عجالى .. وحتتين لسان .. مع التحابيش » .

وهكذا بلغ النداء إلى الحاج « عيد » دون حاجة منه إلى الانتقال إليه .. و لم يصعب علىّ أن أدرك أن « التحابيش » معناها أن يكون الطلب معتنى به .

ومضت فترة قبل أن يحضر إلينا الطعام .. فأخذت أتشاغل بالحديث مع صديقى وعلمت منه أنه يدعى « الشحات » أى إنه اسم على مسمى .. وأخذ يقص علىّ ما يعانيه من شظف العيش والبؤس ، حتى أقسمت فى نفسى أن أتولى

أمره بصفة دائمة أو أحاول أن أجد له عملا لا يحتاج للحركة .

وأخيرًا أحضر الصبى الطعام وبدأنا تناوله .

وأنتهينا من الطعام وحضر إلىّ المعلم « عيد » نفسه لتناول الحساب ، ونويت أن أكون كريمًا معه حتى يعرف أننى ابن ناس .. وحتى لا يكون اصطحابى للشحاذ سببًا فى إضاعة مركزى أمامه .. وحتى يعرف أن طعامى مع السائل ليس إلا من باب التواضع والمروءة والإنسانية .

وفرك المعلم يديه وبدأ يسرد لى قائمة الحساب .. فإذا كل ما تناولناه لا يزيد ثمنه على الريال .

(٨)

فى مجمع الشحاذين

إن هناك الملايين .. ممن يستحقون العون ، ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال .. أولئك الذين فقدوا كل شيء .. إلا ماء وجوهم .. والذين أضاعوا كل ما يملكون . إلا كرامتهم .

ومددت يدى لأخرج المحفظة .

ومضت فترة وأنا أنقل يدى من جيب لجيب دون أن أجد للمحفظة أثرًا .. وأحسست بالعرق يتصبب من جبينى من فرط الخجل .. ماذا أفعل أمام الشحات وأمام الحاج « عيد » أنا الأفندى المحترم الذى أريد أن أظهر بمظهر « الفنجرى » ، فإذا بى لا أجد ثمن ما تناولته من طعام .

ورأيت الشحات ينظر إلىّ نظرة فاحصة بطرف عينه ، ووجدت القلق قد بدا على وجه الحاج « عيد » والحنق قد بدأ يسرى فى ملامحه .. فأسقط فى يدى ، وأحسست كأننى قد غرقت فى جوف بئر ، وأنه ليس لى مخرج من ذلك المأزق الذى وضعت فيه نفسى .

وفجأة رأيت المخرج .. فقد هبط علىّ منقذ من السماء .. منقذ لم أكن أتوقعه قط ، فقد رأيت الشحات يرفع بصره إلى المعلم « عيد » ويقول له ببساطة :

ــ معلهش يا معلم .. الظاهر إن الأفندى نسى المحفظة .. خلى الأكل على حسابى المرة دى .

ونظر المعلم « عيد » إلىّ نظرة ملؤها الازدراء .. ثم أولانى ظهره وانصرف ، وأحسست بالعرق يقطر من جسدى بعد أن تناولت الغـداء على حساب الشحات .

تملكنى الذهول وأحسست أنى أكاد أجن مما حدث .

من يصدق هذا ؟.. أنا الرجل ــ الفنجرى ــ المحترم الذى يفيض مروءة ، وكرمًا ، وأريحية .. الرجل الذى قطع كل تلك المسافة من داره إلى حى القللى ، ليغدق على البؤساء من فيض كرمه ويعطيهم مما أعطاه الله ، ويهب لهم من إحسانه ما يثلج به صدورهم ، ويقضى حوائجهم .. ينتهى به الأمر إلى أن يتناول غداءه على حساب أحد الشحاذين !

هذا والله منتهى السخرية ؟

أيحسن علىّ شحاذ ؟ و لم يمض على تناولى جرعة المروءة بضع ساعات ؟

أيطعمنى سائل جائع أكتع كسيح ؟.. وأنا صاحب الفضل والإحسان !! والله ما كنت أقبلها قبل أن أتناول الجرعة .. فما بالكم وأنا أحس بالمروءة تثقل أمعائى ؟!

ثم .. المحفظة !! أين المحفظة ؟!

إنها السبب فى كل ما حدث .. إنها هى التى وضعتنى فى هذا المأزق الحرج .. إنها هى التى سببت لى كل ذلك الخذلان والخيبة .

أين ذهبت ؟! لقد بحثت عنها فى كل جيوبى دون أن أجد لها أثرًا ، مع أنى واثق أنى قد وضعتها فى جيبى قبل أن أترك الدار .

ومضت برهة وأنا جالس على المائدة التى تناثرت عليها بقايا الطعام .. شارد الذهن غارب البال .. ما زالت يدى تنقب فى جيوبى باحثة عن المحفظة .. والشحات جالس أمامى يمسح فمه بطرف كمه المهلهل القذر .. وأسند عكازه الأسود على طرف المنضدة .. وأخذ يوجه إلىّ من آن لآخر نظرات مسترقة من طرف عينيه .. خيل إلىّ أن فيها لمحة سخرية خفيفة .

ولم تكن حالة الحرج والخجل التى أنا فيها قد تركت لى الفرصة كى أفكر فى أن هذا الشحات لا بد أن يكون مخادعًا محتالا ، وإلا فكيف يدعى أنه لم يذق الطعام منذ يومين مع أن له فى المصمت حسابًا جاريًا ؟

إن المعلم لم يحاول مناقشته عندما طلب منه أن يجعل الطعام على حسابه بل انصرف دون أن ينبس ببنت شفة .. فلا شك أنه مطمئن إلى الرجل .. وأنه يجد فيه « زبون سقع » .

وبدأت أوجه إلى الشحات نظرات الشك ، ولكنه لم يابه لنظراتى ونهض فى سكون متناولا عكازه واتجه إلى خارج المصمت وأنا سائر خلفه مطأطئ الرأس وقد تملكنى خجل شديد ، إذ أحسست أن كل من فى المصمت يحملقون فىّ بأعينهم وأنهم يشيرون إلىّ بأصبعهم قائلين : هذا هو الأفندى .. الذى أطعمه الشحات .

وسرت والشحات فى الطريق الضيق وكلانا مطرق صامت يسترق النظرات إلى صاحبه بين آونة وأخرى .. وأنا حائر لا أدرى كيف أتصرف معه .. هل أشكره على كرمه وأريحيته لأنه أطعمنى من جوع .. أم أزجره وأؤنبه لأنه خدعنى وسخر منى !

وأخيرا قلت له :

ـــ ما الذى أجبرك على البقاء يومين بدون طعام .. إذا كان لك حساب جار فى المصمت ؟

ونظر إلىّ الشحات رافعًا حاجبيه فى شىء من الدهش وأجاب :

ـــ الظاهر أنك على نياتك قوى .

ـــ على أية حال .. إذا كنت قد خدعتنى .. فأنا لا شك معذور ، فهذه الحال التى أنت عليها تجزم بأنك لم تذق الطعام لا منذ يومين .. بل منذ سنتين ، والواقع أنك لم تخدعنى لأنى أؤكد لك أنك بائس تعس .. ماذا يجديك ما اختزنته من النقود .. إذا كان أثرها لم يظهر عليك .. إن قيمة النقود ليست فى النقود بل فيما

تفعله النقود ؛ هبك جمعت أموال العالم وخزنتها فى حفرة فى أرض غرفتك .. واستمررت على ما أنت عليه من السؤال والعرى ، هل هناك فارق بينك وبين الفقير المحروم الذى لا يملك شروى نقير ! إنك أشبه بالحمار الذى يحمل قرب الماء وهو يلهث من العطش .. ولكنك معذور فلست وحدك تفعل هذا .. ولا أظنك تختلف كثيرًا عن معظم أثريائنا .. الذين يخزنون أموالهم ويحرمون أنفسهم ويضيعون أعمارهم سدى ، ويخيل لى أن خير ما يمكن عمله لهؤلاء هو أن تسحب نقودهم من خزائنها وتصرف عليهم حتى يتنعموا بالحياة ويزكوا عن أنفسهم دون أن يعلموا أن هذه هى نقودهم .. بل يستمر إيهامهم أن نقودهم ما زالت مخزونة حتى تظل نفوسهم قريرة راضية فالمسألة لا تزيد عن مجرد وهم، وليست متعتهم بالنقود المخزونة سوى متعة وهمية ، وإلا فقل لى بربك هل هناك فارق بين خزنك النقود وخزنك أكوامًا من الزلط .. ما دامت النقود ستبقى فى خزائنها دون أن ينتفع بها أحد ؟

ونظر إلىّ الشحات من أسفل إلى أعلى ، وأجابنى ببساطة :

ــ الظاهر أنك متفلسف :

ــ متفلسف أو غير متفلسف .. إنك رجل تعس شقى ما فى ذالك شك ، ومهما كان من أمر فليس لى إلا أن أشكر لك أنك أطعمتنى ، وأعدك بأنى سأعود إليك لأرد لك ثمن الأكلة .. لأنى كما ترى قد نسيت المحفظة .

وابتسم الرجل وأجاب فى سخرية :

ــ لا داعى لأن تعود ثانية .. إنك لم تنس محفظتك .

ثم مد أصابعه وأخرج من صدره .. المحفظة !!

ــ إى والله .! محفظتى بعينها فقد نشلها منى الرجل ونحن فى طريقنا إلى المصنمت وعاد يسألنى .

ــ أما زلت تصر على أنك لست « على نياتك » !

وتناولت منه المحفظة وقد تملكنى الدهش وازداد بى الإحساس بالخيبة

والخجل .. ودفعت يدى فى المحفظة فأخرجت منها بعض النقود وقلت للرجل :

ــ خذ الريال .. ثمن الأكلة وشلن بقشيش لك .

وأخذ الرجل الخمسة والعشرين قرشًا فدسها فى جيبه .

وهنا لمحت سائلا آخر قد عصب عينيه ووقف على ناصية أحد الأزقة مادًا يده ، فاندفعت إليه فى حركة غير إرادية لأهب له بعض النقود ، ولكن « الشحات » جذبنى من ذراعى ونظر إلىّ نظرته إلى ذى جنة وسألنى متعجبًا :

ــ إيه يا سيدنا .. إيه حكايتك .. مغرم شحاتين . وإلا غاوى إحسان !

ــ أبدًا .. أبدًا .. مسألة مروءة ليس إلا .. أنا ذو مروءة أو مصاب بالمروءة .. ليس الذنب ذنبى إنما ذنب الجرعة التى تناولتها .

ــ ذنب الجرعة .. أية جرعة ؟!

ــ جرعة المروءة .

ــ أللمروءة جرعة ؟

ــ طبعًا .

ــ ومن أين حصلت عليها ؟

ــ عند تاجر الأخلاق .!

ــ وماذا أجبرك على تناولها ؟

ــ مكره أخوك لا بطل .

ــ لا أفهم .. من الذى أكرهك على تناول جرعة المروءة ؟

ــ أنا أكرهت نفسى .

ــ ولِمَ ؟؟!

ــ لأستعين بها على إزالة الشجاعة .

ثم أخذت أقص على الرجل القصة باختصار . وسردت له كل ما حدث من جراء الشجاعة ، وكيف استجرت من الشجاعة بالمروءة .. وهنا هز رأسه ، وقال فى سخرية :

ــ تمامًا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ــ لا أظن .. ليس هناك شر من الشجاعة .

وهنا لمحت سحاذًا آخر وقد وقف أمامه رجل بادى الطيبة يهم بأن يعطيه قرشًا ، فأثار المنظر نخوتى وهجمت على الشحاذ حتى أشارك الرجل الطيب فى الإحسان إليه ، ولكننى وجدت الشحات جذبنى إليه مرة أخرى وحال بينى وبين التقدم إليه ، وهتف بى :

ــ ماذا تريد أن تفعل ؟

ــ أعطى الرجل حسنة .

ــ أى رجل ؟

ــ الشحاذ طبعًا .

ــ الظاهر أنك غير مؤمن .

ــ حاشا لله .. ماذا دعاك إلى اتهامى بهذه التهمة الباطلة ؟

ــ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .. وأنت تأبى إلا أن تلدغ من الحجر عشرات مرات .. ما دخل المروءة بهؤلاء ؟ يجب أن تضع المروءة فى موضعها وتعطى الإحسان لمن يستحقونه .. ما دمت تتلهف على فعل الخير والمروءة .. فخير لك أن تتقدم بالإحسان إلى الرجل الآخر .

ــ أى رجل ؟

ــ الرجل المحسن .. الذى يمد يده بالنقود إلى الشحاذ .

ــ ماذا تقول ؟. أأترك السائل .. وأمد يدى بالإحسان إلى المحسن ؟

ــ أجل .. وإذا أمكنك أن تنتزع كل ما مع الشحاذ فتعطيه المحسن فلا شك أنك تكون قد فعلت خير المعروف وأعظم المروءة .

وهززت رأسى مستنكرًا .. إن « الشحات » لا شك يريد أن يزج بى فى مأزق، أو هو رجل أحمق شاذ . فليس أدل على ذلك من تبرعه بإطعامى على حسابه وإنقاذى من المعركة التى كانت توشك أن تقع بينى وبين المعلم « عيد » صاحب

(المصمت) .. ثم تطوعه لإعادة المحفظة إلىّ بعد أن أطمأنت فى جيبه واستقر بها المقام .

كيف يريد الرجل أن أتقدم بالنقود إلى الرجل المحسن ؟

إن الرجل يبدو « مستورًا » وليس به من حاجة إلى الإحسان ، ولست أشك فى أن إحسانى إليه سيخدش كرامته ويثير غضبه علىّ .

وعدت أسائل الشحات وأستجوبه :

ـــ أى قول هذا الذى تقول ؟ وأى عمل أحمق تدفعنى إلى فعله ؟ وأى ورطة هذه التى تريد أن تزج بى فيها ؟

وتوقف الرجل ونظر إلىّ نظرة فاحصة . ثم أطرق وأجاب :

ـــ أنت رجل طيب .. وذو مروءة حقًا .. وحرام أن تذهب مروءتك أدراج الرياح .. سألقنك درسًا تنتفع به وسأحيطك بما لم تحط به علمًا .. هيا بنا ؟

ـــ إلى أين ؟!

ـــ إلى المجمع .

ـــ المجمع اللغوى ؟!

ـــ لا .. إلى مجمع الشحاذين .. سأدفع بك بين الكواليس لتبصرهم عن قرب .. سأريك هؤلاء الذين استدروا دمعك على خشبة المسرح وأطلعك على خفاياهم .. حتى تعرف بعد ذلك كيف توجه مروءتك ، وإين تلقى بإحسانك ومعروفك .

وسرت والشحات الأكبر قاصدين مجمع الشحاذين .. وظل الرجل يدفعنى من زقاق إلى زقاق ، ومن جحر إلى جحر بين أكداس القمامة والعفونة حتى دلف فى النهاية إلى حارة مسدودة قد شاعت فى أركانها ظلمة حالكة، ثم توقف أمام باب فى نهايتها وطرق الباب بعكازه .. و لم تمض لحظة حتى فتح الباب وأطلت منه عجوز شمطاء سوداء عجفاء لم تكد ترانى حتى بدا عليها الدهش ورفعت حاجبها الأشيب متسائلة عمن أكون .

وأشار لها صاحبى مطمئنًا مفهمًا إياها أنى لست بذى خطر .. وأنى رجل طيب « على نياتى » .. وأنى ضيف عنده .

ودخلنا فى ممر مظلم ، وعرفنى الشحات بالعجوز قائلا :

ــ الحاجة نودق (بفتح الدال) رئيسة المجمع .. وشيخة الشحاذين .

وسمعت العجوز ترحب بى قائلة بصوتها الرفيع من خلال فكيها المتداعيين :

ــ أهلا وسهلا .

وانتهى بنا الممر الضيق الذى اجتزناه إلى حجرة رحبة تسلل إليها الضوء من خلال نوافذ عالية ذات قضبان حديدية كنت ألمح أقدامًا تمر بها من آن لآخر .. فأدركت أن الحجرة هى بدروم يعلوه أحد الأزقة .

وبدت لى الحجرة أشبه بحجرات النوادى الرياضية التى يستعملها اللاعبون فى خلع ملابسهم .. مع فارق القذارة المتناهية .

كانت أرض الحجرة غير مبلطة ولا مسفلتة ، بل أرض طبيعية قد فرش عليها هنا وهناك بعض زكايب وحصر.. أغلب الظن أنها تستعمل للنوم، ووضعت بجوار الحائط بعض الدكك والمقاعد الخشبية المتداعية ، ودق فى الحائط مشاجب ومسامير علقت عليها ملابس قديمة وأربطة قذرة ، وفى ركن من أركان الحجرة وضع جردل ماء وبجواره قلة . وعلى أحد الجدران علقت مرآة مكسورة سوداء ، وفى وسط الحجرة قامت بضعة دواليب وصناديق .

وتلفت حولى فلم أجد فى كل ما رأيت شيئًا يستحق المشاهدة أو يستحق ذلك المشوار الذى قطعته مع الرجل بين الأزقة والحوارى .. وقلبت الطرف بين صاحبى وبين مظاهر الفقر المدقع القائمة حولى وسألته فى استياء :

ــ أهذا كل ما تريد أن ترينى إياه ؟.. هل هذا هو ما تود أن تحيطنى به علمًا ؟

أهذا هو الدرس الذى ستعلمنى به كيف أوجه مروءتى !؟ أهذه هى الكواليس التى تحدثت عنها ؟! لا .. لا .. إنى لن أستمع إليك ، وسأعطى « نودَق » كل ما لدىّ من النقود لتفك بها ضيقها .. وضيق « الغلابة » الذين

يعيشون معها .

— صبرًا .. ولا تكن أحمق عجولا .

وكانت « نودق » قد اختفت عن أعيننا فى أحد السراديب فرفع الرجل عقيرته مناديًا :

— نودق .. فكينى .

ودهشت بعض الشيء ، ولم أفهم معنى قول الرجل « فكينى » !!

فقد كان مطلق السراح ليس هناك ما يقيده .. وأخذت أخمن كيف تنوى المرأة أن تفكه . .

وأخيرًا حضرت العجوز ، وتناولت من الرجل عكازه وأخذت تساعده على نزع « الهلاهيل » التى كسا بها جسده .. وهنا فقط عرفت ماذا عنى بقوله : « فكينى ».

أجل لقد أخذت العجوز فى فكه .. ولم تمض فترة قصيرة حتى وجدت الرجل واقفًا على قدميه سليم الذراعين .

كان الرجل قد شد ذراعه على جسده بشدة وثنى ساقه من الركبة بطريقة لا أظن أى بهلوان يستطيع أن يفعلها ثم شدها إلى فخذه بالأربطة بحيث لم يعد يشك الناظر إليه فى أنه مقطوع الذراع والساق .

ونظر الشحات وقد وقف سليما معافى وقال باسمًا :

— ما رأيك ؟... هذا بعض ما وراء الكواليس .

ثم نظر إلى باب الحجرة وأردف قائلا :

— وهذه عينة أخرى مما وراء الكواليس .

ونظرت إلى حيث أشار فوجدت امرأة ضريرة قد أقبلت علينا يقودها طفل يكاد يكون عارى الجسد ، لا يستر جسده سوى قميص ممزق قذر ، وبدا على الاثنين أبلغ آيات البؤس والتعاسة .

ووصلت إلينا تحية المرأة :

— العواف .

وأجبناها فى نفس واحد :

— الله يعافيك .

ولم أر الله يستجيب دعاء بمثل ما استجاب دعاءنا هذه المرة .. إذا لم تمض لحظة .. حتى كانت المرأة قد عوفيت ... وأضحت عيناها الضريرتان — كالفناجيل — ولم يتطلب فتحهما من الحاجة سوى كوز مياه من الجردل الملقى فى آخر الغرفة أزالت به آثار النشا الذى ألصق به جفنا المرأة .

ودخل علينا رجل بعد ذلك .. يحمل على كتفه حجرًا ويتقدم به إلى الحجرة وهو شبه عار ، وهمست للشحات :

— إيه حكاية الحجر ؟

— يضرب به صدره .

— ولِمَ ؟

— هى طريقة قديمة .. ولكنه تعوّدها .. فقد ورثها عن أبيه ، وكل ما عليه هو أن يسير فى الطرقات فيرفع الحجر بين يديه ، ويهوى به على صدره ، قائلا : يا عشاق النبى .. وعلى المحسنين من عشاق النبى .. الباق .

وهكذا توالت علينا العينات المختلفة من جميع أصناف الشحاتين .. ذوى العاهات المتقنة الصنع .. ما بين عرج وعمى وعور وكساح وخرس وجنون .

وسحبنى الرجل من يدى إلى حجرة أخرى أنبأنى أنها مخصصة لدراسة فن الشحاذة .. لأن على كل شحاذ أن يحفظ ما يناسبه من أقوال وأفعال .

وكانت الحجرة مشغولة ببضعة شحاذين يتلقون محاضرة عن الشحاذة فى رمضان .

ووجدتهم يكررون مع المحاضر « من فطر صايم له أجر دايم عند الله » وأنبأنى الشحات أن لديهم مؤلفين لتأليف أغانى التسول ، وملحنين لوضع الألحان لها .

وأكد لى أن المسألة ليست سهلة كما أظن .. بل إنه يستطيع أن يجزم أن التسول

هو الشيء الوحيد الذى يقوم فى مصر على أساس متين لا ارتجال فيه .. وأنه من أنجح المشروعات المصرية كافة .

ودلف بى بعد ذلك إلى حجرة المخزن المليئة بجميع الأنواع التى يحصل عليها الشحاذون عن طريق التسول من كسرات خبز وملابس قديمة وأطعمة ، وأفهمنى أن لديهم هيئة مسئولة عن بيع هذه الأشياء .

وانتقلت بعد ذلك إلى حجرة أخرى فهمت منه أنها بمثابة روضة أطفال يتولون فيها تدريب الأطفال على المهنة .

وظل الرجل ينتقل بى من غرفة إلى غرفة وهو يشرح لى كل ما يتعلق بمجمع الشحاذين حتى عدنا إلى الحجرة الأولى ، وطلب منى الجلوس على أحد المقاعد وجلس أمامى مفترشًا الأرض وسألنى وهو يفرك كفيه :

— ما رأيك ؟

— شيء عجيب !! لم يكن يخطر لى على بال قط .

— أما زلت تعتبر المروءة هى تفريق النقود على الشحاذين ؟

— لا .. لا أظن .. إن من الخطأ أن نسميهم شحاذين لأنهم شركة مساهمة .

وأطرقت وأخذت أفكر ثم سألته بعد برهة :

— إذًا كيف يستطيع الإنسان أن يفعل المروءة ؟

— يفعلها فيمن يستحقها .

— ومن الذى يستحقها ؟

— كثيرون .

— اضرب لى مثلا .

— ذلك الرجل الذى شاهدته يمد يده بالإحسان إلى الشحاذ الذى منعتك عنه .

— أهذا يستحق المروءة ؟

— أجل .

ــ وكيف ؟.. كيف يستحق المروءة ، وهو يحسن إلى غيره ؟! ألم يكن من الخير لو وفر إحسانه ليستعين به لنفسه !

ــ صدقت .. ولكنه لا يستطيع .. لأنه تعود الإحسان .. لأن الرجل الكريم المحسن لا يمكن أن يمتنع عن كرمه وإحسانه .. مهما أخنى عليه الدهر .. هذا الرجل كان من كبار التجار ، رجل تقى ورع يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة .

وهب له الله بسطة فى العيش ووفرة فى النعم .. وأغدق عليه من زينة الحياة الدنيا ــ المال والبنين ــ الشيء الكثير . وكان مثلا لامرئ قرير العين ناعم البال تفيض نفسه بشكر الله وحمده .

واستمرت الأقدار تصعد بالرجل إلى أوج سعادته .. تجارة رابحة وثروة واسعة وأبناء ناجحون وأحفاد يلتفون حوله يغدقون عليه من بسماتهم وضحكاتهم ما يقر به عينًا .

ومرة واحدة بدأ الرجل يهبط من القمة .. قمة السعادة .. وإذا بالقدر قد تخلى عنه وتركه يهوى إلى حضيض الشقاء .

كيف ؟.

لقد بدأ الأمر بأن توفى زوج ابنته .. وترك ابنته وأولاده بلا عائل ولا مال .. وحمد الرجل ربه ــ الذى لا يحمد على مكروه سواه ــ أن وهب له بسطة فى الرزق حتى يستطيع أن يتكفل بابنته وأولادها بعد أن توفى زوجها وقرر أن يبذل جهده لتعويض ابنته الثكلى وأحفاده اليتامى عن أبيهم وعلى أن يضمهم تحت كنفه .

وهكذا أصيب الرجل أول ما أصيب فى ابنته ، ولكنه تلقى الإصابة فى ثبات وتصبر وتجلد فما فزع وما جزع .. أما الإصابة الثانية التى وجهها إليه القدر فقد كانت فى ابنه الأصغر .. إبراهيم المهندس .

ماذا حدث له ؟

لقد جن !! خانته امرأته ــ بنت الحلال ــ فقتلها ثم جن .

وهكذا زاد العبء على الرجل .. فضم أولاد ابنه الذين قتلت أمهم وجن أبوهم إلى أولاد ابنته اليتامى وأصبح عليه أن يعول الأولاد الستة وابنته وابنه الذى أضحى نزيل مستشفى المجاذيب .

تلك كانت هى الإصابة الثانية .. لقد حطمت أعصاب الرجل وهدت قواه ، إذ لم يكن من السهل على مثله وهو الرجل الهادئ الطيب أن يرى نفسه وقد أحيط بتلك الزوابع العاتية .. خيانة زوجية .. وقتل .. وجنون ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يقاوم ويتجلد ويتمالك ، وحمد الله .. وماذا يملك مثله من درع لتلقى الخطوب سوى حمد الله ، والإيمان به ..

أما الإصابة الثالثة .. فقد كانت فى ابنه الأكبر .. محمود الدكتور .

مات ؟!!!

لا لم يمت .

إن القدر لم يترفق به إلى هذا الحد .

إن الموت لمثله نعمة ، والقدر قد أصر على أن يسترد كل نعمة .. فكيف ينعم على الابن بالموت ؟

أصيب الدكتور بداء الصدر .. التهاب فى الرئة .. ماء فى الرئه .. صديد فى الرئة .. تلفت الرئة ورقد المسكين طريح الفراش بلا حول ولا قوة وقد التف حوله أم باكية ، وأبناء « زغب الحواصل لا ماء ولا شجر ».

رقد الابن طريح الفراش .. ينهش الداء صدره وتمزق العلة رئتيه ، وطال به الأمر ، وهو كما هو .. مضنى عليل .. لا يشفى فيريح أو يموت فيستريح .

رقد الابن ، وحوله زوجة كالأرملة وأبناء كاليتامى .. لا مال ، ولا عمل ، ولا عائل ولا معين إلا الأب .. والله.واستعان الأب بالله .. وبدأ يفيق من هول الصدمة ، وهو يبكى على ابنه الحبيب بدمع العين ودمع القلب ، وتحامل على نفسه ، وحمد الله .. لأنه وهب له المال يستطيع أن يعول به ابنه المريض وأحفاده المساكين .

لقد تلقى الرجل إصابات القدر الثلاث !

وحمد الله أن ماله يكفى لإعانة أولاده الستة وأحفاده التسعة ، لأنه هيأ لهم منه خير عائل ومعين .

وكأنما ساء القدر أن يصمد الرجل لضرباته .. فتحفز واستعد .. ثم أطلق الرابعة .. فأفلس الرجل وضاعت تجارته وأضحي هو والاثنا عشر المساكين .. بلا عائل ولا معين .

ماذا فعل ؟!! لا شيء . لا شيء أبدًا . لقد حمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه !!

وصمت الرجل ، واستطعت أن أكبت دمعتين همتا بأن تفلتا من عينى ، وقلت متسائلا :

ــ وكيف يعيش الرجل وأبناؤه التعسون ؟

ــ ذل بعد عز .. وضيق بعد سعة .. يعيشون على فضل الله .. هبة من هنا ومن هناك ، وبيع لكل ما كانوا يملكون من بقايا النعيم .

لقد باعوا الدور ، والأثاث ، والملابس .

ومع كل ذلك ، فما انقطع الرجل عن مد يده بالإحسان إلى كل شحاذ يراه .. ترى من أحق بالإحسان أهو أم الشحاذ ؟

ولم أجب فما كانت بى من حاجة إلى الإجابة ، ونظر إلىّ الرجل وهمس :

ــ ما رأيك ؟ ألم أحطك بما لم تحط به علمًا ؟

ــ إى والله .. لقد أحطتنى علمًا بالشىء الكثير .

ثم صمت برهة ، وأردفت قائلا :

ــ هل تستطيع أن تدلنى على بيت هذا الرجل المسكين .. حتى أذهب وأعينه ببعض المال ؟

ــ ولِمَ هذا الرجل بالذات ؟

لقد ذكرته لك على سبيل المثال .

إن هناك الملايين ، ممن يستحقون العون ، ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال .. أولئك الذين فقدوا كل شيء .. إلا ماء وجوههم .. والذين أضاعوا كل ما يملكون .. إلا كرامتهم .

أولئك الذين يستحقون أن تهب لهم من مروءتك .. كل ما استطعت ، وتعطيهم من إحسانك فيضًا غزيرًا .

وأؤكد لك أنك لن تجد صعوبة فى البحث عنهم ، فهم تحت بصرك .. وملء يديك .

وصمت الرجل قليلا ، ثم سألنى :

ـــ أليس عندكم خدم ؟

ـــ عندنا طفلة صغيرة وصبى يتيم .

ـــ هذان وأمثالهما يستحقان منك الكثير من المروءة ، هذه الطفلة التى انتزعت من أمها لتقوم بخدمتكم لقاء بعض الدراهم لتعين بها ذويها على العيش .

كيف تعاملونها ؟.. كيف تطعمونها ؟. هل تعاملونها كما تعاملون أبناءكم ؟ هل تطعمونها كما تطعمونهم ؟

أبدًا والله !!

هل تذكرون أنها فى حاجة إلى الراحة ، وإلى الرفق ، وإلى التدليل ، والحنان .. كغيرها من الأطفال .. أم أنتم لا تؤمنون بشيء سوى أنها آلة تقضى لكم حوائجكم ، وتؤدى لكم ما تطلبون .

هذا مثل بسيط ، ومثل آخر ..

أليس لكم أقرباء فقراء .. أخنى عليهم الدهر ؟

هل تودونهم وتبرونهم .. وتعطونهم مما أعطاكم الله ، وحرمهم إياه ؟

يا سيدى .. أؤكد لك أنك لو بحثت حولك ، لوجدت الكثيرين ممن يستحقون المروءة ، ولا يمدون يدهم للسؤال .

الكثير ممن عضهم الفقر والدهر بنابه ، فلم يجسروا حتى أن يقولوا « آه »..

بل طووا آلامهم فى صدورهم ، وصبروا ، وتجلدوا . حتى يحفظوا ماء وجوههم .

وأمعنت الفكر .. فأدركت مبلغ ما فى قول الرجل .. من حقيقة .

ومرّ بذهنى الكثير ممن أذكرهم من المحتاجين الصامتين ، الصابرين المتجلدين .. الذين يصيبهم الله ، فيحمدون الله .

ونهضت من مجلسى .. فنهض الرجل ، وشددت على يده شاكرًا ، وطلبت منه أن يسمح لى بالذهاب حتى أوجه مروءتى إلى حيث يجب أن توجه إليه .. وأحسن إلى أولئك الذين أرشدنى إليهم .

ووصلنا إلى الباب ، ووقف الرجل يودعنى قائلا :

ــ مع السلامة . هل معك نقود كافية للإحسان والمروءة ؟

ــ أجل .. المحفظة مليانة .

ــ ليس المهم أن تكون المحفظة مليانة .

ــ ما المهم إذن ؟

ــ المهم أن تكون معك ..!!

ومددت يدى أتحسس المحفظة .. وأخذت أنقل يدى بين الجيوب دون أن أجد لها آثرًا .

وللمرة الثانية يمد الرجل يده فى صدره ، فيخرجها ويدفعها إلىّ قائلا :

ــ لا مؤاخذة .. « يموت النشال وصباعه يلعب » إنها غية قديمة .. فلقد كنت نشالا قبل أن أمتهن الشحاذة .. إن الشحاذة آمن عاقبة وأوفر ربحًا ، ومع ذلك .. فإن أصابعى دائمًا ــ تأكلنى على النشل ــ لا مؤاخذة .

وأمسكت بالمحفظة ، فدسستها فى جيبى ، ووجدت الرجل يمد يده إلىّ بالخمسة والعشرين قرشًا التى أعطيتها إياه وهو يقول :

ــ وهذه أيضًا .. خذها .. فأنت أولى بها ما دمت تنوى أن تحسن بها ، فهى حلال لك .. أعطنى قرشًا فقط .

وسألته ضاحكًا :

— ولِمَ ؟

— حتى لا أكون قد أضعت وقتى معك سدى .. وحتى أكون قد نجحت معك كشحاذ .

ومددت يدى إليه بالقرش ثم ودعته وانصرفت فى طريقى أنقب فى ذهنى عن بعض أولئك الذين يستحقون المروءة ممن ذكر لى الرجل أمثلتهم .

(٩)

أهل الخداع

إن الثمار فى هذا البلد تجف وتذوى .. بلا تكاثر ولا تناسل .. أما الأشواك فقد بارك الله فيها فملأت ربوع الأرض .. إن المسألة تحتاج إلى قانون ينظمها .. فهى ليست مسألة أفراد ، بل مسألة أمة .

سرت فى طريقى ، وأنا أنقب فى ذهنى عن بعض من أستطيع أن أوجه إليهم مروءتى ممن يستحقونها حقًا .. بعض أولئك الذين لا تذهب مروءتى فيهم أدراج الرياح .. أولئك المنكوبين الصامتين .. الذين لا يجرءون على طلب العون .. إلا من الله .

وكان أول من تذكرت رجلا يمت لنا بصلة قرابة بعيدة .. لست أستطيع تحديدها بالضبط .. ولكن أغلب الظن أن أباه هو ابن خال أمرأة عم أبى .. أو شيئًا من هذا القبيل .

كان الرجل أول من خطر لى ، وأنا أستعرض أصحاب البلايا والمصائب ، لقد قفز الرجل فى رأسى ليصبح لى : هأنذا .. منكوب صامت ، ومصاب مستتر .. « أعطنى من مروءتك .. وهب لى من فضلك وإحسانك ».

كان الرجل المسكين .. مصابًا بداء .. النسل والذرية ، وعلة البنين والبنات !!

لا تتعجلوا فتبدوا دهشتكم .. وتسائلونى : هل النسل داء .. والذرية علة ؟

وأنا معكم .. « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ».. ولكن ما رأيكم فى بنين بلا مال ؟ ببنين « حاف » ؟.. هل تظنونهم للحياة الدنيا زينة .. أم أنها مصاب وبلاء ؟

والمصاب الأعظم .. هو أن بين المال والبنين تنافرًا شديدًا إذ قلّ أن يلتقيا عند امرئ واحد .. ولو حاولنا أن نضع لهما قانونًا من قوانين الطبيعة لما كان أكثر من أن يتناسب مال الإنسان تناسبًا عكسيًا مع ما لديه من بنين »

فهذا المليونير العجوز لم ينجب بنين قط .. وهذا أنجب بنتًا واحدة .. والثالث عاش عزبًا فلم يتزوج . أما حنكورة والمعلم حنفى ، والشيخ أبو سريع ، فلدى كل منهم دستة من البنين والبنات .

ولست أشك فى أن هذا الأمر هو إحدى العلل الكثيرة التى رزئ بها هذا البلد .. وهو تكاثر البلد من الناحية السفلى .. وتضخمها فى الجزء البائس التعس .. فهى أشبه بنبات تتوالد أشواكه .. ويجف ثمره .

إن الثمار فى هذا البلد تجف وتذوى .. بلا تكاثر ولا تزاوج ولا تناسل ، أما الأشواك فقد بارك الله فيها فملأت ربوع الأرض . إن المسألة تحتاج إلى قانون ينظمها .. فهى ليست مسألة أفراد ، بل مسألة أمة .

إننا نجد الطبقة « المبسوطة » أو أهل النعمة .. إما أن يحجم أفرادها عن الزواج .. أو يتزوجوا ، ثم يحددوا من نسلهم .

أما الطبقة التعسة أو أهل البؤس والفاقة .. فيأبون إلا الزواج « مثنى وثلاث ورباع » دون أن يخشوا قط ألا يعدلوا .. أما الذرية فهى عندهم كالنمل وربنا يرزق .. أو لا يرزق .

وهكذا يضيع البلد بين أنانية أهل المال والنعمة .. الذين يأبون أن يتزوجوا أو يتناسلوا ليريحوا أنفسهم ويقوها شر المسئولية .. وبين جهل أهل الفقر والشقاء المتوالدين كالذباب ليستزيدوا أنفسهم فقرًا وشقاء .

لا بد من قانون لتنظيم هذه الأوضاع .. إن حرمة التناسل ليست من حق الأفراد ، بل من حق الأمة .. فالأبناء أبناء الوطن قبل أن يكونوا أبناء آبائهم .

أى منطق هذا الذى يقول إن رجلا كالأستاذ « فكرى أباظة » أو الأستاذ « التابعى » أو غيرهما من أهل الفكر .. يعيشون حياتهم عزابًا ، ثم يذهبون بلا ذرية ولا بنين .. فى الوقت الذى ينسل فيه عكشة ، وجرجير ، وجراده — ممن لا يكادون يجدون ما يقيمون به أودهم — عشرات الأبناء ؟!

قد يقول قائل : من يدريك !

إن ابن عكشة الزبال .. قد يكون على مر الأيام خيرًا من ابن « فكرى أباظة » . وإنه « قد يخلق من ظهر العالم فاسد . ومن ظهر الفاسد عالم ».. وإن فلانًا من العظماء كان أبوه إسكافيًا .. وفلانًا من الوزراء ، كان أبوه حوذيًا .

وقد يكون فى ذلك القول شىء من الصحة .. ولكنه لا يمكن أن يتخذ قاعدة .. وأن نحاول تبعًا لذلك أن نكثر من أبناء الإسكافية والحوذية ، لأن أحدهما أنجب لنا عظيمًا ، والآخر أنجب وزيرًا .. لأنه بجانب هذا العظيم ، وذاك الوزير ، قد أنجبوا لنا الملايين من التعسين والأشقياء الذين تتكون منهم العمد التى أقيم عليها صرح الفقر والمرض والجهل عالى الذرا متين البنيان .

ماذا علينا لو استبدلنا بأبناء عكشة الاثنى عشر .. أربعة لعكشة ، وأربعة « للتابعى » ، وأربعة « لفكرى أباظة » أليس ذلك خيرًا للأمة ولعكشة ، وللتابعى ، ولفكرى أباظة ؟

سنرفع عبء الاثنى عشر .. من فوق « عكشة » فنوزعه على الثلاثة بالتساوى .. فيستطيع « عكشة » أن يربى أولاده الأربعة خيرًا مما كان سيربى الاثنى عشر .. ويستطيع فى حدوده أن يجعل منهم أبناء مفيدين للوطن فلا يتشرد منهم واحد أو يجوع آخر .. أو ينوء هو بعبئهم . أما الآخران فلا شك فى أن كلا منهما يستطيع أن يجعل من أبنائه الأربعة خيرًا من أبناء عكشة .. فالثقافة متوفرة والمادة متوفرة .. ولدى كل منهما من الوسائل ما يستطيع أن ينتج للأمة أربعة من

خيرة الأبناء .. ولا شك أيضًا أن الأبناء أو على الأقل بعض الأبناء سيرثون عن أبيهم شيئًا من ذكائه ونبوغه .

وهكذا يتضح وجوب سن قانون للزواج وتنظيم النسل . فلا تترك المسألة هكذا « سبهللة » فيعقم النسل الصالح (ونقصد بالعقم .. العقم المقصود .. أما العقم الطبيعى فلا حيلة لنا فيه) ، وتملأ الأرض بالذرية التى لا يعرف أصحابها كيف يطعمونها ؟

كان الرجل الذى مر بذهنى مصابًا بداء النسل ، أو مصابًا بعشرة أولاد فقط لا غير .

ليس بالرجل من داء سوى ذلك .. لم يكن به مرض خبيث ولا فقر مدقع .. لم يكن به شىء سوى وفرة الأولاد ، ولولا ذلك لما مر بذهنى قط ، ولما صح أن أدخله فى زمرة من يستحقون مروءتى .

لو كان الرجل عزبًا .. أو لو عقمت امرأته فلم تنجب له أولادًا أو ترفقت به فأنجبت له واحدًا أو اثنين أو ثلاثة .. لما صح أن نسميه منكوبًا أو مصابًا .. ولما فكرت فى أن أتوجه إليه لأمد له يد العون .

إن مصاب الرجل هم أولاده ، ولست أعنى بذلك أنهم أولاد فاسدون ، ولو كانوا فاسدين لخف المصاب وهانت العلة ، ولكنهم — مع الأسف — كلهم ناجحون ، وهذا هو سر النكبة ؟

تسألون كيف ؟ كيف يكون الأولاد الفالحون الناجحون سبب نكبة على أبيهم ؟ المسألة بسيطة .. بسيطة جدًا .. إننا فى مصر .. ومصر كما لو تعلمون بلد العجائب .. وعلى ذلك فليس بكثير أن يكون الأبناء الفالحون نكبة على أبيهم ؟

إن الرجل موظف عادى .. درجة سادسة أو سابعة .. لا أذكر .. موظف من آلاف الموظفين السائرين فى الركب الحكومى . ليس بمحسوب ولا قريب ولا نسيب ، وليس له ما يهئ دفعة من الدفعات التى تقفز به أمام الصفوف ، وليس له من يتهمه بالذكاء والغيرة على مصلحة العمل ، ويطلب له ترقية

استثنائية .. فهو والحال كذلك .. موظف طبيعى .. أى « منسى غلبان » وهو رجل طيب هادئ قنوع .. تزوج كغيره من عباد الله .. فأتم نصف دينه .. ثم بدأ ينجب الأولاد من بنين وبنات .. الواحد تلو الآخر .. تاركًا المسألة على طبيعتها .. دون أن يخطر له قط .. أن يحاول الحد من النسل .. لأنه متدين وهو يعتقد أن ذلك ليس من شأنه ، بل من شأن الله .. وأن عليه أن يقوم بواجبه كزوج ، وعلى الله الباقى .

وهكذا زادت الذرية .. وازدادت المصروفات ، والدخل ثابت لا مزيد فيه ، والماهية كما يقولون « هيه .. هيه » والرجل ـــ مهما بلغ من ضآلة مرتبه ـــ يعتبر نفسه موظفًا ، ولا بد أن يعلم بنيه وأن يدخلهم المدارس .

وأدخل الرجل أبناءه المدارس الواحد تلو الآخر .. وبدت المسألة فى أول الأمر هينة ، واستطاع الرجل أن يقوم بعبء الأولاد من أكل ولبس وتعليم .. ولكن الأولاد ـــ مع الأسف الشديد ـــ كانوا فالحين ، فنجحوا فى المدارس وانتقلوا من الابتدائى إلى الثانوى .. وزادت المصروفات ، وأخذت المسألة تصبح عسيرة معقدة ، فلا هو بقادر على حمل العبء ولا هو بمستطيع أن يحرم الأولاد من التعليم .. وخاصة أنهم فالحون ناجحون .

وبدأ يسعى فى المجانية .. ولكن وزارة المعارف الكريمة .. لا تغدق كرمها إلا على ذوى السلطان .. وذوى الجاه .. أو على من يستطيع التمسح بعتباتهم ، أو من له صلة بكبار رجالها وذوى الشأن فيها .. والرجل المسكين لا يتوافر فيه أى شرط من هذه الشروط التى تراها الوزارة الرشيدة واجبة للمجانية بصرف النظر عن الفقر والحاجة .

وتطورت حياة الرجل بالتدريج .. فأضحت مشكلة معقدة ، وأصبح الرجل منكوبًا نكبة طبيعية .. لا افتعال فيها ولا عنف .. كل ذلك والأولاد ما زالوا يتسربون بلا توقف ، والرجل كالتائه .. لا يعرف بالضبط الخطأ الذى ارتكبه ، حتى أوصله إلى تلك الحالة من الفقر والحاجة .. واضطر الرجل أن يخرج أكبر

أبنائه من المدارس ليعمل ببضعة قروش تعاونه على سد حاجته ، ولكن الابن استطاع بفضل ما أصيب به من فلاح ونجاح أن يستذكر فى الدار وأن يحصل على شهادة الدراسة الثانوية بتفوّق ، فجلب بذلك على أبيه نكبة كبرى .. فقد كره الرجل أن يقف عقبة فى طريق ابنه ، وعزم أن يدخله الجامعة .. وفعلا أدخله وبدأ يقطع من قوته وقوت أبنائه ليدفع المصروفات .. ونجح فى دفع بعض الأقساط ، ولكن انتهى به الأمر فى النهاية إلى العجز التام .. وأصبح ابنه الناجح الفالح مهددًا بالطرد .

والرجل المسكين حائر .. فهو مصاب ، وغير مصاب !! وهو فى أشد الحاجة لمليم واحد ، فلا أحد يحسن إليه .. ولا هو يستطيع أن يمد يده للسؤال .. لأنه أفندى موظف ، وإن كنت لا أشك أنه ليس به من سمات الموظفين غير الهيئة الظاهرة ، أعنى البدلة والطربوش والكرافتة .. أما ما عدا ذلك فإن أبا أس شحاذ خير منه .

ترى من أحق من الرجل بمروءتى ؟

هل هناك طريق لفعل المروءة خير من أن أعينه ببعض المال الذى يستطيع به أن يعين ابنه على أن يتمم دراسته .. ويستطيع هو أن يفك به ضيقه ويزيل كربته ؟

واستقر بى الرأى على أن أذهب رأسًا إلى بيت الرجل وأحسست برضاء تام عما انتهيت إليه .

وكان الرجل يقطن فى بيت القاضى بالقرب من سيدنا الحسين .. فاتجهت لأركب ترامًا يذهب بى إلى العتبة ثم أركب بعد ذلك إلى الأزهر وأتمشى إلى بيت الرجل .

ومرت بى بضع عربات الترام كان من العبث أن أحاول ركوب إحداها ، اللهم إلا إذا استطعت تسلق أعمدة الترام وامتطاء ظهره كما فعل بعض الصبية .

ومر بى الوقت وأنا واقف مكانى . وأخيرًا لم أجد بداً من أن أحشر جسدى على سلم إحدى العربات .. بعد أن استطعت أن أجد موطئًا لقدم واحد ..

وأستمرت قدمي الأخرى معلقة فى الهواء .. و لم أكن أخشى السقوط ، فقد كان جسدى مضغوطًا كالسردين بين بقية أجسام الركاب .

وظل الترام يتهادى من محطة إلى أخرى ، وأنا على حالتى تلك من الشعلقة حتى وصلنا أخيرًا إلى العتبة .

وشققت طريقى بين باعة الجرائد وإبر بوابير الجاز .. واللبان والشكولاتة ومساحى الأحذية .. ووصلت إلى ترام الأزهر وجلست على أحد المقاعد منتظرًا أن يتحرك الترام ..

وهنا لمحت أحد الشحاذين يقبل علىّ ، وقد بدت عليه مظاهر البلاهة ، ولم يكن يرتدى سوى سروال ممزق يكاد يستر عورته وأخذ يصيح لى مدعيًا الخرس ـ ا .ا .ا ـ وهو يشير إلى فمه بأصبعه محاولا إفهامى أنه جائع .

و لم أتمالك نفسى من الابتسام .. وأحسست كأن الرجل ليس غريبًا عنى.. بل كأننا أصدقاء .. بين أحدنا والآخر معرفة قديمة .

واستمر الرجل يقول :

ـ .. ا .. ا .. ا ..

ووجدت نفسى أجيب :

ـ أهلا .. أهلا .

ولكن الرجل استمر على تجاهلى وادعائه البلاهة .. فعدت أساله :

ـ ازاى الشغل ؟

وأحسست أن الرجل قد بدأ ينظر إلى بعين فاحصة حذرة ، فاستمررت فى قولى :

ـ الحاجة نودق ترجوك ألا تتأخر .

وهنا فغر الرجل فاه وتملكه دهش شديد .. وكف عن « التهتهة » واقترب منى حتى كاد يلصق فمه القذر بأذنى وسألنى هامسًا :

ـ أنت تعرفها ؟

— طبعًا هى والشحات ، وسنية العمشاء .. و ..

— ولكننى لم أبصرك قبل الآن ؟

— لقد انضممت حديثًا إلى المجمع .

وهنا دوت زمارة « الكمسارى » فأسرع الرجل متباعدًا . ناظرًا إلىّ نظرته إلى زميل ، وبدأ يهاجم زبونًا آخر .. بصياحه :ـــ ا .. ا .. ا ..

ووقف بى الترام فى النهاية عند الأزهر ، وسرت فى الشارع متخذًا طريقى بين زرافات الناس وعربات الباعة ، وقد تعالت من حولى النداءات المختلفة الملحنة ، ووصل إلى سمعى منها نداء بائع المشمش كأنه أغنية جميلة : « المشمش استوى وطاب وطلب الأكال يا حموى يا نايح ».. ثم رنين طاسات بائع العرقسوس كأنها تقاسيم القانون يتخللها صوت البائع مناديًا فى ثقة « خمير شفا » وقد وقف مائلا بنصفه الأعلى واتكأت قدرة العرقسوس على جنبه معلقة فى كتفه بسير جلدى ، ووضع فى فوهتها قطعة مستطيلة من الثلج ، وحول وسطه قد شد وعاء نحاسيًا وضع فيه الأكواب الزجاجية ، وتدلى من الوعاء إبريق صغير بالماء لـغسل الأكواب .

وأغرانى منظر القدرة والثلج ورنين الطاسات بأن « أبل ريقى » بكوب من العرقسوس .. فاقتربت من الرجل وطلبت منه كوبًا ووقفت أتأمله بجلبابه الأبيض ، وقد شد حول وسطه الفوطة الحمراء المخططة ، وشاعت فى أساريره علامات الرضا والمرح ، وكأنه من رنين الطاسات فى عرس دائم وطـرب مستمر .

ورفعت الكوب إلى فمى ، وقد علته الرغوة وتندى خارجه بقطرات الماء من فرط التثليج .. وأحسست ، وأنا أجرع العرقسوس بكثير من المتعة كأنى أجرع كأسًا من الشمبانيا ، أو كأن جو الطرب والمرح الذى يحيط به الرجل نفسه قد سرى إلىّ فملأ نفسى بالرضا .. وشعرت أن الله لا ينسى عبده ، وأنه قد يحمل قدرة العرقسوس من اللذة ما لا يحمله دنان الشمبانيا .

ولم أكد أعطى الرجل ثمن الكوب حتى لمحت على مقربة منه عربة يد محملة بالموز ، وقد رفع صاحبها عقيرته بالنداء .. فى صخب وضجيج .. طالبًا من الناس أن يلحقوا أنفسهم قبل أن « يشطب » .

وهنا خطر لى أن الواجب يحتم علىّ بألا أدخل بيت الرجل « وإيدى فاضية » وأن بضع أقات من الموز سيكون لها وقع طيب .. فلا شك أن أولاده .. محرومون من الفاكهة .. ولا أظن دخله الضيق يتيح له أن يفرق الموز على الصغار المساكين .

واقتربت من بائع الموز ، وقد وقف أمام عربته ، ولسانه لا يكف عن الصياح والضجيج كأن به جنة .. « يا بلاش بخمسة صاغ الأقة يا موز » .. « نبيع بلاش يا ناس » .. « يا عالم بنص التمن » . « الحق نفسك قبل ما يجبر ».

وأسرعت إلى الرجل لألحق نفسى قبل ما يجبر !!

كيف لا ؟. وهو يبيع بنصف الثمن .. يبيع أقة الموز التى ثمنها عشرة قروش بخمسة فقط .

ولم تكن لدىّ فكرة حقيقية عن ثمن أقة الموز .. لا لأنى لا آكل الموز بل لأنى لا أشتريه .. فأنا أجده فى البيت « مشترى » جاهزًا ، فهم يحذروننى فى البيت أن أحاول شراء أى شىء قط ، لما عهدوه فىّ من « خيابة » و « غشومية » ، والظاهر أنهم لم يظلمونى بتهمتهم لأننى غشيم فعلا ، فما أذكر أنى اشتريت شيئًا إلا وكان إما فاسدًا أو بضعف الثمن ، وما زلت أذكر حتى الآن التين الحامض ، والتفاح المعطوب ، وغيره وغيره .. مما اشتريته ، وكان نصيبه الاستقرار فى صفيحة الزبالة بدلا من بطوننا .

ومن ذلك الحين ، وقد استقر بى الرأى على أن أقبل نصيحتهم وألا أحاول أن أبتاع شيئًا قط .. بل أعطيهم النقود وأترك لهم عملية الشراء .

ولكنى وجدت نفسى فى هذه اللحظة مجبرًا على أن أقوم بعملية الشراء بنفسى .. مجبرًا على أن أتقدم إلى الرجل وأفاصله فى الثمن وأفحص جيدًا عينة

الموز ، وأتأكد أنه ليس به شيء فاسد .

ووقفت أمام العربة .. وداخلني الاطمئنان .. من ذلك الضجيج الذى يحدثه الرجل ، ومن أقواله التى يعلنها صائحًا « إنه يبيع بلاش ».. وقلت لنفسى : إن خمسة قروش لا شك ثمن زهيد جدًا لأقة الموز .. وأنه لا يمكن لإنسان شراؤها بأقل من ذلك .

وألقيت على الرجل التحية :

ــ السلام عليكم .

فلم يجبنى الرجل ، إذ حال صراخه وصياحه ونداؤه على الناس أن يلحقوا أنفسهم دون سماع تحيتى ، فلم أجد بدًا من الصياح بصوت عال صارخًا فيه :

ــ بكام الأقة ؟

ونظر إلىّ الرجل بطرف عينه ، وقد تجهم وجهه :

ــ بنقول بخمسة .. بنبيع بالخسارة .. والله حرام .

وساءنى أن يبيع الرجل بخسارة .. وكرهت لنفسى .. أنا صاحب المروءة الذى أنوى أن أحسن بما أشتريه منه أن أتسبب للمسكين فى خسارة بضعة قروش ، وتبين لى من عبوس وجهه وتجهمه أنه صادق فى قوله .

وكان الرجل قد عاود صراخه وصياحه .. فصحت به حتى يسمعنى :

ــ بستة .. تبيع بستة ؟

وصمت الرجل ونظر إلىّ فى دهش ، وقال لى متسائلا :

ــ إيه ده اللى بستة ؟

ــ الأقة .. أقة الموز .

ــ قلت لك بخمسة .

ــ لأ بستة .

ونظر إلىّ الرجل نظرته إلى مخبول ، فأردفت قائلا شارحًا وجهة نظرى :

ــ حرام تخسر .

ـــ نعمل إيه .. أكل العيش عايز كده . مرة نخسر ومرة نكسب .

ولكننى أصررت على أن أشترى بستة .. وأن أتيح للرجل « مرة تكسب » بعد طول خسارة .

وبدأت أفحص الموز جيدًا .. حتى لا يخدعنى الرجل فيعطينى موزًا معطوبًا يخجلنى أمام الأولاد وأبيهم .. ووجدت الموز الموضوع على العربة من نوع سليم ليس كثيرًا أن تدفع فى أقته ستة قروش .. بل لقد وجدته فى الواقع لقطة .. إلى حد أنى قررت أن أعود للبائع بعد زيارتى للرجل فأبتاع منه بضع أقات للبيت حتى أطلعهم على مبلغ مهارتى فى الشراء .

وقلت للرجل : زن لى خمس أقات .

وتناول قرطاسًا من بين كوم من القراطيس موضوعة أسفل العربة وجاهزة للتعبئة ، وبدأ يعبئ فيه الموز ، وهو مستمر فى صياحه :

ـــ يا بلاش .. بنبيع بلاش يا ناس .. بنص الثمن يا موز .. يا خسارة الموز .. راح بلاش .

وكلما أمعن الرجل فى الصياح .. كلما أحسست له بالرثاء والعطف ... ولما سيحدث له من خسارة .. وازداد بى تأنيب الضمير .. وأخيرًا لم أعد أحتمل فصحت به :

ـــ خليها بسبعة .

ووضع الرجل القرطاس فى الميزان .. ونظر إلىّ كأنه لا يصدق أذنيه ، وقال مستفسرًا :

ـــ بسبعة ؟! سبعة قروش صاغ .

ـــ أى نعم .. حرام عليك تخسر كل هذه الخسارة !

وأمن الرجل على قولى بهزة من رأسه ، وإن كنت علمت من نظراته أنه يعتقد أنى مخبول معتوه .. ثم مد يده بالقرطاس وتساءل ببساطة ، وهو ينظر إلىّ بطرف عينيه :

ـــ تحب نخليها بثمانية .. ولا إيه رأيك ؟

فأجبته فى حماسة :

ـــ لا مانع أبدًا ؟

وحملت القرطاس ومددت يدى إلى الرجل بالأربعين قرشًا ثمن خمس الأقات ، وسرت فى طريقى ، وهو يشيعنى بنظرة دهش ، ويهز رأسه ، وكأنه يقول : « لله فى خلقه شئون » .

وتركت شارع الأزهر وعبرت السكة الجديدة متجهًا إلى « سيدنا الحسين ».. مارًا فى طريقى بعشرات الشحاذين من ذوى العاهات والأقذار .. الذين لم يستطع واحد منهم أن يستدر منى قطرة عطف .. بعد ذلك الدرس الذى تلقيته فى مجمع الشحاتين من صاحبى الشحات والحاجة نودَق .

سرت فى طريقى لا آبه لأحد من أولئك الشحاذين حتى استوقفنى صوت يصيح بلهجة توسل :

ـــ يا بيه .. يا سيدنا الافندى .

ووقفت لأرى المنادى . وكنت أسير إذ ذاك على الرصيف المقابل لسيدنا الحسين ، وتلفت حولى .. فوجدت المنادى رجلا ريفيًا قد جلس القرفصاء وبجواره امرأة ريفية تدلى ثوبها الأسود فغطى الأرض من حولها .. ولفت رأسها بشال أسود .. وأمامها وضع سبت متوسط الحجم ملىء بالبيض ، وفوق البيض زوج من الحمام .

وكان منظرها يؤكد للناظر أنهما قد أتيا من الريف توًا .. وكأنى بهما يعرضان على الناس نموذجًا للسذاجة الريفية .

واقتربت منهما وسألت الرجل عما يريد ، فأجاب فى كثير من الخجل والمسكنة :

ـــ عدم المؤاخذة يا بيه .. احنا جايين من البلد علشان نزور الحسين وبادوبك وصلنا .. وامد إيدى أدوّر على المحفظة لقيتها ضاعت باللى فيها .. انسرقت ..

وقعت .. خدها ابن الحلال .. الله أعلم .. ومحتارين يا سيدنا الافندى نعمل إيه .. بس لو كان معانا أجرة السفر .

وفهمت من الرجل ما يريد . ولم تكن هى المرة الأولى أن يطلب منى أمثاله أجرة السفر ، فقد كانت إحدى طرق الشحاذة والخداع المعروفة .. وقد حدث أن أعطيت أحدهم أجرة السفر ثم مررت به بعد ساعات فتقدم إلىّ يعيد نفس « المونولوج » .

وهممت بأن أقول للرجل « على الله » ولكنى وجدته يردف قائلا :

ـــ يا سيدى البيه .. احنا مش وش شحاته . وربنا ما يحكم علينا أبدًا .. أنا مش عايز منك إحسان . أنا معايا سبت بيض وجوز حمام جايبينه معانا من البلد ، تعملش معروف تشتريه مننا .. وتدينا تمنه أجرة السفر .. ربنا يعمر بيتك .

وهنا قطع علىّ الرجل كل الوساوس .. ولم يبق مجال فى أن أشك أنه شحاذ محتال .. فالرجل لا يريد إحسانًا بل يعرض صفقة للبيع .. يريد أن يعطى البيض ويأخذ نقودًا .. فهو رجل ساذج قد أتى وامرأته لزيارة الحسين فوقع فى يد نشال محتال سلبهما نقودهما .. والرجل لا يريد أكثر من أن يستبدل بالبيض والحمام نقودًا تمكنه من العودة إلى بلده والفوز من زيارة الحسين بالإياب ..

وخطر لى خاطر ملأنى طربًا .. إنى أستطيع أن أضرب عصفورين بحجر .

ماذا علىّ لو ابتعت من الرجل البيض والحمام فأنقذته من ورطته ، ثم حملت السبت بما فيه إلى بيت صاحبى المسكين مع ما أحمله من الموز فتكون هدية تقر بها عينه وعين امرأته وأولاده ، وتفك ضيقهم .

برافو .. هذا توفيق من الله ، إن الأعمال بالنيات .. وهكذا يفتحها الله فى وجه كل صاحب مروءة وذى فضل .

وسألت الرجل عن ثمن البيض والحمام ، فأجابنى بأنه لا يريد أكثر من أجرة السفر ، وهى سبعون قرشًا .. مع أن السبت بما فيه لا يقل ثمنه عن مائة قرش .

ومددت يدى فى المحفظة فأخرجت للرجل جنيهًا ثم أعطيته له قائلا :

— هذا ثمن البيض والحمام .

ثم أخرجت سبعين قرشًا وناولتها إياه قائلا :

— وهذه أجرة السفر .. مبسوط ؟

وحاول الرجل أن يعيد إلىّ الجنيه قائلا : إنه لا يريد إحسانًا ، ولكنى أجبرته على أن يأخذه .

ومددت يدى لأحمل السبت ، ولكن شيطان الشك وسوس فى نفسى فجأة قائلا : إيها الأحمق .. من يدريك أن الرجل يخدعك ، وأنه محتال يتظاهر بالبراءة . وأن البيض تآلف « ممشش » .

وترددت برهة .. من يدرينى حقًا ؟!

وبدت علىّ الحيرة .. وأخذت أنقل البصر بين سبت البيض ووجه الرجل .. فوجدت وجه الرجل ينم عن منتهى الطيبة والسذاجة . وخيل إلىّ أنى أظلمه بشكوكى ، وقلت لوسواس الشك : إن الرجل طيب مسكين لا يبدو عليه قط أنه محتال .

ولكن هاتف الشك أجابنى مغيظًا :

— أيها الأبله .. إنك أنت الطيب المسكين .. والله لقد صدق أهلك حين حذروك أن تحاول الشراء .. إن البيض ممشش . إن الرجل يخدعك .

ولم أجد خيرًا من أسكت هاتف الشك .. وأثبت له أن الرجل طيب مسكين .. فقلت للرجل وأنا أتناول السبت من يده .

— أوعى يكون البيض ممشش ؟

— ممشش ؟! أستغفر الله .

وبدا الألم على وجه الرجل .. وسرعان ما مد السبت وتناول بيضة وأسرع بكسرها وأرانى إياها رفعها إلى فمه وابتلعها وقال :

— يا سيدنا الافندى .. ده بيض طازه من تحت الفراخ هو احنا لا سمح الله حا ناكل بيض ممشش .

ثم مد يده ، وتناول بيضة أخرى وشربها قائلا :

ــ وادى واحده كان .. يا بيه دا على المكسر .

وهنا لم أجد بدًا من الاعتذار للرجل عن سوء ظنى ، وتناولت سبت البيض وقد وضعت فوقه الحمامتين، وودعت الرجل وانصرفت .

ولكنى لم أكد أتقدم بضع خطوات حتى وجدت إحدى الحمامتين قد قفزت من السبت ، وأخذت تتواثب أمامى .. ثم أعقبتها الحمامة الأخرى .

وأسقط فى يدى و لم أدر كيف أتصرف ؟ أأترك سبت البيض والموز على الرصيف وأعدو وراء الحمام .. أم أترك الحمام ينطلق هاربًا ؟

وكرهت أن أترك الحمام يفر ، وخشيت كذلك إن أنا تركت البيض والموز أن أعود فلا أجدهما ، وأخيرًا لم أجد خيرًا من أن أعدو وراء الحمام حاملا السبت وقرطاس الموز .

وهكذا بدأت أتبع الحمام وأنا أصيح بالناس أن يعاونونى على الإمساك به ؛ و لم تمض لحظة حتى كان الشارع كله قد تكأكأ وراء الحمامتين ، وأخذ الناس يعدون ويتصايحون .. وازداد الهرج والمرج والضجيج والعجيج ، وقلب الشارع إلى شبه مظاهرة .

وسأل أحدهم آخر عن سبب الازدحام فأخبره :

ــ لازم حرامى .

وسرى بين الناس أن المطارد حرامى .. وسرعان ما انقلب الصياح إلى .. حرامى .. حرامى .

ووجدت نفسى بين أفواج الناس المتصايحين والمتصاخبين .. وقد انقطعت كل صلة لى بالحمامتين ، و لم يعد لى أى أمل فى لقائهما ، فلم أجد خيرًا من أن أولى وجهى شطر بيت الرجل ، وعفا الله عن الحمامتين الهاربتين .

وصلت إلى البيت أخيرًا .. وقد تصبب منى العرق وتصلبت ذراعاى من قرطاس الموز وسبت البيض ، ووضعت السبت على الأرض وقرعت الباب

وسمعت صوتًا نسائيًا يجيبنى :

ــ مين ؟

فاجبت الإجابة الطبيعية :

ــ أنا .

فعاد الصوت يسأل :

ــ انت مين ؟

و لم أر فائدة من أن أقول ــ أنا مين ــ لأنى واثق أنهم لن يعرفونى من مجرد ذكر اسمى .. فزيارة مثلى لا تخطر لهم قط على بال .. وأجبت على سؤال المرأة بسؤالى :

ــ محمد افندى موجود ؟

ــ أيوه .

ثم سمعت الصوت يصيح :

ــ يا سى محمد .. يا سى محمد .. واحد عايزك .

كل ذلك والباب لم يفتح بعد ، ثم انفتح الباب فبدا لى من ورائه طابور من البنين والبنات يتطلعون بأبصارهم محملقين فى وجهى .. ثم لمحت « سى محمد » يظهر من وراء الطابور . وأطل علىّ برأسه وقد بدا عليه دهش شديد ، ثم صاح مرحبًا بى وهو فاغر فاه :

ــ أهلا وسهلا .. اتفضل .

وبدا عليه فجأة ارتباك شديد ورأيته يهرول إلى الداخل و لم يصعب علىّ أن أدرك سر ارتباكه فقد كان يرتدى أحد قمصان امرأته .

وأدخلنى الصبية إلى حجرة ــ المسافرين ــ وهى بضعة مقاعد لاكيه متداعية من بقايا الجهاز وقد توسطت الحجرة مرتبة فرشت على الأرض .. وأسرع أحد الصبية بطيها وحملها خارج الحجرة .

وبعد لحظة أقبل الرجل وقد ارتدى كامل ثيابه .. و لم أشك عند ذاك أنه

يتشارك وامرأته ثياب المنزل ، وأن جلاليبه من قمصانها .

وانهالت عليّ من فم الرجل عبارات الترحيب .. وهو يسترق النظر بين آونة وأخرى إلى القرطاس وسبت البيض . وبعد لحظة أقبلت امرأته وبدأت تشاركه في الترحيب بي .. وفي استراق النظر إلى السبت والقرطاس .

وانتهزت فرصة لحظة خفت فيها ألفاظ الترحيب .. فدفعت للمرأة بالقرطاس والسبت وقلت في لهجة متواضعة :

ـــ دول للولاد يا ست زكية .

ـــ وليه يا خويا التعب ده .. حقا ما لكش حق .

ولمحت رءوس الأولاد تطل من الباب وقد أرهفت السمع والبصر .

وبدأنا الدردشة .. فأخذت أقص عليهم قصة البيض والحمامتين الهاربتين ، ولكنى لم أكد أبدأ في وصف الرجل الريفي والمرأة ، حتى وجدت الست « زكية » تفغر فاها .. تضرب بيدها على صدرها وتصيح بي :

ـــ يا ندامة .. هم عملوها فيك انت راخر .. هو احنا موعودين ؟

وسألتها في دهش :

ـــ مين هّم اللى عملوها فّى ؟

ـــ النصابين الغشاشين . قالوا لك عايزين أجرة السفر ؟

ـــ أيوه .

ـــ تمام .. زى ما قالوا لسى محمد .. وخد منهم سبت البيض والحمامتين وفاكر أنه جاب لقطة .. وطلع البيض كله ممشش .

وضحكت في ثقة .. ونظرت إلى المرأة نظرة الاطمئنان وقلت لها :

ـــ ما حدش يضحك عليّ أبدًا أنا اشتريته على المكسر .. كسر الرجل أمامي بيضتين .. زى المشمش وشربهم .

ـــ دانت اللى شربتهم .. دول البيضتين الوحيدتين اللى مش ممششين في السبت كله .. ياريته ما شربهم ! كنا استنفعنا بيهم .

ولم أصدق المرأة .. فقد تناول الرجل البيضتين أمامى من وسط البيض ولم تكن بهما أية علامة مميزة . وطلبت من المرأة أن تحضر طبقًا لكى أثبت لها أن البيض سليم .

ولم تحضر المرأة طبقًا بل أحضرت .. حلة كبيرة .. وبدأت فى تكسير البيض . وكسرنا كل ما فى السبت فلم نجد به واحدة سليمة .

وسألتنى المرأة فى حسرة :

ـــ والحمام طار ؟

فأطرقت برأسى فى خجل شديد وقلت :

ـــ أيوه .

ـــ تمام .. زى ما حصل مع سى محمد .. زمان الحمامتين قاعدين دلوقت فوق سبت تانى .

وهنا أدركت الخديعة وعلمت أن الرجل الريفى وامرأته والحمامتان يكونون عصابة لبيع البيض الممشش . والحمامتان مدربتان على الجلوس على البيض حتى تتم الصفقة ثم تقفزان من السبت وتعودان إلى الرجل مرة أخرى ، لتقوما بالدور المطلوب .

وملأنى خجل شديد وأحسست أنى كنت أحمق معتوهًا .. لقد خدعنى رجل ريفى وامرأة ساذجة وحمامتان !

ونظرت إلى قرطاس الموز فوجدت فيه بعض العزاء .. وقلت للمرأة :

ـــ معلهش .. حصل خير .. خلى الأولاد ياكلوا موز . وقامت الست « زكية » فأحضرت صينية .. وبدأت فى تفريغ الموز فإذا بالقرطاس الكبير ـــ عزائى الوحيد ـــ لا يحمل من الموز إلا ما يقرب من أقة ، قد وضعت على سطح القرطاس .. أما الأربع أقات الباقية .. فقد كانت عصيدة موز .. أو خليطًا من موز مخبوص تالف وحجارة وزلط وأشياء مما ثقل وزنها وخف ثمنها .. أشياء لا علاقة لها قط بالموز .

يا للرجل المحتال النصاب .. لشد ما خدعني وسخر مني وهزأ بي .. لقد كان القرطاس محشوًا بهذه القمامة .. و لم يفعل هو أكثر من أن غطاه ببضع أصابع من الموز السليم .. وهكذا أخذت الأقة بأربعين قرشًا .. يا بلاش .

وأحسست أن العرق يقطر مني .. وأصابني من الخجل ما لم يصبني في حياتي من قبل .. ووجدتني أنقل البصر بين الرجل والمرأة وحلة البيض الممشش وصينية الموز وهمست لنفسي :

ــ ليس الذنب ذنبي .. إنه ذنب الذي سكب النفاق والغش والخديعة في النهر .. ماذا يفعل ذو مروءة بين أهل الخداع في أرض النفاق ؟

(١٠)

جنون المروءة

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .
كيف تحزنون على شيء . وأنتم لا شيء ؟
فيم حزنكم .. وبعد لحظة أو لحظات ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟
أيها الناس ، لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم أنفسكم ضائعون .. كيف يحزن ضائع على ضائع ؟.. وهالك على هالك ؟.. وزائل على زائل ؟..

جلست أمام الرجل وامرأته وقد تملكنى خجل شديد . وأحسست أنه ليس على وجه الأرض من هو أشد منى خيبة وأكثر غفلة .. وحز فى نفسى أن أجد أول دفعة من دفعات مروءتى تذهب بددًا .. بفضل بلاهتى ولؤم أهل الغش والخداع .

وتذكرت المثل الذى عودتنى والدتى أن تلقانى به عندما أدخل عليها بهدية تافهة وهو ــ ياما جاب الغراب لأمه ــ ووجدت أنى ما استحققت ذلك المثل كما أستحقه فى هذه اللحظة .

ولم تكن فجيعتى فى مجرد حزنى على النقود التى ذهبت سدى ، أو فى غيظى من أن أكون صيدًا سهلا وأحمق مأفونًا مخدوعًا يضحك عليه بائع جاهل وريفى ساذج وحمامتان بريئتان ، بل كانت فجيعتى فى إحساسى بأننى قد سببت للرجل

المسكين فجيعة .. وأن إحسانى إليه قد قلب إساءة ، ومحاولتى إسعاده قد جلبت له الشقاء . فقد لوحت له بهدية براقة خاوية فزدته وأولاده وامرأته حرمانًا فوق حرمان .. ونكبته فى سبت بيض وأربع أقات موز ، فهو لا شك يشعر أنه هو المخدوع الخاسر وأن المال الضائع ماله .. وأنه — لولا خيبتى — تمتع وأهله بالبيض والحمام والموز .. ولوفر على نفسه طعام يومين .

و لم أشك فى أن المرأة وأولادها يلعنوننى فى سرِّهم .. وأنهم يعتبرون زيارتى مصابًا حل بهم .

ومضت برهة والسكون سائد والصمت مخيم .. وصينية الموز التالف .. وحلة البيض الممشش .. قد تمددتا أمامنا كأنهما « قتيل ».. وعلامات الحزن قد كست وجوهنا كأننا فى محزنة .

وأخيرًا تنهد الرجل وقال فى صوت خافت ونبرات ممدودة :

— وحدوه .

فعلت أصواتنا تتبعه قائلة :

— لا إله إلا الله .

وبدأت أعود لنفسى ملقيًا عن كاهلى عبء ذلك الحزن الذى بعثته فى الخديعة التى أصبت بها .. مقنعًا نفسى بأن — قضا أخف من قضا — ولقد كانت تلك هى خير وسيلة أستعين بها على طرد ما ينتابنى من الحزن أو الندم أو الضيق وأجعل بها نفسى فى حالة رضاء تام .. فما نزل بى من مصاب إلا ورأيت فيه خيرًا مما كان يمكن أن يكون .

ما أحمق الإنسان ! يجعل من حياته سلسلة مسببات للحزن . يحزن لأوهى الأسباب وأتفه العلات .. فى دنيا ليس بها ما يستحق الحزن .. إنسان تافه فى دنيا تافهة .. يحزن المرء لأن بقعة حبر قد سقطت على ثوبه الأبيض فأتلفته ، ولو تذكر عندما أصابه الحزن على ثوبه أنه ليس أسهل من أن يطوى هو وثوبه الأبيض تحت عجلات الترام ، ليغرق ثوبه بالحبر وهو هانئ سعيد .

يحزن المرء لأنه غلب فى صفقة وأن البائع قد خدعه فى بضعة قروش ، ولو علم أن جرثومة صغيرة قد تسلبه عشرات الجنيهات لكى ينجو من مرضها لما أحزنته قروشه الضائعة .

يحزن المرء إذا فقد متعة من المتع ، ولو درى أنه فى غمضة عين قد يفقد نفسه .. لما أسف على متعة زالت .

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .

كيف تحزنون على شيء ، وأنتم لا شيء ، فيم حزنكم وبعد لحظة أو لحظات ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟

أيها الناس لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم أنفسكم ضائعون. كيف يحزن ضائع على ضائع؟ وهالك على هالك ؟. وزائل على زائل ؟

وهكذا لم يكن هناك أسهل علىّ من أن أقنع نفسى بأن « قضا أخف من قضا » وأن أهون الشرور وأخف النكبات هو ما حدث لى .. وحمدت الله على أنى ما زلت سليمًا معافى متمتعًا بكامل صحتى .. وحمدت الله على أنه لم يسقط علىّ بيت و لم تصدمنى عربة أو ترام ، وأقنعت نفسى كذلك بأنه حتى الخديعة لم تصبنى بخسارة كبيرة .. ألا يجوز أن يكون بائع الموز الذى غشنى فى حاجة شديدة إلى النقود التى احتال على أخذها منى !؟ ألا يجوز أن يكون الريفى صاحب البيض سيفك بنقودى ضيقًا ويقضى حاجة !؟ علام حزنى إذا وكل ما فعلت لم يعد أن يكون داخلا فى باب المروءة !

ثم إنى أستطيع أن أعوّض الرجل عن البيض والموز بالنقود فيكون بذلك لم يخسر شيئًا .. بل ربما استطاع أن يبتاع بالنقود أشياء هى ألزم له من البيض والموز .

وهكذا سرى عنى فى لمح البصر و لم يبق علىّ إلا أن أسرى عن الرجل وزوجته ، وأولاده .. وهذا ما لم يكن علىّ بالشيء العسير ، إذ سرعان ما دفعت يدى فى جيبى فأخرجت المحفظة وأشرت للأولاد باسمًا أن اقتربوا .

وأقبل الأولاد فأخذت أنقد كل واحد منهم نصف ريال — على الماشى — طالبًا منهم أن « يشبرقوا » به أنفسهم ، وإن لم يداخلنى شك فى أن الأم ستجمع منهم النقود بمجرد مغادرتى الدار .

وأخذ الصبية النقود عدا واحد منهم بدت عليه مظاهر الخبث ، وجدته يرن القطعة الفضية جيدًا ويعضها بأسنانه فنظرت إليه مستفسرًا :

— مالها ؟

— أخشى أن تكون هى الأخرى ممششة .

وضحكت مقهقهًا .. وأجبته قائلا :

— لا تخف .. إنها القطعة الوحيدة الكويسة .

ومضت برهة وأنا ألاعب الأولاد وأضاحكهم .. حتى انفرجت أسارير الأم والأب ، ولم يعد لدىّ شك فى أن أثر كارثة البيض والموز قد زال تمامًا .

وانصرف الأولاد .. وسادت الحجرة فترة صمت .. لم أشك خلالها فى أن الرجل وامرأته كانا يقدحان زناد أفكارهما لعلهما يتوصلان إلى سبب زيارتى .. وعلة ذلك الكرم الحاتمى الفجائى الذى لا مبرر له .. ترى ما وراء كل ذلك !!

وجمعت أطراف مروءتى ، وبدأت أتجه إلى الغرض رأسًا ، فسألت عن ابنهما الأكبر ، وأجابتنى الأم فى تنهيدة :

— بيذاكر .

— وكيف حاله فى الكلية ؟

— والله يا خويا الجدع عامل اللى عليه .. حا يعمل إيه أكثر من كده ؟ لكن الدور علينا احنا اللى مش قادرين ندفع له المصاريف .

وتنهد الأب وأطرق قائلا :

— حا نعمل إيه .. العين بصيره واليد قصيره .

وأحسست بما فى قول الرجل من مرارة وألم لأنه لا يستطيع أن يتيح لابنه المجتهد الناجح فرصة إتمام دراسته ولأنه يراه يطرد من الكلية لا لإخفاقه بل لعجزه

هو عن أن يدفع المصروفات :

وسألت الرجل مترفقًا :

ـــ وكم يلزمك من نقود لسداد المصروفات ؟

ـــ عشرون جنيهًا .

ووجدتنى أردد فى صوت خافت « عشرون جنيهًا ».

واعجبًا من هذه الدنيا ! عشرون جنيهًا هى ما يلزم الرجل لكى يؤدى بها واجبًا مقدسًا نحو ابنه .. بل واجبًا نحو وطنه .. عشرون جنيهًا هى ما يلزمه لكى يبتاع بها علمًا فى بلد يأبى إلا أن يبيع العلم .. عشرون جنيهًا هى ما يلزمه لكى ينتج للأمة رجلا نافعًا .. ومع ذلك لا يستطيع الحصول عليها .

إن العشرين جنيهًا .. مبلغ كبير بالنسبة لكثيرين غيره ، ولكننا لو بحثنا عما تعنيه العشرون جنيهًا للبعض الآخر ، وعن الوجوه التى يمكن أن يصرفوا فيها العشرين جنيهًا لتملكنا العجب كل العجب .

هذه عشرون جنيهًا تمد بها الحسناء يدها فى كبرياء لتدفعها ثمنًا لحقيبة يد تمسكها يومًا أو بعض يوم ، ثم تضيفها إلى عشرات الحقائب المرصوصة فى الصناديق . رغم أنه ليس هناك أية فائدة لحقائب اليد أو لغيرها من التوافه التى يضيع النساء فيها نقودهن .. أعنى نقود أزواجهن .

وهذه عشرون جنيهًا يدفها آخر ثمنًا لبضع زجاجات من الويسكى يحرق بها جوفه وجوف أصحابه فى سهرتهم البريئة !!

وهذه ـــ ليست فقط عشرون جنيهًا ـــ بل مائة جنيه أى ـــ خمسة عشرينات ـــ يدفعها آخر لراقصة ثمنًا لبضع هزات للخصر والبطن .

وتلك .. مائة عشرين .. أى ألفان من الجنيهات دفعها صاحبها بمنتهى السهولة على مائدة القمار .

ومالنا نذهب بعيدًا .. وآلاف العشرينات تجلس قابعة فى الخزائن تغط فى نومها .. حتى يثوى أصحابها فى أجداثهم ، دون أن يفيدوا منها أية فائدة .

هذه هي العشرون جنيهًا التي يحتاج إليها الرجل لكي يعلم ابنه ، ولكي يمنع الكلية من طرده .. لشد ما عزت عليه وهانت على الآخرين .

واعجبًا !.. من هذه الدنيا ومن متناقضاتها .. أيتساوى فيها تعليم الصبي بحقيبة يد !! أيتساوى مستقبله مع بضع زجاجات من الويسكي ؟ أيفتدى خمسة منه .. بهزّات من الخصر والبطن .. ومائة منه بليلة قمار خاسرة ؟! أيكنز هذا الكهل الأحمق نقوده .. ويطرد الصبية من المدارس لحاجتهم إلى النقود ؟ تلك والله سخرية .. وأية سخرية !!

ولكن ما الفائدة من كل هذا ولو بكينا أمام الحسناء على حد قولهم « من كل عين جفان ».. واستعطفناها أن تتنازل عن الحقيبة وتكتفي بالعشر التي لديها .. في سبيل أن يعود الفتى إلى كليته .. لما كان يصيبنا منها غير نظرات دهش وازدراء واحتقار .. ثم تقلب شفتيها ، وتقول من أنفها : « وأنا مالي ».

ما الفائدة .. ولو سألنا صاحب زجاجات الخمر .. أو صاحب الراقصة . أن يتنازل عن متعة ليلة .. في سبيل إنقاذ مستقبل الفتى .. لكان نصيبنا السب والطرد ؟

ما الفائدة .. ولو قلنا لصاحب الكنوز .. أخرج كنوزك ، ولو حتى لكي — تشم نفسها — لاتهمنا بالجنون .

هذه تمنيات عديمة الجدوى ، وأفكار لن تفيد الرجل بشيء .. إن المهم هو أن أفعل أنا شيئًا ، وأن أعجل بإعطائه النقود لكي يعيد ابنه إلى الكلية .

وتحسست المحفظة فشعرت بالغبطة .. إذ كان بها ما يكفي لمعونة الرجل . كان بها عشرون جنيهًا أخذتها من الدولاب من النقود التي حجزتها للتصييف .

أترى التصييف أهم من مستقبل الفتى ؟! طبعًا لا .. إن زوجتي ستفزع في مبدأ الأمر ، ولكنها بلا شك ستقتنع في النهاية وستشكرني على ما فعلت من مروءة .

وفتحت المحفظة وبدأت أعد ما بها من نقود .. والرجل وامرأته ينظران إليّ في

دهش شديد .. فوجدت بها عشرين جنيهًا ، وبضعة قروش .. فحمدت الله.. إذ كانت القروش تكفى أجر الركوب لعودتى إلى الدار .

ومددت يدى إلى الرجل بالنقود وقلت ببساطة ، وقد تملكنى شىء من الحياء :

ـــ هذا المبلغ قد يكون فيه الكفاية لإعادة محمود إلى الكلية .

وارتج على الرجل من فرط الدهش ، وبدا لى كأنه غير مصدق ، ثم قال فى صوت خافت :

ـــ ولكنى أخشى ألا تسمح لى الظروف برده بسرعة ؟

ـــ لا عليك .. لا ضرورة لرده أبدًا .. كان الله فى عونك .

ووجدت الرجل قد اغرورقت عيناه وأطرق برأسه ، ولمحت امرأته ترفع كمها فتمسح به عينيها ، ثم ترفع يديها وعينيها إلى السماء وتهمس فى لهجة ملؤها الإيمان :

ـــ يارب .. يا ما انت كريم يارب .

هل أستطيع أن أصف تلك المتعة التى أحسست بها وقتذاك !

لقد أحسست ـــ من فرط المتعة التى أصابتنى ـــ أن ما فعلته لم يكن من المروءة فى شىء .. إن ما فعلته لا يعدو أن يكون صفقة رابحة .. كل ربح .

لقد دفعت للرجل عشرين جنيهًا .. اشتريت بها من المتعة مالا يقدر بمئات الجنيهات .. لا تظنوا بقولى مبالغة كاتب .. ولا تحسبوه من باب الترويج للفضيلة .. فأنا لا أكره فى حياتى شيئًا كالنصح والوعظ .. وتأكدوا عندما أقول إنى حصلت على متعة تساوى مئات الجنيهات أننى لم أجاوز الواقع .. وأن متعتى كانت أكثر من متعة صاحب الراقصة التى دفع لها مائة جنيه ، أو متعة المقامر الذى دفع مئات الجنيهات .. إن متعة المروءة لا تعادلها متعة ، ولذة الإحسان ومعاونة الغير لا تساويها لذة .. بشرط أن يكون الإنسان واثقًا من أنه قد وضع الفضل فى موضعه .

وتركت المرأة الحجرة ، وقد تهلل وجهها بشرًا وفاضت من نفسها السعادة وأقبل عليّ الرجل يشد يدى .. قائلا :

ـــ كيف أستطيع أن أرد لك الجميل .. إنك لم تعطنى عشرين جنيهًا .. إنك أعطيتنى سعادة ابنى ومستقبله .

وبعد لحظة عادت المرأة ، وقد اصطحبت معها ابنها الأكبر .. محمود .. الذى لم أكن قد رأيته حتى تلك اللحظة .. فقد كان منهمكًا فى الاستذكار ، رغم علمه أن الكلية قد طردتـه.. وأن أباه لا يملك ما يستطيع به إعادته إليها .

وأقبل عليّ الفتى .. نحيل الجسد ، شاحب الوجه .. وتناول يدى فطبع عليها قبلة حارة ملؤها الإخلاص وعرفان الجميل ، وقال فى صوت خافت :

ـــ أشكرك يا سيدى .. هذا دين لن أنساه فى حياتى أبدًا .

ثم جلس الفتى بجوار أبيه ، ومضت فترة سكون .. ملأنى فيها إحساس بالخجل والتواضع ، وأنا لا أكره شيئًا كهذا الإحساس ، فسرعان ما حاولت إخراج نفسى منه قائلا للصبى بصوت ضاحك :

ـــ إذا نجحت بتفوّق فسأتنازل لك عن الدين .. ما رأيك ؟.

ـــ سأتفوّق إن شاء الله .. ولكن لن أنسى الدين .

ـــ هل ستذهب فى الغد إلى الكلية ؟

وكان سؤالى .. لمجرد الحديث .. فما كان لدىّ أقل شك فى أن الفتى سيذهب إلى الكلية ، إذ لم يعد هناك ما يمنعه من الذهاب ، بعد أن حصل أبوه على المصروفات .

ولكنى وجدت وجهه قد علته سحابة هم .. وبدا كأنما قد تذكر فجأة ما أقلقه وأزعجه ، وظهرت عليه علامات الحيرة والتردد وسمعته يهمس إلى أمه فى صوت ملتاع :

ـــ البدلة !

ووجدت الأم تضرب صدرها بيدها وتحملق بعينيها ..ثم تقول فى لهجة يائسة

ـــ آه .. البدلة .

أما الأب فقد أطرق ، ثم قال فى شبه تعزية :

ـــ لا بأس .. البدلة يمكن تدبيرها .

وهززت رأسى مستفسرًا عن جلية الأمر ، فأجابتنى الأم :

ـــ لقد بعنا بدلته الوحيدة التى يذهب بها إلى الكلية إلى بائع الروبابيكيا فى هذا الصباح .. فقد احتجنا إلى نقود .. وكنا قد ضربنا صفحًا عن عودته إلى الكلية .. فبعنا البدلة .. أو الشىء الوحيد الذى لم يعد إليه حاجة .. يا خسارة لقد راحت بنصف الثمن !

ونظرت إلى الفتى فوجدت حجمه لا يختلف كثيرًا عن حجم أبيه فقلت مقترحًا أحد الحلول :

ـــ لا بأس .. يمكنه أن يرتدى بدلة أبيه .. حتى ندبر له بدلة .

وهز أبوه رأسه وتساءل :

ـــ وأنا ؟! كيف أذهب إلى الديوان ؟

وخجلت من نفسى .. فقد أحرجت الرجل .. إذ لم يكن هناك شك فى أن كل ما لديه من ثياب هو بدلة واحدة .

وهنا ظهر تأثير جرعة المروءة ، التأثير الجنونى الحاد .. الذى جعل كل ما فى من صفات قد تضاءل وانكمش إلا شيئًا واحدًا هو المروءة .

لقد نهضت من مقعدى فى سكون .. وبدأت فى خلع الجاكتة ، ثم البنطلون والقميص ، ووقفت أمام الرجل وامرأته وابنه .. بالفانلة واللباس والطربوش والحذاء مادًا يدى إلى الفتى بالبدلة والقميص .

وبهت القوم .. وفغروا من الدهش أفواههم .. لقد كان كل ما فعلته بهم من أنواع المروءة ، رغم ما به من شذوذ وغرابة ـــ شيئًا معقولا .. محتملا .. قد يفعله الإنسان وهو ما زال بعقله .. أما أن تبلغ بى المروءة إلى حد أن أخلع ثيابى وأدفع إليهم بالبدلة تاركًا نفسى بالفانلة واللباس .. فهذا أمر .. لا أظن أن

الإنسان يقدم على فعله .. وهو يتمتع بقواه العقلية .

ونظر إلىّ الرجل وزوجته وابنه فى حذر دون أن يجسر أحد منهم على أن يمد يده ليأخذ البدلة .. وبدأوا يرقبوننى فى ذعر وخشية كما يرقبون ذا جنة !!

ولم أفهم لدهشهم سببًا ؟

أى شيء فيما فعلت يستحق العجب ؟!!

إن الفتى لا بد له من الذهاب إلى الكلية .. ولا بد للذهاب إلى الكلية من بدلة يرتديها .. إذ ليس عنده بدلة .. فقد باعوا بدلته .. وهو لا يستطيع أن يرتدى إحدى بدل أبيه .. لأن أباه لا يملك سوى بدلة واحدة .

أما أنا فلدىّ عدة بدل .. فلم لا أعطيه بدلة يذهب بها إلى الكلية ؟!! هل فى فعلى هذا أمر عجيب ؟

هل تراهم قد دهشوا لأنى خلعت البدلة فى التو والحين وأعطيتها إياهم ؟ ألا يعلمون أن خير البر عاجله ..؟

أم تراهم قد دهشوا لأنى وقفت أمامهم هكذا بالفانلة واللباس ؟.. أجل .. هذا هو لا شك سبب دهشتهم .

ولكنى مع ذلك لا أرى فيه ما يستحق العجب .

ترى أى فارق هناك بين أن أكون بالبدلة .. أو بالفانلة واللباس ، أو حتى عريان ملط ؟

ما هذا الاعتبار الذى يقيمه الإنسان للملابس !!

هل هناك أدل على سخف الإنسان من مسألة الملابس ؟

لقد خلقه الله ، بلا ملابس لأنه لا حاجة به إلى الملابس ، ولو كان به إليها حاجة .. لخلقها الله معه .. كما خلق الفراء للحيوان والريش للطيور .. فيولد الإنسان من بطن أمه وفى قدمه حذاء .. وعلى رأسه طربوش أو برنيطة .. ولكن الله وهو العليم الحكيم .. وجد أنه — كويس كده — .. وأن — كفايه عليه — الجلد والشعر .. اللذين وهبهما له .. فتركه يهبط من بطن أمه عريان ملط ..

فماذا فعل الإنسان الأحمق الغبى ؟.. هل رضى بما خلقه الله عليه ؟.. وهل قنع بحاله كبقية المخلوقات !؟

أبدًا .. إنه لم يرض عن شكله .. الشكل الذى خلقه الله عليه .. وأبى إلا أن يضيف من عنده الحواشى .. ويضع الرتوش .. فغطى رأسه بطربوش أو قبعة زاعمًا أنها تزينه وتقيه لطشة الشمس .. ولست أدرى والله ماذا تفعل الشمس مع سواه من الحيوانات التى لا تغطى رءوسها .. هل تراها تصيبها بلطشة أم أنها لا تخص بلطشها إلا الإنسان ؟!

ثم حشر بعد ذلك بين ساقيه سروالا .. حتى يستر عورته .. ولو تركها عارية .. لما شعر أحد قط أنها عورة .. بل لتساوت مع غيرها من أعضاء الجسم .. ولاعتادها البصر حتى لم تعد تثير أقل اهتمام .. وليس أدل على ذلك .. من أنه كلما ازدادت النساء عريًا كلما قلّ تأثيرهن .

ثم بدأ الإنسان يفتن بعد ذلك ويثقل كاهله بالثياب المختلفة أشكالها وألوانها .. ويخنق نفسه بالياقات والكرافتات .. بلا أى سبب ولا داع ، ويصنع الفراك والأسموكن والاستامبولينا .. وغيرها من السخافات المضحكات ، ويضع على صدره القصب والنياشين .. ويحيط نفسه بالقيود والجلود .. متخيلا أن فى كل هذا التهريج أبهة وعظمة ، موحيًا إلى نفسه .. أن كل هذا يزيده قيمة .

أما الإناث ، فكان الله فى عونهن ، فقد عصبن بطونهن ، وشددن صدورهن ، ومشين على أطراف أصابعهن ، رافعات كعوبهن كأنهن مصلوبات أو مشنوقات ، ملاقيات فى سبيل ملابسهن عذابًا أليمًا يحتملنه بنفس صابرة .

لِمَ كل هذا أيها الإنسان الغبى ؟ لِمَ تضيع عمرك فى أوهام الملابس ؟

تصوّر لو أن أى حيوان .. فعل ما فعلت .. وارتدى من الملابس ما ارتديت ، وصنع لنفسه من ألوان المعاجين والمساحيق والروائح مثل ما صنعت .. ترى كيف كنا نضحك عليه ونستسخفه !؟

وبهذه الأفكار عن الملابس .. وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه .. بالفانلة

واللباس بمنتهى البساطة .. وقد مددت يدى بالبدلة إلى الفتى .

وكان الرجل أول من تكلم فقد استطاع التخلص من دهشه وقال لى :

ـــ لا يا سيدى .. لا .. أوصلت بنا الأنانية إلى حد أن نخرجك من منزلنا عاريًا .. إننا نستطيع أن ندبر أمر البدلة !!

ثم قالت المرأة :

ـــ يا ندامة .. يا عيب الشوم .. نقلعك هدومك !

وهززت رأسى قائلا فى هدوء :

ـــ وماذا فى ذلك .. إن لدىّ بدلا أخرى كثيرة .

وهنا تكلم الفتى لأول مرة ، فقال فى لهجة ملؤها الأدب والاحترام :

ـــ كتر خيرك يا سيدى .. إننا عاجزون عن شكرك .. ولكننا لا نستطيع أن نأخذ بدلتك ونتركك هكذا تخرج عاريًا فى الطريق .. إذا كان لا بد أن تهب لنا البدلة فيمكنك أن تذهب إلى دارك ثم ترسلها لنا مع خادم ، أو أذهب أنا معك لآخذها .

ووجدت قول الفتى أقرب إلى العقل .. بل هذا هو الذى كان يجب فعله .. لولا .. حمو المروءة فى جوفى وإشعاعها فى رأسى .. ولولا أنى كنت فى ذلك الوقت مجنون مروءة .

ولم أقبل قول الفتى .. بل أصررت على أن أعطيه البدلة فى التو .. وألا أغادر دارهم ، إلا وقد فارقت جسدى .

وبدأ القوم يتوسلون إلىّ ويحاولون إقناعى .. وأنا مصر على رأيى .. وأخيرًا لم أجد بدًا من أن ألين معهم قليلا فقلت لهم :

ـــ إذا كنتم تصرون على ألا أخرج من بينكم عاريًا ، فإنى على استعداد لأن أستعير منكم جلبابًا أذهب به إلى البيت ثم أعيده إليكم .

ووافق الرجل إزاء إصرارى .. ولكن سقط فى يده .. وبدت عليه حيرة شديدة .. لم يصعب علىّ أن أدرك سببها !.

إن الرجل ليس لديه جلباب ، فلقد رأيته عند دخولى مرتديًا أحد قمصان زوجته كما سبق لى القول .. فماذا يفعل ؟

ومضت فترة والرجل حائر خجل .. فلم أجد بدًا من أن أهوّن عليه وأخرجه من حيرته فقلت له :

ــ إذا كانت جلاليبك فى الغسيل فهات أى جلباب .. هات القميص الذى كنت ترتديه عند دخولى .. إنه لا بأس به .. فهذا يقضى .

ونهض الرجل ، وهو فى شبه ذهول ، والمرأة وابنها ينظران إلىّ وكأنهما ينظران إلى حيوان غريب .

وبعد برهة أحضر الرجل القميص الحريمى الذى كان يرتديه عند دخولى .

وسرعان ما ارتديت القميص .. ولمحت الفتى يحاول جهده أن يخفى ضحكة تحاول أن تنطلق من صدره .

ونظرت إلى نفسى فى مرآة قديمة بالحجرة .. فوجدت نفسى ــ مش بطال ــ حقيقة أن القميص كان قصيرًا ، يصل إلى ما فوق الركبة ، ويكشف عن الشراب والحمالة .. وحقيقة أن فتحة الصدر كانت ــ مقوّرة ــ جدًا . وأن القميص كان بلا أكمام . إلا أن منظرى ــ على بعضه ــ كان مقبولا .. عدا ذلك الطربوش الذى كان يبدو على رأسى كأنه شىء نشاز .

والواقع أن القميص كان مريحًا جدًا .. إلى الحد الذى جعلنى أصر وقتذاك على ألا أرتدى البدلة قط ، وأن أحاول جهدى حث الناس على مقاطعتها .

وهكذا وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه ، وقد ارتديت قميص النوم والطربوش والحذاء والشراب وحمالة الشراب وبيدى المحفظة لا تحتوى إلا بضعة قروش تمكننى من العودة إلى البيت راكبًا الترام .

ومددت يدى مودعًا القوم ، وقد بدت على وجوههم الحيرة والأسف والذهول ، وخرجنا إلى القاعة ، وهنا سمعت زوبعة من الضحك .. صادرة من بقية الأبناء الذين لم يكونوا قد رأونى بعد وأنا على حالى تلك .

فنهرهم الأب .. وزجرتهم الأم .. وهبطت على السلالم محاطًا بخليط من ألفاظ الترحيب والاعتذار وصدى الضحكات .

وتركت الدار وذلفت إلى الطريق .. وسرت برهة دون أن أحس بأية غرابة .. بل كأنى ارتديت إحدى بدلات التشريفة .

وكان الطريق أمام الدار خاليًا إلا من بضعة أشخاص منهمكين فى أعمالهم .. فلم يثر منظرى فى نفوسهم اهتمامًا .. واستمررت فى السير على هذه الحال حتى وصلت إلى شارع الحسين .. وهنا أحسست أن الناس بدءوا يتغامزون علىّ ويشيرون إلىّ كأنى أعجوبة .. ولكنى لم ألق إليهم بالا .. وسرت فى طريقى دون أن ألتفت يمنة ولا يسرة .

ولكن التغامز زاد .. حتى أضحى ــ تلقيحًا ــ وبدأت النكات تنهال علىّ من الجانبين ، وبدأت أسمع ــ انت يا باشا ــ .. و ــ يا أبو القميص الشفتشى ــ وأخذ الأمر يزداد حرجًا .. وبدأ الصبية يتكأكئون علىّ حتى سقط فى يدى .. ووجدت أنى لا أستطيع أن أواصل السير على هذه الحال .

ولمحت أحد التاكسيات مقبلا فوجدت فيه خير منقذ .. فأشرت إليه وسرعان ما اختفيت فى داخله ، وطلبت من السائق أن ينطلق بى مسرعًا إلى البيت .

وهكذا انطلق بى التاكسى مخترقًا قلب القاهرة ، والسائق ينظر إلىّ فى دهشة بين آونة وأخرى .. وقد تملكته حيرة شديدة من منظرى حتى وصل أخيرًا إلى باب البيت .

وهبطت من التاكسى ، فإذا بى أجد أخى أمامى وجهًا لوجه .

هو نظر إلىّ وفرك عينيه كأنه غير مصدق .. ثم سألنى فى ذهول :

ــ إيه الحكاية ! مالك المرّه دى .. لسه مصاب بالشجاعة !!

وهززت رأسى وقلت مؤكدًا :

ــ لا .. المره دى .. مجنون مروءة !!!

(١١)

بلا نفاق

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة ، وأفاع رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطيهم إحسانًا فاقذف به إليهم ثم اجر من أمامهم .. اعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد الشكر .. انج بنفسك .. واذكر المثل .. اتق شر من أحسنت إليه ..

وقفت بباب الدار مرتديًا قميص النوم الحريمى والطربوش ، وقد أخذ أخى يحملق فى وجهى فى دهشة شديدة .. ويفحصنى ببصره من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل . وطالت به الحملقة ، وهو واقف فى مكانه كالصنم حتى ضقت ذرعًا فصحت به :

ــ ما لك تحملق فى ؟. كأنك لم تر بنى آدم من قبل

وهز أخى رأسه بشدة كأنه يحاول أن يوقظ نفسه .. ثم لمس عينيه بأصبعه ليتأكد من أنه فى حالة يقظة ، ثم نقل بصره بينى وبين سائق التاكسى وسألنى هامسًا :

ــ أسار بك التاكسى فى الشوارع وأنت بحالك هذه ؟

ــ بل لقد سرت أنا بنفسى على قدمى بين الناس بحالى هذه !! ماذا بها ؟ عيب ؟!

ــ أبدًا .. عيب ازاى .. ما عيب إلا العيب .. والعيب من أهل العيب مش

عيب .. من قال إن السير بقميص نوم حريمى فى وسط البلد عيب ؟

وتبينت فى قوله رنة سخرية ، فقلت له مغيظًا :

ـــ أيها الغبى الأحمق .. ماذا يضيرنى أن أسير بقميص النوم أو بسواه ؟ ماذا يمكن أن يغير منى هذا الكساء البالى ؟ إنى أنا هو أنا .. سواء ارتديت قميص نوم .. أم بدلة تشريفة .. أم ملاية لف . هذه مجرد قشور .. لا علاقة لها بجوهر الإنسان .. فاهم ؟

وأطرق أخى ، وقال فى يأس :

ـــ فاهم .

وأشرت إلى التاكسى ، وقلت له آمرًا :

ـــ ادفع أجرة التاكسى .

ودفع أخى أجرة التاكسى ، ودلفت وإياه إلى داخل الدار وسألنى مستفسرًا :

ـــ وأين بدلتك ؟ هل تنوى الدخول عليهم بهذا المنظر ؟

ـــ أما عن البدلة فقد تصدقت بها .. وأما عن سؤالك عما إذا كنت أنوى الدخول عليهم بهذا المنظر .. فإنى لا أجد له معنى .. لأنك ترانى داخلا معك فعلا .. مم تظننى أخشى ؟

هل تجد فيما فعلت جرمًا ؟! إننى رجل صاحب مروءة .. هذا كل ما فى الأمر . فإذا كانت المروءة تهمة يخجل الإنسان من ارتكابها .. فإنى موافقك على أننى مجرم خاطئ .. وأنه يجب أن أخشى عاقبة كل ما فعلت .. وأن أخجل من منظرى هذا .. الذى سببته لى جريمة المروءة .. لا .. لا .. إن منظرى هذا يستحق الفخر .. إنى لا أخشى ..

و لم أتمم حديثى فقد وجدتنى وجهًا لوجه أمام امرأتى .. وقد تطاير من عينيها شرر مخيف .. وبدت كأنه قد ركبها مائة عفريت .. أو كأنها عاصفة على وشك الهبوب .. أو حيوان مفترس سيتحفز للانقضاض علىّ .

وأدهشني غضبها .. وعجبت لتلك الثورة التي توشك أن تلقاني بها .. إذ لم أذكر أنني قد فعلت شيئًا أستحق عليه ذلك الاستقبال الرائع .. وكسوت وجهي بابتسامة هادئة ، وهززت رأسي مستفهمًا :

ـــ إيه الحكاية .. كفى الله الشر ؟

ولكنها لم تجبني ، بل انطلقت منها صيحة كالرعد ، استطعت أن أميز منها :

ـــ كنت فين ؟

ـــ عند محمد أفندى .

ورأيتها تضغط على أسنانها ، وقد زوت ما بين حاجبيها .. ونظرت إليّ نظرة مفترسة ملؤها السخرية والاتهام :

ـــ محمد أفندى ؟.. محمد أفندى دا يبقى مين ؟

ـــ محمد أفندى الباجورى .. ابن ابن خال زوجة عم أمي .

وبدا لى كأن إجابتي زادتها لهيبًا .. وأنه لم يبق سوى سؤال آخر ، ثم تنفجر ، وتملكني من تلك الحالة دهش شديد .. فقد وجدتني أقف أمامها موقف المتهم وأى متهم ؟ متهم بشر أنواع الجرائم التي يمكن أن يفكر فيها إنسان ، واقتربت منها لتهدئتها .. محاولا أن أفهم سر ثورتها .. وسر تلك الأسئلة المحققة التي تلقيها عليّ .

ولكنى لم أكد أقترب منها حتى دفعت يدى بشدة ، ثم انفجرت باكية وارتمت على الأريكة ، ونظرت إلى أخى ، وقد تملكتني الحيرة وسألته :

ـــ ماذا حدث .. هل أصابتها جنة ؟

وأجابني الأخ العزيز في سخرية :

ـــ هى التى أصابتها جنة ؟ سبحان الله !

وأجابتني « حماتى » التى دخلت الحجرة على صوت بكاء ابنتها بنظـرة معناها : « جن لما يلخبطك » .

ثم نظرت إليّ وقد رفعت حاجبها فى دهش شديد :

ــ ودا أصله إيه دا كان ؟

ولم أجبها .. بل أجابتها زوجتي وهي تنشج باكية :

ــ كان عند محمد أفندى .. محمد أفندى ابن خال مرات عم أبوه ، تصدقى الكلام ده يا ماما ؟

وقالت الحماة .. حماها الله :

ــ محمد أفندى دا بيخرج الناس بقمصان نوم حريمى ؟ حقا بطلوا ده .. واسمعوا ده .

وهنا بدأ يتكشف لى الأمر .. وبدا لى أننى متهم بتهمة خطيرة ، فإن قميص النوم الحريمى قد وجه شكوكهم إلى ناحية لم تخطر لى قط على بال .

أجل .. إن امرأتى ظنت أننى لا بد مقبل فى التو من بيت امرأة .. عشيقة أو رفيقة أو من بنات الهوى .

وفعلا بدأت الموجة الغاضبة تفصح عن شكوكها وتدلى بتهمتها :

ــ دى ؟معقولة !! تخرج من بيت محمد أفندى بقميص نوم حريمى !! أنا مش حاستنى معاك ولا ثانية .. اتفضل روح عند اللى كنت عندها .. اللى ادتك قميص النوم بتاعها .

ــ يا شيخة ما يصحش الكلام ده .. عيب .. إهدى شويه وخلينى أشرح لك الحكاية .

ــ حكاية إيه وهباب إيه .. هو انت خليت حكاية . واحدة داخل من بره بقميص نوم حريمى .. عايز إيه أكتر من كده .. أبدًا .. ما اقعدش معاك أبدًا .

ــ يا ستى حلمك .

وهنا تدخلت الحماة العزيزة :

ــ حلمها ازاى ؟! دا انت خليتها خل . دا حتى المثل بيقول .. إذا ابتليتم فاستتروا .. والا لازم تبقى حاجة على البهلى .. هو كل من رافق له واحده .. يقوم يبجى البيت بقميص نومها ؟

وهنا لم أطق صبرًا، وأحسست أنى أوشك أن أجن فعلا وصحت بهم صارخًا :

ـــ يا ناس يا هوه .. حاتجننونى .. رفيقة إيه وبتاع إيه .. هى المروءة دى ما تنفعش أبدًا فى البلد دى .. هو يعنى حرام لما الواحد يعمل مروءة .. ويحسن ببدلته على واحد محتاج .

ونظرت إلىّ امرأتى فى غيظ شديد :

ـــ يحسن ببدلته على واحد محتاج !! طبْ وقميص النوم جبته منين ؟

وأجابتها حماتى متهكمة :

ـــ لازم قميص المحتاج .. أصل محتاجين اليومين دول ما يلبسوش إلا قمصان نوم !!

وقلت أنا ببساطة :

ـــ لا .. دا بتاع أمه !!

وهنا تدخل أخى فأمسك بذراعى وحاول أن يخرجنى إلى حجرتى قائلا :

ـــ يا أخى إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟ محتاج مين اللى ديته بدلتك واداك قميص نوم أمه ؟. يا أخى عيب .. خليك عاقل .. انت جرى لعقلك إيه ؟

ونظرت إلى أخى فى حمق قائلا :

ـــ انت كمان مش مصدق ؟.. لا .. دى حاجة تجنن ..

وبدأت أضرب كفًا بكف مردفًا القول :

ـــ يا ناس .. يا هوه .. هى عجيبه إن الواحد يعمل مروءه فى الزمن ده؟بقى ده جزاى علشان الراجل محمد أفندى الغلبان صعب علىّ .. رحت أساعده بكام جنيه يسدد بهم مصاريف ابنه ؟! ده جزاى علشان إديت الولد بدلتى يروح بيها الكلية !. ده جزاى علشان مرضتش أكسفهم وأخرج عريان وخدت منهم القميص أستر بيه جتتى ؟! سبحان الله ! بقى بعد ده كله يتقال علىّ رجل خباص ومرافق .. اخص عليكم .

ونظرت إلى زوجتى فبد لى أن غضبها قد اشتد .. وأنها لم تفهم من قولى

إلا شيئًا واحدًا هو الذى اخترق أذنها واستقر فى رأسها ليزيدها اشتعالا وهو قولى : « رحت أساعده بكام جنيه يسدد مصاريف ابنه » فقد نظرت إلىّ محملقة وسألتنى :

ـــ انت خدت فلوس من الدولاب ؟

وهززْت رأسى ببساطة وقلت :

ـــ عشرين جنيهًا .

ـــ وضيعتهم ؟!

ـــ اديتهم للراجل الغلبان يفك بيهم ضيقته .. مش أحسن ما نضيعهم احنا فى التصييف .

وهنا بلغ السيل الزبى ، وخيل إلىّ أنها توشك أن تلطم خديها ، وترفع بالصوت .

ووجدت أخى قد بدأ يتدخل تدخلا جديًا ، فاقترب منها ثم همس فى أذنيها ببضع كلمات .. لم أستطع تمييزها .

ووجدت امرأتى قد كفت عن البكاء فجأة .. ونظرت إلىّ نظرة فزع وذعر .

وبدا عليها حذر شديد .. ووجدت « حماتى » تتراجع ببطء متقهقرة بانتظام من الحجرة .

فلم أشك عند ذاك . فيما قاله الأخ لهما .. إنه لا ريب قد عاد إلى اتهامى بالجنون ، ولقد همس فى أذنها مذكرًا إياها بما سبق أن قال لها عن حاله الجنون التى أصابتنى أول مرة عندما طلبت منه أن يذهب ليحضر لى جرعة جبن ، وهو يؤكد لهما الآن أن النوبة قد عاودتنى وأن قميص النوم الذى أرتديه .. لا يمكن أن يكون دليلا على أنى عائد من عند امرأة .. فما من رجل يذهب إلى عشيقته ويعود إلى داره بقميص نومها .

إن المسألة كلها ليست أكثر من حالة جنون .

هذا هو ما همس به الأخ لزوجتى وحماتى ، وهذا هو ما استطعت أن أقرأه فى

عينيهما .. وفى حركاتهما .. وفى مغادرتهما للحجرة فى خوف وحذر .

وأقبل علىّ الأخ وقد كست وجهه ابتسامة مصطنعة .. تمامًا كما يقبل المرء على مجنون يحاول تهدئته .. وأخذه على عقله .

وتذكرت ما فعله بى فى المرة السابقة .. عندما طلبت منه أن يغيثنى من الشجاعة بجرعة جبن ، وكيف خدعنى وغرر بى وأفهمنى أنه سيحضر لى كل ما أطلب ، ثم خرج من الحجرة وأغلق بابها بالمفتاح محاولا حبسى حتى يبلغ مستشفى المجاذيب .. وتذكرت أنه لولا شجاعتى التى دفعتنى إلى القفز من النافذة لكنت الآن نزيل المستشفى .

ولم أشك فى أن الأخ المحترم ينوى الآن أن يكرر معى ما حدث فى المرة السابقة ، وأنه سيوافقنى على ما أقول ، ثم يحاول حبسى بعد ذاك . وسيكون بالطبع أشد حذرًا ، فلا يترك لى فرصة الهرب من النافذة .. وحتى لو ترك لى هذه الفرصة فما أظننى أستطيع الاستفادة منها .. فما دفعنى إلى القفز فى المرة السابقة إلا تلك الشجاعة الطارئة التى كانت بى .. أما هذه المرة فلا أظن المروءة ستجدينى نفعًا فى الهرب من الحبس الذى ينوى الأخ أن يضعنى فيه حتى يبلغ مستشفى المجاذيب .. وعلى ذلك فيجب علىّ أن أكون حذرًا ولا أمكنه من خداعى .. بل أحاول جهدى أن أفر من الدار بأسرع من لمح البصر .

ووجدت أخى يربت على كتفى برفق ويقول محاولا التغرير بى :

ـــ لا تغضب منهم .. فهم معذورون .. لا يفهمون معنى للبر أو المروءة .. إنهم أنانيون لا يقدرون المعروف . نعم ما فعلت فى الرجل وابنه .. إنك إنسان كامل الخلق .

ووجدته يسحبنى من يدى إلى حجرتى . ففهمت ما يقصد . وقلت :

ـــ عن إذنك .. دقيقة واحدة .

وسحبت ذراعى من يده ، واتجهت إلى دورة المياه .. وفتحت باب المطبخ المؤدى إلى سلم الخدم .. ثم هبطت السلم على أطراف أصابعى حتى وصلت إلى

الحديقة ، والأخ ما زال واقفًا فى الحجرة ينتظرنى ويدبر خطة حبسى .

ووصلت إلى الباب وخرجت منه متسللا ، وبعد لحظة احتوانى الطريق مرة أخرى .. ووجدت نفسى حرًا طليقًا . فاندفعت أعدو بأقصى ما أملك من سرعة بالطربوش وقميص النوم الباتستا المقور المشغول بالأچور .

اندفعت فى الطريق أسابق الريح .. والريح — سامحها الله — تندفع داخل القميص فتنفخه وتملؤه بالهواء .. فكأنى أعدو لابسًا باراشوت .. والطربوش قد انكبس على أذنى ، وبدأ العرق ينز من أسفله ، وحمالة الشراب قد سقطت فتدلى الشراب على قدمى وأخذت الحمالة تقرع ساق والأرض .. وأنا لا آبه ولا أتوقف .. فما كنت أفكر إلا فى شىء واحد .. هو الوصول إلى حانوت الأخلاق .

أجل .. إنى لم أعد أحتمل !!

لقد استجرت من الشجاعة بالمروءة . فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار .. إذ أصابتنى المروءة بشر مما أصابتنى به الشجاعة .

صدق تاجر الأخلاق فى كل ما قال .. لقد حذرنى من المروءة فلم أزدجر و لم أرتدع .

اندفعت بين الناس حاملا مروءتى بين جنبى أبحث بينهم عمن يستحق المروءة فأعيانى البحث .. ووجدت أن النفاق والخداع والغش قد حجب حقيقتهم .. حتى استحال علىّ أن أعرف من يستحق ومن لا يستحق .. وأن الطلاء زائف ، والمظهر غرار خداع .. إن الشحاذين أصحاب ثراء .. وأصحاب الثراء شحاذون .. وما من فارق هناك بين مجمع الشحاذين .. ومجمع أصحاب الملايين .

وعثرت على من يستحق المروءة بين أهل الخداع فى أرض النفاق .. فأعطيته مما أعطانى الله ، وعدت إلى الدار قرير العين ناعم البال .. منتظرًا أن أقابل بالإعجاب والتقدير . فماذا كان مصيرى ؟!

لقد اتهمت بأننى خائن أثيم .. و لم ينقذنى من التهمة .. إلا تهمة شر منها هى الخبل والجنون .

لا .. لا .. مالى أنا وللشجاعة والمروءة !؟ مالى أنا ولهذه البلايا والمصائب !! مالى أنا وللبضاعة البائرة .. أجلب بها الشقاء لنفسى ؟! لقد صدق التاجر والله حين قال إنها بضاعة عفى عليها الزمن فلم تعد تلائم أهل هذا الجيل .

وتذكرت صاحبًا لى شديد الطيبة جم المروءة .. جلسنا معًا ذات مرّة فى مجمع من الأصدقاء .. وسمع من أحدهم أنه يحس أحيانًا بضيق فى التنفس وزفير متتابع .. وبرودة فى الأطراف ، وأنه عرض نفسه على بضعة أطباء فأعياهم علاجه .. وهنا تطوّع صاحبى ذو المروءة .. فأنبأ صاحبنا بأنه يعرف قريبًا له كان مصابًا بنفس العلة ، وأنه قد شفى منها تمامًا بفضل أحد الأدوية ، ثم ذكر له اسم الدواء شكره صاحبنا وأنبأه أنه سيحاول تجربته .

وتفرقنا بعد ذلك وذهب كل منا إلى داره .. ونسى صاحبى ذو المروءة كل ما كان من أمر الرجل المريض .. حتى استيقظ فى منتصف الليل على صوت ضجة بالباب وطرق شديد .. ففتح الباب مذعورًا .. فإذا به يجد اثنين من رجال البوليس ، يسألانه هل هو فلان أفندى ؟ فأجابهما بالإيجاب ، فسحباه من عنقه .. وجرّاه إلى النيابة .. فإن الرجل المريض .. قد أعانه الدواء الذى وصفه له .. على الموت ، فمات لساعته .

وحمدت الله أن مروءتى لم تزج بى إلى مثل ذلك المأزق .

من يدرى ؟! ربما لو طال بى الأمر معها .. لفعلت بى شرًا من ذلك .

وهنا كنت قد وصلت إلى حانوت الرجل وقد بلغ بى التعب أشده ، فارتميت على أحد الشوالات وأنا ألهث من فرط التعب وقد تصبب منى العرق .

ونظر إلىّ الرجل وقد انطرحت أمامه كجثة هامدة .. وبدا عليه أنه لم يميزنى لأول وهلة ، فقد علت أساريره دهشة وأخذ يرمقنى بنظرة فاحصة .. محاولا أن يعرف حقيقة موضعى بين الجنسين : الخشن واللطيف .. فما رأى من قبل رجلا

يرتدى قميص نوم بتنتنة.. وما رأى كذلك امرأة ترتدى طربشًا وشرابًا بحمالة وتبدو ساقاها عجفاء كساقى .

وأخيرًا عرفنى الرجل فزادت دهشته وهتف بى :

ـ أنت !!

وأجبته وأنا أخرج من صدرى زفيرًا طويلا :

ـ أجل أنا .

ـ وماذا جعلك على هذه الحال ؟ وفيم ارتداؤك ذلك الثوب النسائى ؟

ـ مروءتك يا سيدى .. هى التى فعلت بى كل هذا .

ـ وكيف ؟ وما دخل المروءة بهذا القميص الذى ترتديه ؟

ـ لقد أحسنت ببدلتى .. ولم يكن لدى القوم شىء أرتديه بدلها .. سوى هذا القميص فارتديته .

ـ آه .. فهمت .. هذه مروءة من النوع الحاد .. أو ما تسميه حمى المروءة .. ماذا فعلت بك أيضًا سوى ذلك ؟

وبدأت أقص كل ما حدث لى منذ تناولت جرعة المروءة ، وكيف وضعت له النقود بين الشوالات ـ وكانت النقود وما زالت فى موضعها لم يمسها الرجل ـ ثم شرحت له مروءتى مع الكلب وكيف عض الأهل واحدًا واحدًا .. وقصصت له قصتى مع الشحات وما رأيته فى مجمع الشحاذين ، ثم ذهابى إلى محمد أفندى وشرائى الموز التالف والبيض الممشش وذهاب الحمامتين .. ثم إحسانى إليه بالبدلة والعشرين جنيهًا ، وعودتى إلى الدار بالقميص ، والعاصفة التى استقبلنى بها الأهل .. وما فعله معى أخى .. ثم فرارى منهم وعودتى إليه .

وانتهيت من قصتى ووجدت الرجل يهز رأسه ويقول :

ـ احمد الله .

ـ علام ؟! وماذا يمكن أن يصيبنى شر من هذا ؟! اللهم إلا إذا كنت تعنى أن أحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

— بل احمد الله لأنه لم يصبك بشر من هذا .. إن للمروءة مصائب شرًا بكثير مما أصبت به .. احمد الله على أنك نجوت بجلدك .

— كيف ؟

— كان يمكن مثلا .. أن تحسن بكل بدلك بدلا من أن تحسن ببدلة واحدة .. أم أنت تعتقد أنه ليس هناك من يستحقون الإحسان سوى ذلك الفتى الذى أحسنت إليه ؟! وكان يمكن أيضًا أن تعطى كل مالك للمحتاجين .. حتى تستحق أنت المروءة .. فلا تجد من يحسن إليك .. بل تجد من أحسنت إليهم بمالك قد تنكروا لك .. بل ربما كانوا أكثر الناس تسابقًا إلى إيذائك والنيل منك . هل تعرف المثل القائل : « اتق شر من أحسنت إليه » إنه مثل صحيح مائة فى المائة .. فإن الناس قد انطووا على الخبث والسفالة والدناءة ، فليس أسهل على البشر من نسيان الإحسان .. وإنكار الفضل .. واعتباره بمضى المدة حقًا لهم وواجبًا عليك نحوهم لا بد لك من تأديته .. فإذا أرغمتك الظروف على منعه عنهم ملأ نفوسهم السخط عليك والتبرم منك .. واتهموك بأنك ظالم قاس .

أجل يا سيدى .. إن شر ما فى النفس البشرية هى أنها تعتاد الفضل من صاحب الفضل ، فلا تعود تحس به فضلا .. بل تراه أمرًا طبيعيًا .. ويدفعها ما جبلت عليه من طمع إلى أن تستزيد منه .. وإلى أن تكون أول من تحسد صاحب الفضل على ما أعطاه الله وحباه .

هذه هى مصيبة المروءة .. بذرة طيبة فى أرض جدباء .. تبذر الحب لتحصد الشوك .. وتطعم الفم فيعضك الفم ويمتص منك دماءك التى يستكثرها عليك ويستخسرها فيك !

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة وأفاع رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطيهم إحسانًا فاقذف به إليهم ثم اجر من أمامهم .. أعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد الشكر .. انج بنفسك . واذكر المثل .. اتق شر من أحسنت إليه .

وصمت الرجل .. وفكرت فيما قال ، فوجدته لم يعد جـادة الحق .. وذكرت ذلك الرجل الطيب الكريم الذى دفعت الظروف فى طريقه بامرأة خاطئة قد حملت سفاحًا .. فبكت على قدميه وتوسلت إليه أن يعطيها إحسانًا يعينها على الحياة هى وطفلها .. فرقّ قلب الرجل ، وأعطى المرأة مبلغًا من المال .. وتعوّد بعد ذلك أن يحسن إليها كلسما لجأت إليه ، وبمر الأيام .. أضحى الإحسان راتبًا شهريًا ، و لم تعد تجد المرأة فيه إحسانًا بل حقًا ، واستمر الرجل يدفع المبلغ عن طيب خاطر .. حتى أصيب بضيق مالى .. ووجد نفسه عاجزًا عن الاستمرار فى أن يهب للمرأة ما تعوّد أن يهبه .

وطالبته المرأة بالنقود .. وألحت عليه وأثقلت .. تماما كأنما تطالب بدين لها .. و لم يستطع الرجل أن يدفع .. فقد كان هو نفسه فى عسر شديد .

هل تدرون ماذا حدث ؟

هل تدرون ماذا فعلت المرأة التى أنقذها الرجل وابنها من الموت جوعًا ؟ لقد اشتكت الرجل !! اشتكته أمام المحاكم والقضاء .. زاعمة أن الطفل هو ابن الرجل منها .. وأنه تعوّد أن يدفع لها مبلغًا من المال لتربيته ، والتكفل به لكى يبعدها عنه ويتقى الفضيحة .

وهكذا ردّت المرأة جميل الرجل .. تمامًا كما تفعل الحية الرقطاء والكلب المسعور .

قاتل الله المروءة فى أرض الأفاعى ومسعور الكلاب !!

ونظرت إلى تاجر الأخلاق .. ثم نظرت إلى نفسى وأخذت أفكر فيما أنا فيه .

ترى كيف أستطيع أن أقضى الأيام الباقية بتلك المروءة التى تصطخب فى نفسى ؟! لقد فعل بى يوم منها كل هذه المصائب والبلايا التى لا يرى فيها التاجر إلا أمرًا هينًا بالنسبة لما كان يمكن حدوثه .. فما بالكم إذًا بكل الأيام الباقية ؟!

وأطرقت فى يأس ولوعة .. وقلت للتاجر فى صوت خفيض :

ـــ ما العمل ؟

ـــ فيم ؟

ـــ فى مصيبتى !! فى المروءة الحامية التى أثقلت بها جوفى .. كيف أستطيع التخلص منها ؟

وهز الرجل كتفيه وقلب شفتيه وأجاب :

ـــ ليس أمامنا سوى نفس الطريقة .

ـــ أية طريقة ؟

ـــ التى تخلصنا بها من الشجاعة .. خذ جرعة أخرى من أى شوال يعجبك . الصدق . الوفاء . الشهامة . الصراحة .. انتق من الأخلاق المرصوصة ما يعجبك .. وخذ منها جرعة تضيع ما بك من مروءة .. وتحل هى محلها .

وهززت رأسى بشدة :

ـــ لا .. لا .. هذه طريقة غير مجدية . طريقة الاستجارة من الرمضاء بالنار .. ليس هناك شىء خير من سواه ، ولا نوع أخف من غيره .. كلها ستلقى بى إلى نفس المصير ، وتودى بى إلى التهلكة .. ما الفائدة فى أن أستبدل بالمروءة شهامة .. ثم بالشهامة صراحة . لا . لا داعى لأن نضحك على أنفسنا . هذا حل لا فائدة فيه .

ـــ ليس هناك حل سواه .. هذا هو كل ما عندى .

ـــ فكر يا سيدى .. فكر .. ابحث هنا أو هناك . مالك تسدها فى وجهنا !

ـــ الدكان أمامك .. ابحث كما تشاء !!

ـــ ابحث أنت .. فأنت تعرف خبايا حانوتك .. قد تجد فتات بخل .. أو بقايا حرص . وجشع . لا بد أن يكون لديك شىء مضاد لهذه المروءة التى ملأت بها معدتى .. ابحث أرجوك ..

ـــ قلت لك .. لا فائدة .. لا تضع وقتك فى كلام لا يجديك نفعًا .

ـــ إذًا فما العمل ؟

وهز الرجل كتفه وأجاب :

ــ ليس هذا من شأنى ، لقد حذرتك كثيرًا .. فأبيت استماع النصيحة .. يجب أن تتحمل عبء ما فعلت ، وأن تصبر بضعة الأيام الباقية .

ــ أنا أصبر بضعة الأيام الباقية ؟ أنا أعود مرة أخرى فأنطلق بين الناس بتلك المروءة الحادة الجنونية ؟ لا .. .. لا . إن هذا هو الانتحار .. والخير لى أن أوفر على نفسى جهد العودة .. فأقتل نفسى هنا .. أمامك .

ثم رفعت يدىّ وأحطت بهما عنقى ، وبدأت بالضغط عليه ، وأخذ وجهى فى الاحمرار شيئًا فشيئًا ، وهنا رأيت الرجل يثب من مكانه فيمسك بذراعى ويأخذ فى فك يدى من حول عنقى صائحًا بى :

ــ أيها الأحمق ماذا تفعل !! أية مصيبة هذه التى تنوى أن تجلبها علىّ .. مالى أنا بك .. لقد كان يومًا أسود يوم حضرت إلىّ .. ما دمت تعرف أنك لا قبل لك على ما تحمل الأخلاق الفاضلة .. ماذا دفعك إلى تناولها ؟ ولكن الذنب ذنبى فقد كان يجب أن أعرف أنك طفل صغير .

وأخذ الرجل يحدق فى غيظ وحنق .. ومضت فترة صمت قصيرة قطعتها بقولى :

ــ ماذا تنوى أن تفعل بى ؟

وبدت الحيرة على وجه الرجل وأجاب وهو يهز رأسه :

ــ وماذا أستطيع أن أفعل .. ابق معى بضعة الأيام الباقية .. حتى يذهب مفعول المروءة .. هذا كل ما أستطيع فعله من أجلك ، وهو أن أتحمل بقاءك معى حتى تعود إلى ما كنت عليه من سوء الخلق .

وفكرت قليلا .. فلم أجد هناك حلا سوى ذلك .. فليس أمامى سوى أن أحبس نفسى فى حانوت الرجل حتى ينتهى أجل مروءتى .. فأعود بعد ذلك من حيث أتيت .

وخيل إلىّ أن المسألة لن تكون أمرًا سهلا .. فإن بقائى فى حانوت الرجل قابعًا

بين الشوالات ثمانية أيام لا شك سيقتلنى مللا .. فليس لدى الرجل أن نوع من أنواع التسلية .. لا طاولة .. ولا دومينو ، ولا كتشينة ، ولا حتى نساء .. أتسلى بمغازلتهن وسماع سخافاتهن .. ومع ذلك فقد كان هذا خيرًا من انطلاق بين الناس أوزع المروءة ذات اليمين وذات اليسار إذ كان أسلم عاقبة وآمن شرًا .

وقلت للرجل من باب الاعتذار :

— ولكنى أخشى أن أثقل عليك .

— عبء لا بد منه .. سأستطيع أن أتحملك .. على ألا تكثر من الثرثرة .

— والأكل ؟

— ماله الأكل .

— هل عندكم طعام يكفينى ؟

— سنقتسم طعامى .. هل عندك أسئلة أخرى ؟

وقبل أن أجيبه .. رأيت فأرًا قد قفز من أحد الشوالات فهبط فى حجرى فوثبت من مكانى فزعًا .. وقذفت الفأر بعنف من حجرى فقد كنت لا أكره شيئًا كالفيران ، ثم خلعت حذائى وهممت بأن أهجم على الفأر لقتله .!!

ولكن الرجل أمسك يدى ، ثم أخذ الحذاء منى وقذف به بعيدًا ، ووجدته يقترب من الفأر الذى كان يقف فى صمت واستسلام دون أن يحاول الهرب وحمله فى يديه برفق وأخذ يربت عليه محاولا طمأنته .

وتملكتنى الدهشة من تلك الصداقة البادية بين الاثنين ، وصحت بالرجل متسائلا :

— ما هذا ؟

— فأر .

— أنا أعلم أنه فأر .. ولكن ما حكايته ؟

— فأر .. حمار .. مثلك تمامًا !

ورفعت حاجبى فى دهش من هذاالسباب الذى يطلقه علىّ الرجل ببساطة

وقلت له :

ـ أشكرك . .

وهز الرجل رأسه بمعنى « العفو » وعدت أسأله :

ـ هل لك أن تخبرنى كيف كان الفأر .. حمارًا .. وكيف كان مثلى تمامًا ؟

ـ المسألة بسيطة .. لقد فعل كما فعلت .. ألقت به الظروف السيئة إلى حانوتى ، وكما فعلت أنت .. أقبل على الشوالات يقرضها بغباوة ويلتهم مما بها .. ولم تمض بضع دقائق حتى كان الفأر المسكين .. على خلق عظيم .. أجل . لقد أضحى فأرًا مثاليا ، بلا خبث ولا مكر ولا جبن ، ولا سرقة . وجدته يقترب منى فى أدب وشجاعة كأنه يعتذر عما أكله من حانوتى . ثم انصرف بعد ذلك إلى سبيله .. ولم تمض بضعة أيام .. حتى عاد إلى أمره مرة أخرى .. تمامًا كما عدت .. هزيلا نحيلا .. تعسًا بائسًا .. كيف لا .. وقد أضحى يسير أمام الناس كأى مخلوق له حرية الظهور والسير ؛ وأخيرًا انتهى به الأمر إلى أنه تعرض للتهلكة ، ووجد أنه لا يستطيع العيش بهذه الأخلاق .. وأن الفأر .. يجب عليه أن يكون لصًا .. خبيثًا . جبانًا . وإلا فكيف يعيش ؟ أجل . إن الحياة هى التى تجبرنا على سوء الخلق .. فإما أن نعيش سيئى الخلق.. . وإما أن نموت مثاليين .

وهكذا ضم الحانوت ثلاثتنا .. من منكوبى الخلق الطيب .. الذين لا يجسرون على الظهور فى الحياة .

وتناولنا الطعام أنا والرجل والفأر ، خبز جاف وماء قراح .. ووجدت فى ذلك بداية لا تبشر بالخير .. هل أستطيع أن أعيش ثمانية أيام على الخبز الجاف والماء القراح ؟ لا أظن .

وجلسنا عقب الطعام نسمر بالحديث ، وأخذ الرجل يشرح لى محتويات حانوته بالتفصيل .. ويرينى إياها شوالا شوالا .. حتى انتهينا منها جميعًا .. عدا كيس صغير قد أحكم غلقه جيدًا .. فأشرت إليه متسائلا :

ـ وما هذا ؟

وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب ، ثم قال أخيرًا :

ـــ هذا هو خلاصة كل ما بالحانوت .. هذا هو مسحوق الأخلاق المركز .. إن بضع ذرّات منه كافية لأن تجعل الإنسان على أحسن خلق مدى الحياة ، أما ما بالكيس فهو يكفى لو صب فى نهر لأن يجعل البشر كلهم على خير خلق .. يكفى لإبادة ما فى الأرض من نفاق ، وغش ، وخداع ، ورياء ، وجبن ، ولؤم ، ودناءة ، وسفالة .. يكفى لأن يجعل أرضنا أرضًا نموذجية .. إن ما به روح « الأخلاق » .

وفكرت برهة فيما قال الرجل ، فخطر لى خاطر عجيب .. إن الأخلاق الطيبة لا تنفع رجلا يعيش وسط أناس كلهم من ذوى الأخلاق الرديئة .. فهى تجعل الإنسان كالعاقل وسط المجانين ، يبدو كأنه هو المجنون .. والباقى عقلاء .

إن ما أصابنى من ضرر عندما تناولت جرعة الشجاعة والمروءة .. حدث لأنى كنت إنسانًا شاذًا .. كنت شجاعًا بين الجبناء .. وكريمًا بين البخلاء .. وطيبًا بين السفلة الأشقياء .

ولكن هب أننى قد ألقيت ما بالكيس فى النهر .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ كلهم سيصبحون .. كرماء شجعانًا أفاضل أتقياء .. وستصبح الدنيا مثالية .

ولم أشك فى أن الرجل لن يقبل منى أن آخذ الكيس لألقى به فى النهر ، وأنه لن يستطيع أن يتحمل مسئولية ذلك العمل .. فعزمت أن أنتهز منه فرصة فأسرقه ، ثم أنطلق إلى النهر فأصبه فيه وأغير ما بالناس من سوء وشر .. وأجعل أرض النفاق .. بلا نفاق .

(١٢)

فى جنازة

لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير المنقطع ، فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم .. الذى وطنت نفسك على قبوله والرضا به .. إذا كنت تسير على قدميك فإياك أن تركب برهة ، وإلا ذاقت قدماك نعمة الركوب والراحة وكرهت السير الذى طالما اعتدته .

وهكذا عقدت النية على أن أسرق من الرجل الكيس الذى وضع فيه خلاصة الأخلاق .. أو على حد قوله .. روح الأخلاق .. وأن أتسلل من الحانوت ، وأسكبه فى النهر فأغير بذلك وجه الكون ، وأبدل طباع الناس ، وأذهب بشرورهم .. وأبدل خبثهم طيبة .. وجبنهم شجاعة .. وبخلهم كرمًا .. وخيانتهم وفاء .. ونفاقهم ورياءهم وغشهم ، صراحة وصدقًا وأمانة .

أجل .. هذه المرة لن أكون وحدى المصاب بالخلق الطيب . ولن أكون عاقلا وسط مجانين ، بل سأصيبهم أجمعين ، لن يسلم منهم أحد .. ولن يفر إنسان .. ولن تصبح أرضهم بعد ذلك أرض النفاق .

وأمسكت بالكيس أقبله فى يدى .. ثم أعدته مكانه بين الأكياس وعدت إلى مجلسى بجوار الرجل .

وسرت الظلمة فى الحانوت شيئا فشيئا فأوقد الرجل مصباحا من الصفيح بدد به الظلمة ، ثم افترش أحد الأكياس الفارغة فى ركن من الاركان ورقد عليه قائلا :

إلى أستطيع أن آخذ كيسًا آخر فأفترشه لأرقد عليه حيث أشاء .

و لم تكن بى رغبة فى الرقاد .. ولكنى كنت لا أريد أن أطيل الحديث مع الرجل حتى ينام بسرعة فأسرق الكيس وأفر من الحانوت .

وأمسكت بأحد الشوالات الفارغة وفرشته على الأرض بجوار الرجل واستلقيت عليه متظاهرا بالنوم .. وسمعت الرجل يقول لى وهو يتثاءب :

ـــ لست أدرى ماذا يمكن أن يحدث للناس لو ألقينا بذلك الكيس الذى حوى روح الأخلاق فى النهر !؟ وماذا يمكن أن يحدث للأرض لو خلت من النفاق !؟

وخيل إلىّ أن الرجل قد قرأ ما مر بذهنى ، وأنه يريد أن يستدرجنى فقلت له بتحفظ :

ـــ من يدرى ؟

وصمت الرجل برهة ثم استطرد قائلا :

ـــ هل تعلم أننى كثيرًا ما تنتابنى نوبات ضيق وتبرم .. أهم فيها بأن ألقى بما فى الكيس فى النهر ؟

ونظرت إليه بطرف عينى نظرة فاحصة علىّ أستبين ما يرمى إليه الرجل بقوله هذا .

وأخيرًا قلت له :

ـــ وما يمنعك أن تفعل ؟

وبدا لى كأن هذا السؤال هو ما يترقبه .. وأنه لم يقل ما قال إلا ليستدرجنى إلى سؤاله حتى يحذرنى من مغبة ما أوشك أن أفعله ، ويشرح لى .. ماذا يمكن أن يصيب أرض النفاق ، لو خلت من النفاق :

ـــ تقول ماذا يمنعنى أن ألقى بالكيس فى النهر ؟؟ بقية شفقة بالناس وعطف عليهم .. وخوف مما يمكن أن يصيبهم لو عريت نفوسهم من طلاء النفاق .. إنى أخشى أن يموتوا فزعًا .. لو أبصروا حقيقة نفوسهم وقد خلت من بريق النفاق الزائف وستار الغش المزركش المنمق . إنى أخشى لو اطلعوا على سوء مخبرهم

لولوا من نفوسهم فرارًا وملئوا منها رعبًا .. ما أعظم النفاق يا صاحبى وأجزل فوائده ! إنه يستر عورات الحياة ويزخرف خبائثها .. إن النفاق يعين الناس على تحمل ويلاتها .. إنه يريهم ترابها تبرًا ، وشرها خيرًا ، ويغمض أعينهم عن خطاياهم وشرورهم .. ولولاه لانكشفت الحقيقة فانتحر الناس جزعًا .

وصمت الرجل وأردف متسائلا :

ــ ما رأيك ؟

ــ رأيى أنك لم تعد جادة الحق فى كل ما قلت ، ولكنى أجد بك كثير شبه بالنعامة التى تخفى رأسها فى الرمال حتى لا تواجه الحقائق فترى ما تكره .. لقد قلت إن النفاق يستر عورات الحياة ويزخرف خبائثها .. فهل معنى ذلك أن الخبائث قد امحت والعورات قد زالت .

ــ وما الفارق بين أن تستر وبين أن تمحى ؟

ــ فرق شاسع .

ــ لا أظن .. إن الإنسان صنيعة الأوهام .. إنه يعيش على الأوهام وبالأوهام ، سعادته وهم ، وشقاؤه وهم ، وفرحه وهم ، وحزنه وهم .. هو لا يهمه أن ينعدم الشر بقدر ما يهمه ألا يرى الشر .. إنه يفضل أن يخدع مائة مرة على أن يعلم أنه خدع مرة واحدة .. ولا أظن هناك فارقًا كبيرًا عنده بين أن تزول خبائث الحياة .. أو تستر عنه .

ــ لا . لا . إن مقاومة الخبائث ليست بحجبها وسترها بل بمواجهتها وإزالتها .. خير للإنسان أن يرى عوراته ونقائصه حتى يعرف قدر نفسه ويقوّم فيها ما اعوج ويصلح ما فسد .. إنك تخشى أن تنكشف له حقيقته وحقيقة الحياة فينتحر جزعًا ويأسًا .. ولكنى أؤكد لك أن شيئًا مما تخشاه لن يحدث .. إنه سيجزع ويفزع ، ولكنه لن ييئس ولن ينتحر .. إن مشاعره محدودة الطاقة .. إنه يحزن إلى حد محدود .. ويفرح إلى درجة معينة ، فلا يمكن أن يتناسب حزنه وفرحه مع مسببات ذلك الحزن أو الفرح ، أعنى أنه لا يمكن أن يتزايد حزنه كلما

زادت مسببات الحزن .. بل لا بد لحزنه أن يقف عند حد لا يتجاوزه مهما زادت مسببات الحزن ، وإلا لمات معظم الناس حزنًا أو قضوا فرحًا .

إنى أعرف امرأة كانت تركب هى وأولادها وزوجها عربة وكانوا عائدين إلى القاهرة من الطريق الزراعى فى جوف الليل فانقلبت بهم العربة فى إحدى الترع وغرق الزوج وأولاده ، ونجت المرأة بعد أن رأت بعينيها مصرع كل من لها فى الحياة .. وبلغنى النبأ فقلت مسكينة كيف سيمكنها أن تعيش بعد ذلك ؟ وتوقعت لها إما أن تجن أو تموت حزنًا .ثم مرت الأيام وسألت عنها ذات مرة فقيل لى إنها على وشك الزواج ؟ تصوّر يا سيدى .. المرأة التى كنت أخشى عليها من الموت حزنًا .. لم تمت ولم تجن .. بل هى توشك أن تزف !؟

وإنى لا أنتقدها ، ولكننى أستدل بها على طبيعة الإنسان وعلى أن حزنه محدود ، فالذى يفقد ثلاثة أولاد لا أظنه يحزن ثلاثة أضعاف الذى يفقد ولدًا ، والذى يربح ألف جنيه لا تظنه يفرح عشرة أمثال من يربح مائة .. إنها رحمة من الله أن جعله يحزن بقدر .. وأن جعل مشاعره — كما قلت لك — محدودة الطاقة ، وإلا قضت عليه .. فانتحر كما تزعم حزنًا ويأسًا أو مات فرحًا وهناء .. وعلى ذلك يا سيدى أستطيع أن أجزم لك أن انكشاف الحقيقة لن يقضى عليه بل سيفزعه ويروعه .. ثم يفيق من الصدمة .. ويتمالك نفسه ويبدأ فى مواجهة الحقائق الموجعة محاولا جهده أن يصلح أمره وأن يزيل خبائثه ونقائصه ويجعل من نفسه ومن دنياه خيرًا مما هو عليه .

وصمت ، ونظرت إلى الرجل ، لأرى وقع حديثى فى نفسه .. ومرت فترة سكون دون أن يتكلم الرجل .. حتى خيل إلىّ أنه قد استغرق فى النوم ، وساءنى ألا أسمع رأيه فيما قلت .

وفجأة .. رأيت الرجل قد وثب من مكانه .. وقال لى رأيه فيما قلت بطريقة عملية وبدون أن ينبس ببنت شفة .. وذلك بأن اتجه إلى الرف الذى وضع عليه كيس الخلاصة .. خلاصة الأخلاق ، فأمسك به ، ثم عاد فرقد حيث كان ،

واضعًا الكيس تحت رأسه .

يالى من غر أحمق .. لقد استدرجنى الرجل حتى أفضيت إليه بدخيلة نفسى وأبنت له أنى أستصوب أن يزول النفاق من الدنيا ، وأن تضحى الأرض بلا نفاق .. وأريته أنى لا أرى خطورة فى إلقاء الكيس فى النهر .. على النقيض أرى فى ذلك فائدة كبرى .. وبذلك أيقظت شكوك الرجل ووساوسه ، وجعلته يقطع علىّ كل محاولة لسرقة الكيس ، ويزيل من نفسى كل أمل فى إنقاذ الأرض من النفاق وسوء الخلق .

وأغمض الرجل عينيه وسمعته يتمتم قائلا :

ـــ إن فى رأيك يا بنى كثيرًا من صواب ، ولكنه رأى شائك خطر ، وأخشى أن تدفعك حماقتك وطيشك إلى محاولة تنفيذه .. فتحدث بذلك فى الأرض ضجة كبرى وانقلابًا خطيرًا ، يعلم الله كيف يمكن أن ينتهى ، وأى مصير يمكن أن تسوق إليه الناس وتسوق إليه نفسك وتسوقنى معك . فلست أشك أنه لو اكتشف أمرك .. فسيكون عقابك شديدا ، وسيشملنى العقاب لتعاونى معك .

ـــ ولكن أى عقاب هذا الذى تخشى أن يعاقبونا به ؟! وما هى التهمة التى يمكن أن يوجهوها إلينا ؟!

ـــ التهمة التى يمكن أن يوجهوها لى ، هى تهمة إحراز أشياء ممنوعة أو الاتجار فى المخدرات ، فالأخلاق الطيبة فى هذا الزمن قد أضحت تمامًا كالممنوعات والمخدرات .. أما التهمة التى يمكن أن يوجهوها إليك فمن يدرى ؟

وربما اتهمت بالقتل مع سبق الإصرار فقد يعتبرون تلويث النهر بالأخلاق الطيبة كتلويثه بميكروبات الأمراض الخطيرة .

ـــ ولكنا سنحاول أن نشرح للحكام حسن نيتنا وسلامة مقصدنا .

ـــ أيها الغبى .. إن الحكام سيكونون أشد الناس غضبًا علينا ، فهم أكثر الناس انتفاعًا بالنفاق .. فما ستر زيفهم سواه .. وما حجب خداعهم غيره .. إن بطشهم بنا سيكون شديدًا .. فإننا سنحرمهم من خير بضاعتهم ، البضاعة التى

استطاعوا بفضلها أن يكونوا حكامًا . هل يمكن أن تتصور حكامًا بلا نفاق ؟ هل يمكن أن تتصور رأيهم عند ذاك فى الرعية ، ورأى الرعية فيهم ؟ لا .. لا .. يجب أن نكون أكثر عقلا وحكمة !!

وساد الصمت فترة ، ثم أردف الرجل متسائلا :

ــ هل اقتنعت ؟

ولم أجد هناك معنى للمناقشة ، بل وجدت من الخير أن أفهمه أنى اقتنعت برأيه. حتى يكون أقل حرصا على الكيس فأستطيع سرقته ، وقلت له مجيبًا :

ــ أجل اقتنعت .. أسعد الله مساك .

وأجاب الرجل تحيتى وتظاهرت بالاستغراق فى النوم . وبعد برهة سمعت شخير الرجل ، وأخذت أتقلب على جنبى فى حيرة وقلق ، وقد شرد بى الذهن .. واستبد بى التفكير دون أن أستقر على رأى .

ماذا أفعل ؟

هذه فرصة عجيبة لا أظنها قد أتيحت لإنسان من قبل .. فرصة لو أقدمت على انتهازها لأحدثت فى البشر تطورًا لا يستطيع أحد مجرد تصوره ، ولغيرت بها وجه التاريخ .

ولكن من يدرى ؟.. ربما كان تطورًا إلى أسوأ ، وربما أنكب البشر بفعلتى هذه .

ثم إن هناك أمرًا آخر ، وهو أنى سأرتكب السرقة وأخون من ائتمننى وآوانى .. وحتى لو استقر بى الأمر على انتهاز الفرصة ! فكيف سأستطيع سرقة الكيس .. والرجل قد وضعه تحت رأسه ؟

وهكذا استبد بى التردد والحيرة .. حتى هاجمنى النوم فاستسلمت له .

وقبيل الفجر فتحت عينى على صوت همهمة وتمتمة ودققت النظر فيما حولى ، فوجدت الرجل منهمكًا فى الصلاة .. وبدا لى الكيس ملقى على الأرض فى متناول يدى !!

ومددت يدى فى سكون فأمسكت بالكيس وسحبته ببطء إلى جوارى .

من يصدق هذا ؟ إن الكيس قد أضحى فى يدى وأنى أستطيع فى غمضة عين أن أقفز من مكانى إلى خارج الحانوت ثم أفر بالكيس وألقى به فى النهر .

وأخذت أتقلب على جنبى .. متظاهرًا بالنوم ، مخفيًا الكيس فى ثيابى ، حتى اقتربت من باب الحانوت وانتهزت فرصة سجود الرجل ثم انطلقت هاربًا أسابق الريح .

وهكذا وجدتنى مرة أخرى أنطلق بقميص النوم النسائى .. ولكنى كنت فى هذه المرة عارى القدمين ، وأخذت أخوض وسط المزارع التى على جانبى الطريق الذى قام عليه حانوت الرجل ، وأحسست بوقع أقدام تتبعنى ، فالتفت خلفى فإذا بالرجل يعدو ورائى مبهور الأنفاس ، فأمعنت فى العدو محاولا تضليله والفرار منه .

ووصلت أخيرًا إلى شاطئ النيل والرجل فى أثرى ، وانحدرت على الساحل الطينى المنحدر حتى وقفت على حافة الماء .

وتوقفت برهة أحاول فك الرباط الذى ربط به الكيس كى أفرغ ما به فى الماء .. ووجدت الرباط محكمًا ، وأخذت أبحث حولى عن شىء أثقب به الكيس أو أقطع الرباط .. وفجأة أحسست بالرجل قد هبط علىّ وأحاطنى بذراعيه .

وبدأت المعركة بينى وبين الرجل . هو يحاول أن يأخذ منى الكيس ، وأنا أحاول الفرار منه .. وطالت بيننا المعركة فقد كان الرجل على كهولته .. صلب العود قوى العضل .. من النوع الذى نسميه « عرق » .

وأخذ الرجل ينصحنى بأن « أعقل » وأن أكف عن هذا الحمق الذى أحاول أن أفعله ، وأخذت أنا أجاهد محاولا التخلص منه .. عندما أحسست فجأة بأن الكيس قد أفلت من يدى وسقط فى الماء .

واستمر العراك بيننا برهة .. دون أن يحس الرجل بسقوط الكيس فى الماء .. حتى تنبه إلى ذلك أخيرًا فتركنى وهبط فى الماء وأخذ يخوض فيه بقدميه محاولا

الإمساك بالكيس الذي أبعده التيار بعض الشيء .

وأخيرًا أمسك الرجل بالكيس ، ولكنه كان كيسًا فارغًا .. فقد نفـذ المقدور .. وذاب كل ما فيه فى الماء .

وخرج الرجل والماء يقطر من ثيابه وقد أمسك بالكيس الفارغ فى يده ، وبدت على وجهه علامات من أبصر أمرًا خطيرًا وحادثًا جللا .

ونظر إلىّ فى حنق شديد وهز رأسه قائلا :

ـــ أيها الأحمق ! ماذا أفدت من تلك الفعلة الشنعاء التى ليس لها من علاج !؟ كيف نستطيع أن نعيد إلى الأرض نفاقها بعد أن أضعت النفاق ؟

وصمت برهة ثم أردف قائلا .. كمن يحاول أن يزيح عبئًا أثقل كاهله :

ـــ أنا لست مسئولا .. لقد حاولت جهدى أن أمنعك ولكنى لم أستطع .. سأذكر لهم أنك السبب فى كل ما يمكن أن يحدث !!

ـــ خير لك ألا تذكر لهم شيئًا .. فستؤدى بنفسك إلى التهلكة .. لأنك أنت السبب لا أنا .

ـــ أنا السبب ؟. أيها الكذاب المفترى !

ـــ أجل .. أنت السبب .. فإن البضاعة بضاعتك ، وأنت تاجر الأخلاق المحرّمة الممنوعة ، وكذلك أنت السبب فى إلقائها فى النهر .. فلولا عراكك معى ومحاولتى التخلص منك لما سقط الكيس فى النهر .

واصفر وجه الرجل وبدا على وجهه خوف شديد مما جعلنى أرثى له .. فأقول ملاطفًا :

ـــ على أية حال .. إنى لا أجد فى المسألة أية خطورة .. وأؤكد لك أنى أستطيع أن أحمل عبئها وحدى .. هيا بنا واطرد عنك هذا الخوف .. وليحدث ما يحدث .

وسحبته من يده وتركنا الشاطئ عائدين إلى الحانوت .

ووصلنا إلى الحانوت ، وقد بدأ الصبح يتنفس وأرسلت الشمس مقدماتها من

النور دون أن تبدو من المشرق .. ووقف الرجل وسط الحانوت .. وقد بدت عليه علامات الحيرة والقلق والخوف . فأخذت أسرّى عن نفسه .. مخففًا عنه وقع ما يتصور حدوثه بين الناس إذا سرت فى أجسادهم المياه الجديدة الخالية من النفاق ، وغيره من الأخلاق الرذيئة .

وسألنى الرجل :

ــ وماذا سنعمل الآن ؟

ــ لا شيء .. تجلس أنت فى حانوتك وأنطلق أنا لأرى أثر المياه الجديدة فى الناس .. وأشاهد التطورات التى ستحدثها فيهم ، ثم آتيك بالنتيجة أولا بأول .

وأخذ الرجل يفكر برهة ، ثم قال :

ــ وماذا يجدينى أن أجلس فى الحانوت .. لِمَ لا أصطحبك حتى أشاهد العالم الجديد .. وأبصر الناس الجدد ، وأرى أرض النفاق .. وقد تبدد منها النفاق .

ــ ولكن كيف تغلق حانوتك .. وبضاعتك على وشك أن تلقى رواجًا بين أهل الأرض .. ألا ترى معى أن التطور الذى ستحدثه المياه الجديدة فيهم سيجعلهم يقبلون على بضاعتك ويتلهفون عليها .. وأنهم سيندفعون إليك ليزيدوا خلقهم طيبة فوق طيبة .. ويستزيدوا من الشجاعة والمروءة والوفاء والإخلاص كيف تغلق حانوتك .. وأنت مقبل على موسم ؟

ــ لا أظنهم سيقبلون علىّ بمثل هذه السرعة .. لا بد أن ننتظر حتى ينتهى رد الفعل .. وحتى تنتهى المآسى والكوارث التى ستصيبهم بها الأخلاق الطيبة .. لا تظن أنهم سيقبلونها بالرضا والسرور .. لا بد لهم من وقت طويل .. حتى يستطيعوا استساغتها والتعود عليها .. إنها ستبدو لهم فى أول الأمر .. شيئًا مزعجًا .. ومرضًا خطيرًا .. أصيب به مجتمعهم .. سيرون شجاعتهم تهورا .. ومروءتهم إسرافًا .. وصراحتهم وصدقهم حمقًا وبلها .. وسيظنون ما بهم الجنون المطبق .. ويحاولون التخلص منه والثورة عليه .. فإما أن يفلحوا .. وتتغلب سفالتهم المتأصلة وسوء خلقهم المستحكم ، على الطيبة الطارئة وحسن الخلق

المستجد ، ويعودون بذلك إلى ما كانوا عليه .. بل شرًا مما كانوا عليه ، وإما أن تتغلب عليهم الطيبة وجمال الخلق .. فتطرد السفالة من نفوسهم نهائيـا .. ويتعودوا على أن يكونوا شجعانًا كرماء مخلصين أوفياء ، ويروا فى كل ذلك أمرًا طبيعيًا .. ويحسوا أن نفوسهم كانت مريضة فبرئت من دائها ، ويحمدوا الله أن منّ عليهم بما طال حرمانهم منه .. ألا وهو الخلق الطيب .

وعلى ذلك ، فإنى أرى من الخير أن أغلق الحانوت وأنطلق معك لأشاهد الناس خلال تلك الفترة التي سيحدث فيها الصراع .. بين الخير والشر والحق والباطل .. والطيبة والسوء .. فإن انتصرت الطيبة عدت إلى الحانوت ففتحته على مصراعيه .. وإن انتصر السوء .. فيعلم الله ماذا يمكن أن يكون مصيرى ومصيرك !

وهكذا استقر الرأى على أن يغلق الرجل حانوته وينطلق معى .. وبدأت أعاونه على إدخال الشوالات المرصوصة فى مواجهة الحانوت إلى داخله .. ثم أغلقنا باب الحانوت .. وهممنا بالسير عندما رأيت الرجل قد توقف فجأة وصاح :

ــ يالى من أحمق مأفون .. لقد كدت أنسى شولح .

ــ شولح ؟!

ولكن الرجل لم يجب على تساؤلى ، بل أقبل على الحانوت يفتحه مـرة أخرى .. و لم يكد يفتح الباب حتى هبط الفأر من فوق أحد الأكياس ، فتناوله الرجل وربت عليه برفق .. ثم وضعه فى جيبه فى رفق قائلا :

ــ لا تخش شيئًا يا شولح .. إن صاحبك الأحمق قد وضع كيس الأخلاق فى النهر .. ولن تمضى برهة .. حتى يصيب الناس كلهم ما أصابك من خلق عظيم .. وحينئذ تستطيع أن تنطلق بينهم دون أن تخشى شيئًا .

وسرنا ثلاثتنا .. أنا بالقميص إياه .. وصاحبى بجلبابه ومركوبه وعمامته . و « شولح » قابع فى جيبه فى هدوء وسكينة .

ورغم أن رأيى فى قيمة الملابس لم يتغير بعد .. ورغم أنى كنت لا أهتم كثيرًا بأن أبدل ثيابى .. إلا أنى وجدت أن القميص الذى أرتديه سيلفت إلىّ الأنظار .. وأنه سيسبب لى من المشكلات والارتباكات ما أنا فى غنى عنه ، وعلى ذلك فقد استقر بى الرأى على أن أتسلل إلى البيت فأبدل ثيابى .

ووصلت إلى البيت والشمس تكاد تطل برأسها من أسفل الأفق .. وبدا لى أن الأهل لم يستيقظوا بعد .. فطلبت من صاحبى (الذى لم أكن قد عرفت اسمه حتى وقتذاك .. وإن كنت قد بدأت أناديه بأبى شو لح) أن ينتظرنى أمام الباب ، وأخذت أسترق الخطا إلى سلم الخدم . حتى وصلت إلى باب المطبخ فوجدته لحسن الحظ مفتوحًا ، إذ هبطت الخادمة منه لتسرق بعض ثمار الجوافة من الحديقة قبل أن يستيقظ الأهل .

وتسللت إلى حجرتى .. وارتديت ملابسى على عجل ، ووضعت ما تبقى من نقود التصييف (التى ما زالت فى موضعها فى الدولاب) فى المحفظة ، ثم هبطت إلى صاحبى ، وتأبطت ذراعه ، وسرنا فى الطريق .

كنت أحس بالجوع ينهش أحشائى .. عقب العيش الحاف والماء القراح الذى أنعم به الرجل على فى عشاء الأمس،فاتجهت رأسا إلى مطعم قريب للفول والطعمية.

وذهبنا إلى المطعم .. واتخذنا مجلسا حول إحدى المناضد الرخامية ذات الأرجل الحديدية .. وطلبت من الرجل اثنين فول واثنين طعمية واثنين سلطة طحينة .

وأحضر الصبى ما طلبت ، وقلت لأبى شولح :

— باسم الله تفضل .

وتفضل الرجل .. ولكن تفضله لم يكن كاملا .. فإنه لم يتفضل إلا بأكل الرغيف حاف وشرب كوب الماء ، ولم ينس أن يرمى بعض الفتات إلى « شولح » القابع فى جيبه .

وأدهشنى إصرار الرجل على أكل العيش الحاف وأفهمته أن الفول « زى

الزبدة » وأن الطعمية مدهشة .. فوجدته يهز رأسه موافقًا ويقول :

ـــ ولهذا لم آكل منهما .

ـــ ولِمَ ؟.

ـــ حتى لا أعود فأبطر على العيش الحاف .. لقد تعوّدت أن أعيش على العيش الحاف .. وأصبحت أجد فيه كفايتى .. فلم أفسد نفسى بإعطائها نعمة طارئة ؟.. سيصيبنى فقدها بألم أكثر من المتعة التى أصبتها من الحصول عليها. خذها منى نصيحة يا صاحبى .. لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير المنقطع .. فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم الذى وطنت نفسك على قبوله والرضا به .. إذا كنت تسير على قدميك فإياك أن تركب برهة .. وإلا ذاقت قدماك نعمة الركوب والراحة ، وكرهت السير الذى طالما اعتدته .. إن الإنسان يظل قانعًا بما وهبه الله له .. مهما قل .. راضيًا سعيدًا بما منحه إياه .. مهما ضؤل وحقر .. حتى يذوق ما فى يد غيره .. ويحس بما أنعم الله به على سواه .. فإذا به قد كفر وبطر وأحس بالشقاء والتعاسة .. أجل يا صاحبى .. إن مبعث شقائنا فى الحياة هو المقارنة بين النعم .. هل علمت لِمَ لا آكل الفول والطعمية .. حتى لا أكتشف مرارة العيش الحاف !؟

ورأيت فى قول الرجل حكمة بالغة .. وذكرت أن كل إنسان فى هذه الحياة يحس بالشقاء والحرمان .. لأنه ينظر إلى أعلى ، كلنا ننظر إلى أعلى فنحس أننا فى أسفل ، ولو علمنا أنفسنا أن ننظر دائمًا إلى من هم أسفل لحمدنا الله على العلو الذى وضعنا فيه .

وانتهينا من الطعام ، وتركنا المطعم ، واقترب منى أحد باعة الجرائد مناديًا بأعلى صوته على جرائد الصباح فابتعت منه « الأهرام » وأخذت أقلبه بين يدى وأنا أسير بجوار الرجل على رصيف الشارع .

ووقع بصرى على صفحة الوفيات فألقيت عليها نظرة عابرة ، ولكن بصرى علق بركن فيها قد كتب فيه اسم أعرفه خير المعرفة .

وبدأت أقرأ محققًا .. لعل هناك خطأ فى الاسم ، ولكنى عندما انتهيت من قراءة النعى .. تأكدت أنه هو « إبراهيم أفندى عبد المتعال » ، رئيس القلم الذى أعمل به .. وتملكنى دهش وحزن وأسف .. رغم كل ما سبق أن وصفت به الرجل .. من أنه جبان تافه حمار .. ورغم أن آخر علاقتى به كانت معركة حامية بفضل جرعة الشجاعة .

لقد حزنت علي الرجل .. فقد كان طيبًا .. ابن حلال رغم ما به من سيئات ، وكان ممتلئًا صحة وعافية .. رغم إدمانه الشرب ، ولم يكن الرجل قد بلغ بعد من الكِبَر عتيًا .. بل إنه يعتبر فى منتصف أو فى ثلثى العمر .

وتوقفت برهة .. وقد بدّت على مظاهر الحزن ، ورفعت منديلى أكفكف به دمعة فرّت من عينى .. وبهت صاحبى وسألنى :

ــ ما بك ؟

وأنبأته بالخبر .. وقلت له : إنى لابد أن أذهب للعزاء وأشترك فى تشييع الجنازة .. التى ستبدأ من دار الفقيد فى الساعة العاشرة .

وسألنى الرجل عما إذا كان هناك ما يمنع من اصطحابى إياه .. فنظرت إليه فاحصًا ، وأجبته :

ــ أبدًا .. إن العزاء والجنازات هى الشيء الوحيد فى هذا البلد ، الذى يستطيع أن يشترك فيه الإنسان دون أن يمنعه أحد .

ونظرت إلى جيب الرجل .. وقد رأيت الفأر يتلاعب فيه .. وأردفت قائلا :

ــ ولكن ...

ــ ولكن ماذا ؟.

ــ شولح .

ــ ماله شولح ؟.

ــ أخشى أن يخرج من جيبك .. فيُقفز على المعزين والمشيعين ويحدث فى

الجنازة مهزلة كبرى .

ـــ عيب لا تتهم شولح بهذا العبث .. هل نسيت كل ما أكله من شوالات الأخلاق .. إنه لم يترك شوالا إلا وقرضه .. إنه فأر جد يكره العبث .

وهكذا اتفقنا على أن أصطحب الزميلين العزيزين : شولح ، وأبو شولح .. ليشيعا الجنازة ويقوما بواجب العزاء .

وكان اليوم .. يوم الجمعة ، والساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وما زال أمامنا ما يقرب من الساعة حتى يحين وقت ذهابنا للعزاء .

وكان بيت المرحوم يقع فى حى المنيرة ، وكانت الساعة تكفى لوصولنا إلى هناك .

وركبت الترام وصاحبىّ .. وأخذنا نفحص الناس جيدًا منصتين إلى أقوالهم ، مراقبين بدقة كل ما يفعلونه كما يفحص الطبيب مريضًا حقنه بمخدر ليرى مفعول المخدر فيه .

ولم نر فى الناس شيئًا غير عادى .. فقد كانوا كما تعوّدنا أن نراهم دائما .. الكمسارى .. هو الكمسارى .. بقلة أدبه ووقاحته مع الفقراء والضعفاء .. وجبنه وتواضعه أمام المفتش والأقوياء وذوى الجاه من الركاب .. نفس السفالة .. ونفس النفاق .. والسائق هو السائق .. يقف بالترام بعنف فيقع الركاب فوق بعضهم .. ويتحرك بالترام قبل أن يركبوا .. ويسب الدين لأتفه الأسباب .. والصبية كما تعودت أن أبصرهم يقفزون من يسار الترام .. والباعة والشحاذون يهاجمونك بلا رحمة ولا شفقة .. وكل شىء كما هو .. لم يطرأ عليه أى تغير أو تبدل .

ونظرت إلى صاحبى متسائلا :

ـــ إن مفعول الماء لم يظهر بعد .. إنهم ما زالوا كما هم .

ـــ صبرًا .. فلابد أن يمضى وقت .. حتى يظهر التأثير وحتى يسرى مفعول الكيس من النهر إلى مواسير المياه ، إلى الصنابير ، إلى أجواف الناس .. هؤلاء

الذين تبصرهم لا شك لم يغيرو ريقهم بعد .

وأخذ الترام يتهادى بنا .. حتى وصل إلى العتبة .. فاستبدلنا به تراما آخر يحملنا إلى شارع قصر العينى ، وهناك نزلنا عند محطة المنيرة .

وقصدنا إلى الشارع الذى يقع فيه بيت الفقيد الراحل .

و لم يصعب علينا الاستدلال على البيت .. فقد قادنا إليه الصراخ الذى انبعث من حناجر النساء .. والسرادق الذى شيد أمام الدار .

وبدا لى أننا قد حضرنا مبكرين بعض الشيء .. فقد رأيت السرادق خاليًا ، والفراشين لم ينتهوا بعد من إقامة السرادق .. فما زال أحدهم يتسلق قمته .. ويربط أحد العمد بحبل فى يده .. وما زال خدم السرادق بالفانلات والسراويل لم يرتدوا بعد الملابس المزركشة الفضفاضة المطرزة بالقصب ، والثلاجة وسلاح القهوة والفناجين قد وصلت فى التو وأخذوا فى إنزالها من عربة الفرّاش .

ووجدت بعض أهل الفقيد قد تكأكئوا فى باب الدار وهم يتهامسون ويتشاورون وقد وقف بينهم رجل بقفطان وعمامة لم أشك فى أنه الحانوتى .. فقد بدت عليه سيماء الحزن أكثر من أهل الفقيد ، ولمحت بجواره رجلا تعهدت أن أراه دائمًا فى الجنازات .. يسير فى بعض الأحيان وراء النعش وفى البعض الآخر أمامه مع حملة المجامر .. و لم أشك فى أن الرجل متعهد جنازات .. يقوم بتوريد حملة المجامر والموسيقات والمشيعين والندابات وكل ما يلزم لشئون الجنازات .

ودخلنا السرادق ، وجلست وصاحبى فى أحد الأركان وقد كسونا وجهينا مظاهر حزن شديد ، وأخذنا نتهامس ، ومن حين لآخر يقطع تهامسنا الصوات المنطلق من الدار .. والولولة والنهنهة .

وسألنى صاحبى هامسًا :

ـــ كيف كان المرحوم ؟.

ـــ كان يا سيدى من خير الرجال .. وأكرمهم خلقًا ، وأرجحهم عقلا وأشدهم شجاعة .

واندفعت بلا مناسبة ألصق بالفقيد كل ما يخطر ببالى من جميل الصفات ، وبدأ المعزون يتوافدون الواحد بعد الآخر ، وأنا أرمقهم جيدًا .. وأرى من بينهم زملائى فى المكتب مطأطئى الرءوس .. محنيى الهامات ، بطيئى الخطا .. كأن الفقيد عليه رحمة الله .. كان أباهم ، وكأنهم لم يكونوا يدعون عليه بالموت فى كل لحظة .

وامتلأ السرادق بالمعزين ، وما من أحد منهم إلا وقد بدت على وجهه أبلغ علامات الحزن .. وقد سرت بينهم همسات لا تكاد تجد فيها إلا :

« الله يرحمه ويحسن إليه » أو « كان بيرهق نفسه نفى الشغل زيادة عن اللزوم » أو « ده راح شهيد الواجب» ، أو « كان لسانه حلو عمره ما ذم فى حد ولا جاب سيرة حد » .

وهكذا كانت تسرى الهمسات كلها مدح فى مدح ، وكلها تلصق بالفقيد صفات .. لو تجمعت فى إنسان لكان نبيًا .

ونظرت إلى الساعة فإذا بها قد بلغت العاشرة والربع .. وبدأنا نحس بوطأة الحر ، ونفذ إلينا لهيب الشمس من خلال فتحات السرادق ، فجفت حلوقنا وتصبب العرق من وجوهنا .

ودخل أحد الخدم بملابسه المزركشة يحمل بين يديه صينية قد ملئت بأكواب الماء المثلج وقد بدا الضباب على خارجها فأعطاها منظرًا مغريًا .. وبدأت الأيدى تتخاطف الأكواب .

وخرج الخادم بالأكواب الفارغة ليعيد ملأها ، وأخـذ الخدم يمرون على المعزين ليرووا عطشهم بالماء المثلج .. والمعزون يتخاطفون الأكواب .. حتى مر بى أحد الخدم فتناولت كوبًا وتناول صاحبى كوبًا آخر .

وعببت ما بالكوب لأطفئ به حمو الفول والطعمية ولهيب الحر .. ولم أكد أعيد الكوب إلى الصينية حتى وجدت صاحبى يغمزنى بقدمه .

وهززت رأسى متسائلا عما به .. فأجابنى :

ـــ ما رأيك فى الماء ؟.

ـــ مثلج جدًا .

ـــ لست أقصد هذا .. ما رأيك فى طعمه ؟.

ـــ لا أفهم .

ـــ ألم تجد به طعمًا غريبًا ؟.

ـــ لا .

ـــ أنت غبى . لقد وصل .

ـــ ما هو الذى وصل ؟.

ـــ مفعول الكيس الذى ألقيت به فى الماء .. لقد ميزت طعمه فى الكوب .

ـــ متأكد ؟.

ـــ أنا لا أخطئ قط طعم « روح الأخلاق » .. أجزم لك أن الماء مشبع بها .

وسرت فى جسدى رجفة ، وأحسست بقلق واضطراب شديدين ، وأخذت أنقل البصر بين الناس وأنا أتأمل عيونهم وحركاتهم ، وأترقب ما سوف يفعلونه فى جزع وخشية .

كيف لا وقد أضحوا جميعًا بلا نفاق يستر نفوسهم ؟

وأين !؟.

فى أشد المواقف حرجًا . وأكثرها حاجة للنفاق ، والتصنع والمداهنة والرياء .

كيف لا .. وأنا أجلس فى جنازة .. أى فى مجمع نفاق ، بلا نفاق ؟.

وجلست أرقب المعزين فى حذر ، كأنى أراقب كومًا من الديناميت على وشك الانفجار ، وأخذت أقلب البصر فى وجوههم .. حتى أرى ما سيطرأ عليهم بعد أن تجرع كل منهم كوبًا مترعة من خلاصة الأخلاق .

ومضت برهة وأنا لا أحس هنالك أى تغير ، حتى ظننت أن صاحبى كان واهمًا فى تخيل وجود روح الأخلاق فى المياه . أو أنها كانت موجودة فعلا ،

ولكن أثرها كان أضعف من أن يبدل ما بنفوس المعزين من نفاق مستحكم .

ووصل إلى أذنى من مدخل السرادق همهمة وحركة كأن القوم يستقبلون أمرًا ذا مكانة وحيثية .. وتطلعت ببصرى فلمحت صاحب الضجة والحركة وقد أقبل تحيطه هالة من أهل الفقيد وقد بدا عليهم احترام شديد ، وتقدم واحد منهم يفسح الطريق ويقود القادم الكريم إلى أكبر وأفخم كرسى وضع فى السرادق .

كيف لا ، وقد كان المعزى الكبير .. هو الوزير نفسه !!

وأخذت أرقب الوزير المنتفخ الأوداج وقد أقبل يتهادى فى عظمة حزينة وكبرياء بها لمحة من أسى مصطنع ، وقد أمسك عصاه بيمينه ووضع طرف إبهامه اليسرى فى جيب الصديرى الذى تدلت منه سلسلة ذهبية وضع طرفها فى الجيب الآخر .

واستقر الوزير أخيرًا فى كرسيه أو فى عرشه ، وتفرّق من حوله الموكب .. إلا رجلا استمر يحوم حوله وينحنى أمامه مبالغًا فى إظهار آيات الترحيب والولاء .

ونظرت إلى المعزين فإذا بأبصارهم قد علقت بالوزير المحترم ، وسرى بينهم التهامس فأنبأ من يعرف من لا يعرف .. أن هذا هو فلان باشا .. واستمر القوم يحملقون فى وجه الرجل .. كأن به شيئًا ليس بهم .. رأسين مثلا .. أو رجلا ثالثة .. أو أربع أعين .

ولم يكن هناك شك فى أن صاحبنا الوزير قد أحس بما أثاره فى السرادق من حركة وهمس وحملقة ، فقد أصابه بعض الارتباك الذى سرعان ما ستره بزيادة فى مظاهر العظمة والكبرياء .

ونظرت إلى صاحبى أبى شولح .. وهززت رأسى وسألته هامسًا :

ـــ أما زلت تصر على أنك ميزت طعم روح الأخلاق فى المياه ؟!.

ـــ بالطبع .

ـــ بعد كل الذى ترى أمامك .. تصر على هذا ؟.

ــ ما هذا الذى أراه أمامى ؟.

ــ هل تظن أن هذا المتكبر المتعاظم .. قد خلا من النفاق ؟ هل تظن أن هذا الموكب الذى تلقاه ، وذلك الرجل الذى يحوم حوله .. وهؤلاء الموظفين الكبار الذين يتطلعون إليه بأعينهم والذين يتسللون إلى المقاعد المحيطة به .. هل تظن أن هذا المشهد التمثيلى الذى تراه .. ليس به أثر للنفاق ؟.. ماذا يكون النفاق إذًا ؟.

ــ صبرًا يا أخى .. صبرًا .. لابد أن تمنح للجرعة بعض الوقت حتى يظهر مفعولها .. ثم إن صاحبك الوزير لم يشرب بعد .

وشرب الوزير .. ومضت برهة .. وأنا أقلب البصر بين الناس فى حذر وقلق .

وعلا الصراخ يشق أجواز الفضاء إيذانًا بخروج النعش من الدار ، وإيذانًا ببدء الجنازة .

وتقدم واحد من أهل الفقيد ليقود الوزير إلى مكانه فى مقدمة المشيعين .

وخرجنا من السرادق متكأكئين فى رحبة أمام الدار ورأيت النعش يحملونه إلى الخارج متقدمين به جمهرة من المعزين .

ورفعت عينى أسترق النظر إلى أعلا فلمحت جمعًا من السيدات احتشدن فى إحدى الشرفات وقد انطلقت من حناجرهن أبلغ أنواع الأصوات « الحيانى » وبدت بينهن واحدة كانت أعلاهن صوتًا وأكثرهن صياحًا مما لم يدع فى نفسى شكًا فى أنها زوجة الفقيد أو كما كان يصفها « المره الدون الشلق » التى طالما سوّدت عيشه ، والتى طالما قضى الساعات الطوال يشكو إلىّ منها مر الشكوى ، ويصف لى مهارتها فى خلق النكد وقدرتها على جر الشكل وسلاطة لسانها وسفالتها وخستها وميلها إلى الشر والأذى .

وبدا لى أن الفقيد كان متحاملا على المرأة .. وأنها ليست بمثل ما وصفها من سوء وشر .. وخيّل إلىّ أنها ستقضى جزعًا أن فجيعتها فى زوجها قد أضاعت صوابها .

وانطلق صراخ المرأة مدويًا ، وهي تكاد تقذف بنفسها من فوق الشرفة لتلحق بالنعش .. ووصل إلينا صوتها وهي تقول فى نغم ملحن :

ــ يا خويا .. آه يا خويا .. ساينى لمين بعدك .. ماكانش يومك يا خويا .

وفجأة وجدت المرأة قد كفت عن الصراخ .. وتحوّل بصرها عن النعش إلى ناحية فى فناء الدار .. وقف بها جزار يمسُك بيده سكينًا تقطر منه الدماء وتمدد أمامه الخروف الذى ذبح أمام النعش .. وسمعتها تصيح بالرجل فى لهجة آمرة وصوت محتد :

ــ انت يا راجل انت يا جزار . خد بالك من الفروة وانت بتسلخ الخروف .. اوعى السكينة تمسها .. والا تعوّرها لحسن عايزة افرشها فى الدهليز .. سامع ولا لأ .

وصمتت برهة قصيرة ثم أردفت صائحة محذرة منذرة :

ــ والعفشة حاسب عليها اوعى تنقص منها حاجة .. والا تروح كده والا كده .. حاكم انا عرفاكم إيدكم طويلة ولا فيش حاجة تملا عينكم .. حاسب على الكرشة والطحال والكبدة والكلاوى .. حاستلمهم بالواحدة .. ونضف لى المصارين لحسن نفسى فى السجق .. كان محرّمه علينا المرحوم جته نصيبة مطرح ما راح .

وهنا أحسست بصاحبى يغمزنى بقرصة فى يدى .. وسمعته يهمس :

ــ ابتدا الشغل .. وتطاير النفاق .. اللهم ارحمنا وإياهم .. هذا أول الغيث .

وأنهت السيدة أوامرها إلى الجزار ثم التفتت مرة أخرى إلى ناحية النعش ، وكان القوم قد أذهلهم صياح المرأة ، فتسمروا فى أماكنهم ومضت بضع ثوان ، والقوم فى سكون من فرط الدهشة كأن على رءوسهم الطير .

ونظرت المرأة إلى القوم الذاهلين ، وإلى حملة النعش المتسمرين فى أماكنهم ، وبدت عليها أمارات التعجب وصاحت بالقوم ناهرة :

ــ واقفين ليه ؟.. مستنيين إيه ؟.. يالله اقلبوه القلبة .. اللى ما يرجعش منها

أبدًا .. يا ما ورانى المر .. وسقانى الصديد .. وصديد الصديد .. أهو ربنا ورانى فيه .. لكن برضه .. ما ورانيش زى مانا عايزه .. كان نفسى ينشل .. ويرقد سطيحة .. ويبقى يطلب نقطة المية ما يلاقيش حد يديها له .. كان نفسى اشوف قوته تنهد وحيله ينقطع .. يا ما اتمرد ويا ما اتفرعن .. يا ما خدت الصبغة من دماغة راقات .. كان عامل نفسه ابن العشرين .. وداير يجرى ورا النسوان فى الشارع ، وفى الصالات .. يبصبص للجيران وبنات الجيران .. لما فضحنا وسط اللى يسوى واللى ما يسواش .. وأقول له يا « ابراهيم » عيب .. يهب فيه ويقول لى .. إنت مالكيش عندى حاجة .. من يوم ما اجوزته ما شفتش منه راحة أبدًا .. إلهى يجحمك « يا أم محمود » يا خاطبة إنتى اللى كنت السبب .. لولاك كنت زمانى اجوزت « عم شيحه » العطار .. راجل أمير زى السكرة.. يا لله . مستنين إيه احدفوه فى التربة ، واقفلوا عليه كويس لحسن يرجع تانى .. دا صنف لئيم ما يجيش إلا بالدق . يا ما نكد علىّ .. وفرج علىّ الناس .. يا ما قاللى يا عجوزة يا كركوبة ، وانا قد بنته .. كان راجل دنى عينه فارغة .. هو انا كنت أقدر اخلى عندنا خدّامة .. من خوفى منه ، ومن لودانه .. يا ما اشتكيت منه لطوب الأرض .. هو كان عنده دم ولا إحساس .. أنا عارفه كانوا بيهببوا بيه إيه فى الشغل .. آل وعاملينه رئيس قلم ، وهو تور الله فى برسيمة .. لازم كلهم تيران زيه .. هو كان له الا فى النسوان والشرب .. آل رئيس قلم آل ، والله ما كان يسوى حتى ساعى والا فراش .

وصمتت المرأة برهة تتمالك فيها أنفاسها ، فانبرت امرأة بجوارها كانت منذ لحظات تشاركها الصراخ والبكاء ، وقالت مؤمنه على لهجتها الجديدة مخاطبة من حولها من النسوة :

ـــ يا ختى والنبى لها حق .. كان راجل بصباص وفلاتى .. دانا فاكره مرة مشى ورايا من شيكوريل لغاية بنزايون ، وهو لسانه ما دخلش بقه ، ودخلت اشتريت حتة موريلا وكام متر باتستا ، وجيت اخرج من المحل لقيته .

وهنا قاطعتها سيدة أخرى متسائلة :

— الحتة الموريلا البمبة اللى وديتها عند لويس الخياطة ؟

— أيوه هى .

— وبتاخذ كام دلوقت مدام لويس فى الفستان ؟

— خمسة جنيه .

— يا ختى غاليه أوى .. داحنا بنجيب واحدة غلبانه تيجى تقعد عندنا طول اليوم تفصل فستان ونص وتاخذ ماية وثمانين قرش ولا تفرقيش شغلها عن مدام لويس أبدًا .

وهنا نبرت ثالثة فتدخلت متسائلة :

— اسمها إيه يا اختى دى ؟

— أم عبده .

— ما تقدريش تبعتيها لى يوم الجمعة ؟

— من عنيّه .

وصاحت أخرى موجهة القول إلى زوجة الفقيد :

— والنبى يا ختى حوشى لى حتتين سجق من اللى حاتعمليه .

وصاحت خامسة تقول إنها لا تحب أكل المأتم ، واختلطت أحاديث السيدات الحزينات المتشحات بالسواد ، عن السجق والطحال والموريلا والخياطات والمودات ، وعن كل شىء إلا عن المرحوم .

ولمحت واحدة منهن تتجه ببصرها إلى حيث وقف الوزير مأخوذًا مشدوهًا ، إذ لم تكن الجرعة قد أثرت فيه بعد ، ثم أشارت إليه بأصبعها وتساءلت بصوت عال :

— ودا مين يا ختى اللى واقف نافش وعامل زى الديك الرومى ؟!

وانطلقت الضحكات من صدور المعزين ضحكات رنانة خالية من أى أثر للحزن أو الأسى الذى كان يكسو وجوههم منذ برهة ، وبدا كأن الاحترام

والخشية التى كانوا يحسونها للوزير قد نطايرت وتبددت .

وسمعت صوتًا جديدًا يصيح بالقوم غاضبًا ثائرًا :

ـــ وبعدين يا جماعه فى العطله دى .. هو احنا فاضيين لكم . احنا ورانا أموات تانيه .. دى الحكايه مش مستاهله . جايب لكم تمان رجاله يمشوا قدام الميت ومش عاوزين تدفعوا غير اتنين جنيه ، ورضينا وقلنا معلهش نعوضها فى ميت تانى .. أهى برضه الست يومها قريب ، وبعد دا كله تلطعونا اللطعه دى ؟.. انتو فاكرينا عواطليه ، والا خاليين شغل .. ياللا يا رجاله بلاش مسخرة ولعب عيال .

ووجدت المتحدث هو الرجل الذى سبق أن وصفته بأنه متعهد جنازات ، وأنه قد ضاق ذرعًا بوقفة النعش .. وأخذ يسحب رجاله حملة المجامر الذين رصهم على جانبى الطريق لكى يتقدموا النعش .

وجمع الرجل أعوانه وانصرفوا ساخطين .. يلعنون أبا الميت وأبا أهله ، محدثين فى الشارع شبه مظاهرة .

وهنا لمحت الحانوتى .. الذى كانت تبدو على وجهه أبلغ آيات الحزن ، وقد انطلق مقهقهًا وهو يصفق بيديه طربًا ويصيح :

ـــ يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. يا ميت نجف .. الفاتحة على روح الأموات اللى بيوكلونا عيش .

ثم رأيته يرفع كفيه إلى السماء ويتمتم بالفاتحة . ثم يدعو بصوت عال :

ـــ خمس أموات كمـان يـارب بس تكون منهم حماتى . ندرن علىّ لاشيعها بالطبل البلدى ، وارقص وراها عشرة .

ثم بدأ يقرن القول بالفعل ، فيهز بطنه الأكرش ويتبختر بجسده السمين المترهل .. وهو يصيح طربًا :

ـــ خمس أموات يارب ، والا خليهم عشرة .. مش بترزق من تشاء بغير حساب ؟. خلينى مرة واحدة فى العمر .. من تشاء .. مرة واحدة بس ..

خلينى من تشاء ، وابعت فيهم فرّه ، والا شوطه .. وسيب الباقى علىّ .

واستمر الرجل فى رقصه وطربه حتى وصل إلى النعش فأخذ ينقر عليه بيديه منشدًا :

ـــ يا نور العيون آنست .

ونظرت إلى الوزير ، فوجدته غارقًا فى عرقه ورأيته ينظر حوله فى سخط وغضب ويقول :

ـــ إيه البهدله دى والقرف ده .. هو لازم يتعبنا فى موته زى ما تعبنا فى حياته .. كان راجل حمار وغبى .. جاته القرف .. هو لازم يعملوا له جنازة .. ما كانوا حدفوه فى عربية وانتهينا .. والا لازم تعب القلب ؟

وتلفت الوزير حوله وتطلع ببصره كأنما يبحث عن شىء .

و لم يهتم به أحد و لم يتسابق كبار المعزين ليسألوه عما يريد . فقد كانوا هم أنفسهم فى حالة ضيق وملل ، واضطر الوزير إلى أن يفصح عما يريد ، فيصيح بأحدهم طالبًا منه أن يحضر له العربة .

وينظر إليه الموظف فى تبرم ويقول له فى أنفة :

ـــ العربية عندك هناك .. إذا كنت عايزها روح لغاية عندها .. أنا مش خدام أبوك .

ويبدأ الوزير انسحابه من وراء النعش دون أن يهتم به إنسان ، ويذهب إلى العربة فلا يقفز له السائق ولا يفتح الباب بل يدلف هو فى داخلها .

وتتحرك العربة والنعش ما زال موضوعًا على الرصيف لا يحاول أحد التقدم لحمله .. وبدأ بقية المعزين يعلنون آراءهم فى الفقيد الكريم « كان طويل اللسان » .. « كان مؤذى .. الله لا يوريه نصفه ».. « كان أغبى خلق الله ». « كان مغرور » « كان يستاهل ضرب الجزم » .

وأخذ كل منهم يقص كل ما يعلمه عن سيئات الفقيد .. ثم بدأوا ينصرفون تباعًا .

وشيئًا فشيئًا أخذ المكان يخلو حتى لم يبق هناك سواى وصاحبى ، والنعش الملقى على الرصيف .

وتلفتنا حولنا فى حيرة ، وكانت الشرفة قد خلت من السيدات .. ولم ندر ماذا يمكن أن يكون مصير الفقيد العزيز ، وهل سيقضى نهايته على قارعة الطريق .

ورأينا الزوجة تخرج إلى الشرفة لتطمئن على مصير الخروف .. وعلى الفروة والطحال والمصارين ، ففوجئت برؤية النعش على الرصيف فى موضعه .. فضربت بيدها على صدرها وصاحت فزعة :

ـــ يا دى النايبه .. دا الرجل لسه على الرصيف .

ثم صاحت تطلب النجدة من الداخل .. ليبعدوا النعش عن البيت خشية أن يفكر ابراهيم افندى فى العودة إلى الدار .

وأخيرًا حمل النعش على أكتاف الخدم والبواب بعد أن أعطت السيدة كلا منهم نصف جنيه .

ووقفت وصاحبى أرقب الجنازة تتحرك بمنتهى السرعة وقد سار حاملو النعش خببًا ولو استطاعوا لساروا عدوًا .

وهكذا سار الفقيد بلا عبرة تسكب وراءه .. أو مخلوق يشيعه ، اللهم إلا مخلوق واحد وهو الفأر شولح الذى أحس بالرثاء للفقيد ، فقفز من جيب صاحبى وسار وراء النعش .

ولكن ـــ حتى الفأر ـــ لم يسر إلا خطوات ثم عاد إلينا فزعًا مرتاعًا .. بعد أن روّعه صوت انفجار بجواره .

والتفتنا لنتبين سبب الانفجار ، فإذا به « قلة » قذفت بها الزوجة وراء النعش .

ونظر إلّى صاحبى وقال فى حسرة :

ـــ حيا الله النفاق .. لقد كان يستر خبائثهم ، ويحجب شرورهم .

ـــ صبرًا .. هذا رد فعل لا بد من حدوثه .. لا بد للعلة أن تكشف حتى يمكن استئصالها ، ولا بد للناس أن يروا ما بهم .. حتى يستطيعوا علاجه .

(١٣)

فى صلاة الجمعة

ألا تدرى أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا طليقة مخلصة ، تجعلنا أشد إيمانًا بالله ، وأكثر حمدًا له ، وقربًا منه .. ألا تدرى أنه رب أغنية جميلة أرهفت منا الحس ورققت المشاعر .. تطهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتحلق بنا إلى السموات وتقربنا من الله أكثر من ألف ركعة وسجدة !!

هز صاحبى رأسه وبدأنا نتحرك من الميدان .. ميدان الصراع الذى شاهد أول معركة أحدثها التطور الجديد .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ووجدت صاحبى يسألنى :

ــ أين ستصلى الجمعة ؟

ــ الجمعة !

ــ أجل الجمعة .. ألم يسبق لك أن صليت الجمعة ؟

ــ والله صليتها فيما مضى من الزمن .. أما الآن فلا !

ــ ولِمَ ؟

ــ قلة عقل .. وشقاوة وشيطنة .. وكسل وصهينة .

ـــ إذًا أين أستطيع أن أصليها أنا ؟

ـــ ولكنى لا أجد هناك ما يمنع من أن أصليها معك .. ولتكن هذه بداية العودة إلى الصلاة وبداية الهداية .

ـــ وأين نصليها ؟

وفكرت برهة .. وهممت بأن أقول : نصليها فى أية زاوية قريبة .. ولكن دار بخلدى فجأة خاطر عجيب .

لِمَ لا نذهب إلى أحد الجوامع الكبيرة .. حيث يحتشد جمع غفير لتأدية الصلاة وحيث نستطيع أن نجد مرتعًا نرقب منه أثر المياه الجديدة الممتزجة بالأخلاق .

وهكذا سحبت الرجل من يده ، واخترقنا شارع المنيرة متجهين إلى الكوبرى الحديدى القائم فى ناحية الماوردى والموصل بين حى المنيرة وجنينة ناميش ، وعبرنا الكوبرى ، ثم اخترقنا جنينة ناميش إلى شارع السد ، وسرنا فى شارع السد حتى وصلنا إلى حارة باب الميضة .. ودلفنا إلى داخل الميضة حيث خلعنا أحذيتنا وجلسنا القرفصاء أمام الحنفيات وبدأنا الوضوء .

وانتهينا من الوضوء وسط عاصفة من التمخط والتنخم ، والتمتمة والبسملة .. وقمنا نتلمس طريقنا ذاكرين قول الشاعر :

قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعَها
فمن علا زلقًا عن غرة زلجا

ودخلنا الجامع فوجدناه على سعته احتشد بالمصلين ، وقد بدت على وجوههم الطيبة والمسكنة والتذلل .. وأخذ البعض يركع ويسجد .. والبعض يستمع إلى المقرئ يتلو القرآن .. وقد أغمضوا عيونهم ، وأخذوا يهزّون رءوسهم ، وكأنهم فى نشوة .

ووجدت رجلا من الأولياء يخترق صفوفهم ، وقد أمسك بسلسلة تدلى منها مجمرة يحرق بها البخور ، ويطوّح بها ذات اليمين وذات الشمال .

ورأيت آخر يحمل على ظهره إبريقًا ، وفى يده طاسة نحاسية .. وقد أخذ

يوزع المياه على العطشى المصلين ..

وصليت وصاحبى بضع ركعات تحية المسجد ، ثم جلسنا فى ركن نسمع تلاوة آى الذكر الحكيم .

وأخيرًا .. انتهى المقرئ .. وبدأ الأذان : مؤذن فى أعلا المئذنة ، ومؤذن فى رحبة الجامع .

وانتهى الأذان .. ولمحت شيخًا وقورًا قد قام بين المصلين ، واتجه إلى المنبر ، ورفع ستارًا فوق الباب ، ثم دلف إلى الداخل ، وصعد الدرجات .. ممسكا بسيف خشبى .

ووقف الشيخ الخطيب ، وقد بدت عليه أمارات الجد والتقوى وعلامات الإيمان والصلاح .

ونظر فى جموع المصلين نظرة شاملة ، ثم سعل وتنحنح .

ووجدتنى أرهف السمع لما ينوى قوله .. رغم أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من السرحان فى خطبة الجمعة ، ورغم أنى لا أذكر قط أننى وعيت كلمة واحدة ، قيلت فى إحداها ، ولم يكن سبب إرهافى السمع فى هذه المرة هو رغبتى فى الحصول على النصائح والمواعظ .. بل كانت لهفتى على معرفة ما إذا كانت المياه الجديدة قد أثرت فى الرجل ، وسماع ما يمكن أن يقوله فى خطبة الجمعة بعد أن زال منه النفاق .. وبدأ الرجل خطبته .. وأنا أنصت إليه جيدًا . فقال :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه ، ومن والاه ، حتى يلقى الله فى حزبه . وأشهد أن لا إله إلا الله ﴿ رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، كان أقوى الناس إيمانًا ، وأعظمهم يقينًا وأحسنهم خلقًا .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى .. هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة

ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

أما بعد .. فيا أيها المسلمون :

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ .

أيها المسلمون : ها هو شهر رمضان يطالعكم ، وعما قليل يهل هلاله عليكم ، فهل أعددتم له العدة ، وجردتم أنفسكم من شهواتها ، وطهرتم قلوبكم من ضغائنها ، فلا تتركوا فضل هذا الشهر يفوتكم ، واعلموا أن الصوم ليس امتناعًا عن شهوتى الفم والفرج من الفجر الصادق إلى غروب الشمس فحسب ، وإنما هو صوم السمع والبصر واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الشر والآثام :

إذا لم يكن فى السمع منى تصامم .
وفى مقلتى غض وفى منطقى صمت
فحظى إذن من صومى الجوع والظما
وإن قلت إنى صمت يومًا فما صمت

وقد يرتقى الصوم بالعبد إلى رتبة أن يصوم بقلبه عن الدنيا ، ويسمو بفكره عن مادياتها حتى تصبح حياته تفسيرًا عمليًا ، لقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ .

والصوم الصحيح الكامل بعد كل هذا .. حاجز حصين بين الصائم وبين الرفث والإثم والعصيان ، والحصن المتين .. بين النفس الأمارة بالسوء وبين المنكر والتمرد والطغيان ، وأن التحكم فى كف النفس عن لذاتها ومنعانها كفيل بتقوية الإرادة ، وتعويد النفس على الصبر ، واحتمال الشدائد ، وعلى خوض غمار الحياة ، وملاقاة نوائبها بلا جزع ولا فزع ، فيخرج المرء من شهر الصوم ، وقد ازدهرت فى نفسه خصال تضىء له حلكة الحياة وتعبّد له سبلها بما يجعله أهلا لا ستخلاف الله له فى أرضه ، ويظهر فيه سر قوله تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بنى

آدم ﴾ .

والصوم الصحيح كذلك يجعل الصائم يحس إحساسًا عميقًا بما يتجشمه البؤساء من شظف العيش وألم الحرمان ، فيحفزهم على الجود والسخاء .. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون فى شهر رمضان ، فإذا استطاع الإنسان بالصوم أن يجتث جذور الشح من نفسه لقول الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ سعد وسعدت به أمته .

فيا معشر المسلمين : حاولوا أن تستفيدوا من رمضان ، واجعلوه سوقًا لربح الباقيات الصالحات ، وافهموا فريضة الصوم على وجهها الصحيح ، واعلموا أن إخوانكم المسلمين الأول كانوا يتهجون لرمضان ويفرحون به فـرح المحب بمحبوب طالت غيبته ، فما يكاد ينزل بهم حتى يهيئوا له من صنوف الطاعات وعمل الصالحات ، ما يوجب شفاعته فيهم شهادته لهم .

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال :

(الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، فيقول الصيام إنى منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه) ويقـول القـرآن منعتـه النـوم فشفعنـى فيـه ، قـال فيشفعان) . قال رسول الله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى) ، وعنه ﷺ قال : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) .

ادعوا الله ...

* * *

وسرت بين المصلين موجة همهمة ودمدمة .. ورفعوا أكفهم إلى الله يدعونه . وأخذت أنا أحملق فيهم وفى الخطيب ، علّنى أستبين تغيرًا طرأ عليهم فلم أجد شيئًا .

وعاد الخطيب يتمم خطبته قائلا :

ـــ الحمد لله لا يشرك فى حكمه أحدًا .. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير .. عباد الله اتقوا الله

فقد كفى ما كان .. اتقوا الله فقد مضى زمن العصيان ، ثم توبوا إلى الله جميعًا لعلكم تفلحون .

« اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يا رب العالمين . اللهم إنا نسألك أن تنصر الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بفضلك كلمة الحق والدين ، كما نسألك أن تشمل برعايتك عبدك المخلص فى طاعتك الملك فاروق الأول نصره الله (وهنا سمعت صوت المقرئ يعلو فى صوت أشبه بالغناء فيقول : أيده الله بنصره وأعانه).. اللهم انصره نصرًا مبينًا وحقق على يديه جميع الآمال يارب العالمين . واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا ، وآمنا فى أوطاننا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، وول أمورنا خيارنا ، ولا تول أمورنا شرارنا .

« اللهم إنا نضرع إليك أن تنصر المجاهدين ، وأن ترفع راية الإسلام ، وتعز الإسلام والمسلمين ، وأن تخذل الكفرة والكافرين أعداءك وأعداء الدين يارب العالمين . « اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا (٣ مرات)

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يغفر لى ولكم ولسائر المسلمين ، وأن يجازى المحسنين أحسن الجزاء . عباد الله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ أقم الصلاة » .

وانتهى الخطيب من خطبته وهمّ بالنزول .. وبدأ المؤذن بإقامة الصلاة .. عندما وقعت الواقعة .. وظهر تأثير المياه الممتزجة فى الخطيب المسكين وأحسست بصاحبى يغمزنى ويهمس فى أذنى :

ـــ انظر .. لقد بدت عليه الأعراض .. انظر إلى عينيه لقد بدأ يشع منها الصدق والإخلاص .. لقد ذهب عنه النفاق .

ونظرت إلى الرجل فوجدته قد توقف فى مكانه وأشار للمؤذن أن يكف عن إقامة الصلاة فما زال هناك لخطبته بقية لم يتم قولها بعد .

ونظر الرجل إلى الورقة التى كان يتلو منها الخطبة كأنه ببغاء ، ثم كورها بين يديه وقذف بها من أعلى المنبر وأخذ نفسا طويلا ، وبدا عليه كأنه مقبل على أمر جلل ، وخفق قلبى بشدة ، وأحسست بخطورة ما يوشك أن يحدث .

ووصل إلىّ صوته وملؤه الإخلاص والصدق :

ـــ يا عباد الله .

وتلاحقت أنفاسى وأنا أنصت إليه أنا وغيرى من عباد الله .

ساد الجامع سكون عجيب وأرهف المصلون أسماعهم وقد بدت على سيماهم دهشة شديدة وأخذوا يحملقون فى الخطيب ، وقد عاود اعتلاء المنبر مرة أخرى بعد أن انتهى من خطبته وهّم بالنزول ، وارتسمت على وجوههم علامة استفهام فتساءل .. ترى ماذا نسى الخطيب !؟ وماذا ينوى أن يقول ؟! وأى شىء خطير دفعه إلى معاودة الحديث بعد أن أتم خطبته ؟!

ولم يكن هناك سواى وصاحبى من يعلم سر عودة الخطيب .. ويستطيع التنبؤ بما يوشك أن يقول ، ونظرت إلى صاحبى فوجدته مطرقًا فى صمت واستسلام .. كأنه ينتظر عاصفة على وشك الهبوب »

وعاد صوت الخطيب يدوى بين أرجاء الجامع بلهجة طويلة ممدودة :

ـــ عباد الله .

وصمت لحظة ـــ وبدا لى أن القول الطبيعى الذى يجب أن يلى ذلك .. هو قوله ـــ وحدوا الله ـــ ثم يأخذ فى سرد بقية الأقوال التى يحفظها الخطباء عن ظهر قلب .

ولكن الخطيب لم يقل وحدوا الله .. بل تلفت يمنة ويسره وعاد يكرر :

ـــ عباد الله .. هل تعرفون نكتة الخطيب بين مدمنى الحشيش ؟

وسرى بين المصلين همس ولغط .. وهمهمة . وأخذ بعضهم من سؤال الخطيب ، وعلت أصوات بعضهم قائلين :

ـــ لا .

والبعض الآخر قائلين :

ــ نعم .

وأسكتهم الخطيب بإشارة من يده قائلا :

ــ لا بأس سأقصها عليكم .. حتى يعرفها من لم يعرفها فإنى أراها خير تشبيه لما نحن فيه .

وأنصت القوم .

وبدأ الخطيب يقص النكتة قائلا :

ــ زعموا أن بلدة شاع فيها تناول الحشيش وأدمن أهلها على تعاطيه ، وحدث ذات يوم أن ذهب القوم إلى الجامع لتأدية فريضة صلاة الجمعة .. واحتشدوا فى رحبة الجامع حتى أذن للصلاة فاعتلى الخطيب المنبر .. وبدأ فى إلقاء خطبته .. وأخذ فى وعظ القوم وإرشادهم ، وحثهم على ترك الحشيش ، مبينًا لهم أضراره .. معددًا مساوئه وأخطاره .. ذاكرًا ما أعده الله من عقاب لمدمنيه فى الدنيا والآخرة .. لاعنًا كل من تعاطاه أو ساعد على تعاطيه .. محذرًا كل من اتجر فيه أو حمله أو نقله .. وهكذا استمر فى وعظه حتى بح منه الصوت ، ولم يكد ينتهى من خطبته .. حتى علا من بين المستمعين صوت يسأله فى تخابث واستعباط :

ــ الحشيش أنهو يا سيدنا ؟.. حشيش الأرانب !؟

ونظر إليه الخطيب فى غيظ واستنكار ، ثم مد يده إلى عمامته فأخرج من بين طبقات الشال الأبيض . « فص حشيش » ، وأجاب السائل ببساطة متناهية :

ــ لأ .. الحشيش ده .. يا روح أمك !!

وهنا ضج المصلون بالضحك .. وصمت الخطيب لحظة ثم أشار بيده محاولا إسكات المصلين .. وهمّ بمعاودة الحديث .. عندما انبرى من أقصى الجامع صوت غاضب يصيح بالمصلين وبالخطيب :

ــ ما هذا العبث ؟! أتضحكون وتمزحون فى بيت الله ؟! هذا حرام .. هذا

حرام .

والتفت إليه الخطيب فى دهش وقال متسائلا :

ـــ حرام ؟.. هل حرّم الله الضحك فى بيته أيها الغبى !؟ الله الكريم الغفور يحرم علينا الضحك فى بيته !

ـــ إن بيت الله .. قد جعل للخشوع والسجود والعبادة .. فإن ذلك يجعل عباد الله فى بيت الله أقرب إلى الله .

ـــ أو تظن أن التقرب إلى الله لا يكون إلا بالخشوع والسجود والتسبيح وتسبيل العينين !! ألا تدرى أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا طليقة مخلصة ، تجعلنا أشد إيمانًا بالله وأكثر حمدًا له وقربًا منه !؟ ألا تدرى أنه رب أغنية جميلة أرهفت منا الحس ورققت المشاعر .. تطهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتحلق بنا إلى السموات وتقرّبنا من الله أكثر من ألف ركعة سجدة !؟ إن الإيمان فى الصدور .. والحمد فى الصدور .. ماذا يضيرنا لو أخرجناه فى ضحكة راضية شاكـرة حامدة .. أم لابد لذكره وحمده من حلقة ذكر تبح فيها الأصوات وتتأرجح الأجساد !؟

وصمت الخطيب ،. فأجابه الرجل من أقصى الجامع صاخبًا غاضبًا :

ـــ هذا كفر .. هذا إلحاد .. هذه دسيسة !!

ونظرت إلى صاحبى « أبى شولح » ثم إلى الرجل الثائر الغاضب ، وهززت رأسى متسائلا :

ـــ ما رأيك فى هذا ؟

وأجابنى « أبو شولح » هامسًا :

ـــ لا شك أنه لم يذق الماء بعد .. من يدرى قد يكون صائمًا .

ولم يجب الخطيب على الرجل ، وتجاوز عنه كأن به لوثة .. ووجه حديثه إلى بقية المصلين الذين كانوا يتطلعون إليه بأعين راضية .. وبدا أن كل ما قاله قد وافق هوى فى نفوسهم .

قال الخطيب :

ـ عباد الله .. لقد أضحكتكم قصة هذا الخطيب .. ولست والله بلائمكم على ضحككم ولا بمحاول زجركم ونهركم كما فعل هذا الغبى الذى اتهمنا بالكفر والإلحاد .. اضحكوا ما حلا لكم الضحك .. فإنى لا أرى فى ضحككم عجبًا .

أجل .. ما من عجب هناك من أن تضحكوا على الخطيب الذى حدثتكم عنه .

ولكن العجب كل العجب .. فى أنكم تخصونه وحده بالضحك ، وأنكم لم تضحكوا على كل خطيب سمعتوه ، على أنه ما من أحد منهم يختلف فى قليل ولا كثير عن صاحبنا .. كلهم فى الهوى سوا !!

إن هذا الخطيب ينهى الناس عن الحشيش .. ويقضى الساعات يتلو عليهم الأقوالَ الفصيحة والكلام البليغ .. وفى نهاية الخطبة .. يخرج لهم من طى عمامته .. فصّامن الحشيش .

لِمَ لا تضحكون على الخطباء الذين ينهونكم عن الكذب .. وأنتم لا تزيدون قيد أنملة على الحشاشين الذين كان الخطيب ينهاهم عن تناول الحشيش ويضع الحشيش فى عمامته .. فلاهم كفوا عن الحشيش ولا أنتم كففتم عن الكذب .

هل تصدقون أنه قد مضت علىّ عشرات السنين وأنا أنهى الناس عن المنكر وهم يستمعون إلىّ مطأطئى الرءوس مسبلى الأعين .. يهزون رءوسهم إعجابًا وندمًا ، واستغفارًا !؟

ترى هل كفوا بعد ذلك عن إتيان المنكر الذى نهيتهم عنه !؟

أبدًا والله .. ولو كانوا قد كفوا عنه .. لما كان بهم من حاجة إلى الاستماع إلىّ بعد ذلك .. ولكففت أنا عن النهى عن المنكر منذ عشرات السنين .. إذ ما حاجتى إليهم وما حاجتهم إلىّ وقد كفوا عن المنكر .

عشرات السنين وأنا أنهى عن المنكر وأتلو الخطب تلو الخطب .. هذه تنهى

عن الفحشاء والبغى .. وهذه عن الخمر .. وتلك عن الميسر .. أتلوها الواحدة بعد الأخرى كالببغاء .

يا للغباء ويا للحمق!! كيف هيأ لى البله أن أتلو كل تلك الخطب المسجوعة الرنانة عن الميسر .. وأنا أعلم أن أهل الميسر ..آخر من يقربون الصلاة أو يستمعون لخطبة فى مسجد ؟! كيف هيأ لى الحمق أن أبح صوتى فى النهى عن الميسر وأنا أعلم أن من أنهاهم .. يغطون فى نومهم عقب سهرة إلى الصباح فى نوادى الميسر ؟!.

كيف هيأ لى الغباء .. أن أظن أنه حتى لو دفع النفاق واحدًا منهم إلى الصلاة .. وإلى سماع خطبتى .. أن يكف عن الميسر لمجرد أنى نهيته عنه ؟!.

يا عباد الله .. من منكم لا يعرف أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب والنميمة والغش وأكل أموال اليتامى !! من منكم لا يعرف أن أكرمكم عند الله أتقاكم وأن الله يأمر بالعدل والإحسان والصدق ؟.

يا عباد الله .. أيها الأشقياء المنافقون .. من منكم لا يعرف كل هذا !! عشرات السنين .. وأنا أتلوه عليكم ، وأنتم لا تستمعون إلىّ .. فلا أنتم عملتم بما أقول ولا أنتم كففتم عن الاستماع إلىّ .

عشرات السنين وآذانكم من طين ومن عجين .. تخالون أن واجبكم ينتهى عند حد السماع ، تمامًا كما أخال أنا أن واجبى ينتهى عند حد التلاوة .. وأنا أتلو وأنتم تسمعون .. ولا شىء أكثر من ذلك .. أنا أقول لكم إن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب .. إلخ . وأنتم تستمعون ، إلى أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب إلخ .

وهذا كل ما فى الأمر .. أما أن ننتهى فعلا عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب ، فهذا ما لم يخطر ببالنا قط .

عباد الله .. لشد ما ضللتم وضللنا السبيل .. لقد جعلنا من العبادة غاية .. وهى الوسيلة إلى الغاية .. فاستغنينا عن الغاية بالوسيلة ، وعن الغرض بمجرد

التسكع فى الطريق .. فما وصلنا إلى غرض وما اهتدينا إلى غاية .

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ما قيمة الصلاة إذا ركعنا وسجدنا وبسملنا .. وبعد كل ذلك ارتكبنا الفحشاء واتبعنا المنكر ؟!!

ما فائدة أن نحشد فى المساجد .. فنمسح بأرضها جباهنا ونخشع ونتذلل ونستغفر ونطاطئ الرءوس ونحنى الهامات ونسمع إلى الخطب الرادعة .. الزاجرة ، ثم ننطلق بعد ذلك فى ربوع الأرض فنعيث فيها الفساد .. ونرتكب الآثام ، ونطغى ونتكبر ونتجبر !؟

ما فائدة أن نفعل الوسيلة .. ولا نصل إلى الغاية ؟

ما فائدة أن نسلك الطريق ونعرض عن الغرض ؟!!

إن الغاية من كل هذه العبادة والصلوات والخشوع والخطب .. هى أن نرحم أنفسنا .. إن الذى خلقنا ليس به من حاجة إلى تلك المظاهر والشعائر .. ولكنه أمرنا بها ، حتى يصلح ما فسد فينا .. ويزيل عنا الشوائب ويبعد الشرور ، فتصفو دنيانا .. وتجمل حياتنا .. فيحب بعضنا البعض ، ويعين بعضنا البعض .. وتزول الكراهية وتتبدد الضغينة والحقد .

تلك هى الغاية من كل هذه المظاهر والشعائر .

أفهل وصلنا إلى الغاية ؟.

لا والله .. إن كل ما نفعله عبث فى عبث .. نضحك به على أنفسنا ونخدع به بعضنا ..

هل تصدقون أن هذه الخطبة التى ألقيتها عليكم .. قد نقلتها عن خطبة قلتها قبل ذلك خمس مرات ؟.

لا تلومونى .. فأنا منكم .. منافق بين منافقين .. أو هكذا كنت .. حتى أحسست فجأة بعد أن انتهيت من خطبتى أن كل ما بى من نفاق قد تطاير وتبدد .

عباد الله .. إن فى عمامتى وفى صدرى .. فصوصًا من السخائم سأقذف بها قبل أن أقيم الصلاة .

عباد الله .. كونوا مخلصين فى صلاتكم ، واذكروا الله فيها ، وفى غيرها . اذكروا الله دائمًا .. اسجدوا بقلوبكم وأرواحكم .. لا بأجسادكم ، واجعلوا مياه الوضوء تغسل أفئدتكم ونفوسكم قبل وجوهكم وأقدامكم .

عباد الله .. كونوا دائمًا طاهرين .. إن الطهارة طهارة النفس .. لا طهارة الجسد .

عباد الله .. صلوا بأذهانكم فى كل غدوة وروحة .. اجعلوا الصلاة وسيلة ، ولا تجعلوها غاية .

عباد الله .. هذا عهد بينى وبينكم .. أقسم ألا أخطب فيكم وفى عمامتى أى فص من الشر .. أقسم ألا أنهاكم عن السوء قبل أن أنهى نفسى .

عباد الله .. أقسم .. أن ..

ولكن الرجل لم يتم حديثه فقد وصلت إلينا من باب المسجد ضجة .. ولمحنا رجال الشرطة يقفون بالباب ويخلع بعضهم أحذيتهم ، ولمحنا بينهم الرجل الذى سبق أن صاح بالخطيب يتهمه بالكفر والإلحاد ، ووجدته يشير إلى الخطيب ، ويقول لضابط بجواره صائحًا مهتاجًا :

ـــ هل سمعت .. إنه يقول إنه لن يخطب وفى عمامته أى فص .. هل رأيت بعينيك !؟ إن الرجل قد جن .. لقد أضحى يهذى بالكفر والإلحاد وسط آلاف المصلين .. الذين يصغون إليه ليهديهم سواء السبيل .

أجل .. هذا هو المجنون الكافر .. لا بد من حمله إلى مستشفى المجاذيب .

واتجه رجال الشرطة إلى الخطيب ليلقوا القبض عليه ، ووجدت الخطيب ينظر إليهم شزرًا ويصيح بهم :

ـــ ويحكم أيها اللئام الكفرة .. تعتدون على الآمنين فى بيت الله .. أتصدقون هذا الأحمق الغبى الذى يتهمنى بالجنون .. افرنقعوا أيها الزناديق .

ولكن الزناديق لم يفرنقعوا ، بل زادهم غضب الخطيب اقتناعًا بأن الرجل مجنون ، وأن من الخطورة تركه طليقًا وسط المصلين .

وأمسك الشرطة بتلابيب الرجل وأخذوا يجرونه إلى الخارج والرجل يقاوم ويحاول التخلص منهم .. وكلما ازداد مقاومة ازدادوا معه عنفًا .. وأصابت يده وجه أحدهم بلكمة غير مقصودة فردّها له مضاعفة .

فصرخ الرجل وازداد هياجًا .. فانهالوا عليه باللكمات ، والرفسات .. وهاج المصلون وهجموا على الشرطة لينقذوا الخطيب المسكين.. وبدأت المعركة حامية الوطيس واختلط الحابل بالنابل ، وعلا الصراخ ، وتطايرت اللعنات وألفاظ السباب .. وازداد الصخب والصياح وانقلبت المعركة إلى مظاهرة ثائرة جامحة .

ونظرت إلى صاحبى « أبى شولح » قابعًا فى مكانه ورأيته ينظر إلىّ بطرف عينيه ويهمس قائلا فى لهجة شامتة :

ــ مبسوط ؟

ــ مم ؟

ــ من كل ما حدث .. هذه المعركة فى بيت الله .. وهذا الهياج والصياح .

ــ ومالى أنا ! إن السبب الأول فى كل ما حدث هو ذلك الرجل الأحمق الغبى .. الذى استدعى الشرطة .. والسبب الثانى . هم الشرطة وتهوّرهم .. ماذا عليهم لو تركوا الخطيب يقول ما يشاء ؟ ثم إن الرجل لم يقل سوى الحق .. ولو اتبع الناس قوله لصلح حالهم .. وذهبت شرورهم ، ولست أشك فى أنهم كانوا سيتبعونه .. فقد كانوا مقتنعين بقوله تمام الاقناع ، لولا تدخل الشرطة .. على أية حال .. إنى سعيد بكل ما حدث .. حقيقة أن هذا الهياج والصراخ فى حرمة المسجد شىء يبعث على الأسف ، ولكنى أعتبره بداية تطور وانقلاب .. ولا بد لكل انقلاب من بعض أعمال العنف ، ولا بد له من ضحايا وخسائر .. وأؤكد لك أن ما حدث من خسائر يعتبر ثمنًا زهيدًا جدًا .. لما سيحدث من انقلاب وتطوّر .. تخيل ما قاله الخطيب يضحى حقيقة واقعة ، وأن الناس ستعمر بالإيمان قلوبهم وتطهر نفوسهم .. ويخلصون فى حب بعضهم البعض .. وتتطاير

منهم الضغينة ويتبدد الحقد .. تصوّر أنهم سيصلون بقلوبهم فى كل لحظة .. وتصوّر أن ماء الوضوء سيزيل سخائم النفوس كما يزيل الأتربة عن الوجوه .

ألا ترى معى .. أن هذا يهون من أجله كل شيء .. حتى المعركة فى بيت الله ؟!

وهز صاحبى رأسه وتمتم قائلا :

ـــ من يدرى ؟

وبدأت أمواج المصلين تندفع إلى خارج الجامع .. وانتقلت المعركة والهياج من رحبة الجامع إلى رحبة الميدان .. وتحركت الأفواج إلى مركز الشرطة .

وتسللت وصاحبى من المسجد بعد أن خلا من المصلين .. قبل أن تتم الصلاة .. واتخذنا طريقنا من ميدان السيدة إلى شارع خيرت .. وقد تملكنى إحساس خفى بالندم ، ولكنى أخذت أعزى نفسى وأقنعها كما أقنعت صاحبى .. بأن سلامة الغاية تبرر عنف الواسطة ، وأنه « لا بد دون الشهد من إبر النحل ».

(١٤)

فى حفلة انتخابية

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لى من تملقكم وخطب ودكم ورشوتكم بالطعام والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلونى نائبًا .. فإذا ما جعلتمونى .. فاغربوا عن وجهى فما عادت بى إليكم حاجة .. إياكم أن تكونوا حسنى النية فتسألونى الوفاء بالوعود .

سرنا فى شارع خيرت حتى لاظوغلى ، ثم اتجهنا بعد ذلك إلى شارع قوله قاصدين إلى ميدان عابدين .

وتوقفنا فى شارع قوله أمام سرادق كبير علق على مدخله مكبر للصوت ، ونظر إلىّ صاحبى متحيرًا .. ثم سألنى قائلا :

ـــ ميت .. أم فرح ؟

وتحيرت أنا الآخر .. إذ لم يك مظهر السرادق ينبىء عن شىء من هذا ، فما وجدت من الأعلام والتعاليق والبطيخ الزجاجى الملوّن ما يقنعنى بأنه « فرح » وما سمعت صراخًا ولا بكاء ولا حتى مجرد نهنهة .. حتى أجزم بأنه ميت .

ونظرت إلى صاحبى وقلت : ـــ الظاهر أنه ميت .

وهز صاحبى رأسه متشككًا وقال :

ــ ميت ؟!!.. لا أظن .. ميت « سادة » بلا نواح ولا صياح !!

ــ وماذا فى ذلك !؟ ميت .. قد شرب أهله من المياه الجديدة .

ــ يجوز .

وهممنا بالسير .. ولكننا توقفنا عندما وجدنا رجلا يتسلق سلمًا وضع على مدخله ، وقد أمسك بيده قطعة كبيرة من القماش أشبه بلافتة فعلقها من أحد أطرافها ثم نقل السلم فعلق الطرف الآخر .

ونظرت إلى اللافتة .. فوضح لى ما خفى ، ووجدت أننى كنت مخطئًا فى ظنى ، وأنه فعلا لا هو بفرح ولا ميت .. بل حفلة انتخابية . فقد قرأت فى اللافتة :

« انتخبوا مرشحكم الحر الأمين .. ابن الدائرة .. عبد الواحد بك أمين »

ونظر إلىّ صاحبى متسائلا فى دهش شديد :

ــ ما هذا ؟

ولم أجبه .. فقد بدأ صوت المكبر يعلو صوتينا ، وسمعناه يدوى قائلا :

ــ واحد .. اثنين .. ثلاثة ... أربعة .. ألو .. ألو . الصوت كويس كده !؟

ووجدتنى أجيب على الصوت :

ــ كويس جدًا .. تستطيع أن تقلق الجن فى مضاجعها . اطمئن .

وعاد الصوت يضج قائلا :

ــ ألو .. ألو .. مرشحكم الوحيد .. عبد الواحد بك أمين .. انتخبوا .. عبد الواحد بك أمين .. السياسى الحر على مبادئ مصطفى كامل ومصطفى النحاس ومصطفى أمين .. انتخبوا مرشحكم النزية المستقل .

وسألنى صاحبى :

ــ إيه الحكاية ؟

وهممت بأن أجيبه عندما علا صوت مكبر آخر ، الظاهر أنه كان موجودًا فى الشارع المجاور وسمعناه يدوى قائلا :

ــ مرشحكم الأوحد زينهم باشا حتحت .. الرجل العصامى .. رجل البر والتقوى .. رجل الاستقامة والجد ، زينهم باشا حتحت .. لا نائب لكم سواه .

وعاد صاحبى يسأل فى دهشة :

ــ وما كل هذا ؟

وأجبته مفسرًا :

ــ معركة انتخابية .. لقد خلت دائرة عابدين بوفاة نائبها ، وهم يتطاحنون الآن على المقعد بدون فائدة .

ــ ولِمَ ؟

ــ لأن الفائز معروف .

ــ كيف ؟

ــ مرشح الحكومة .

ــ ولِمَ إذًا يتعبون أنفسهم ؟

ــ تسالى .

وهممنا بالسير مرة أخرى عندما استوقفنا صوت يصيح بنا « اتفضل » ، ورأيت رجلا يطل علينا من الداخل وأمامه سطل نحاسى كبير قد تندى خارجه بالماء ، وأخذ الرجل يقلب ما به بمغرفة فى يده ، وعاد صوته يصيح بنا :

ــ تفضل .. خش .

وترددنا برهة .. ولكن لسعة الشمس ولفحة الحر ، والجفاف الذى كنت أحس به فى حلقى ، دفعنى إلى « التفضل والخششان » فدخلت وصاح بنا الرجل مرحبًا :

ــ أهلا وسهلا .

ثم بدأ يفرغ لنا من السطل « شربات أحمر مثلج » فى كوبين أمامه ، وتقدم

إلينا بهما صائحًا :

ــ فى صحة عبد الواحد بك أمين .. مرشحكم الأوحد ، وعلى روح زينهم باشا حتحت .. مرشح الأموات .

وانطلق الرجل مقهقهًا .

وتناولنا كوبى الشربات .. وتجشأنا ، ومسحنا ما تصبب من وجوهنا من عرق ، وقادنا الرجل إلى مقعدين داخل السرادق وسألنا الانتظار لأن « البيه » سيشرف حالا بمجرد الانتهاء من صلاة الجمعة .

وجلسنا برهة ، وقد تعالت من حولنا أصوات المكبرات تتبادل السباب والشتائم .. ويعلن كل عن صاحبه ، كأنه أوكازيون ، أو سيرك .. حتى لقد خشيت أن يخطئ أحدهما فيعلن عن صاحبه قائلا : « انتخبوا مرشحكم الأوحد ، قبل ما يلعب » أو « مرشحكم الأوحد بنص فرنك يا بلاش » .

واستمر الضجيج يتعالى مسببًا من الإقلاق والإزعاج ما لا يمكن تصوره .. وبدأت أحس بوطأة الحر داخل السرادق ، وجف حلقى مرة أخرى .. فانتهزت فرصة غفلة من الرجل الواقف على باب السرادق ، ثم تسللت وصاحبى من فتحة فى نهايته ، ووجدنا أنفسنا مرة أخرى طليقين فى الشوارع .

وسألنى صاحبى :

ــ إلى أين ؟

ــ إلى الطرف الآخر .

وهز صاحبى رأسه متسائلا عما أعنى فقلت مفسرًا :

ــ إلى خطوط العدو .

ــ أى عدو ؟

ــ المرشح الآخر حتحت باشا .

ــ ولِمَ ؟

ــ نشرب كوبين آخرين من الشراب .. ألديك مانع ؟

ـــ أبدًا .. ليس لدى ما يمنع .. من أن نمر على جميع المرشحين .. ما دامت المسألة فيها شربات .

ودخلنا فى الشارع المجاور فواجهنا السرادق الآخر وقد علق عليه الميكروفون والافتة .. تمامًا كالسرادق الأول لا يفترق عنه فى شىء سوى الاسم .

وقفنا أمام مدخل السرادق متظاهرين بقراءة اللافتة منتظرين أن ندعى إلى الداخل كما سبق أن دعينا فى السرادق الأول ، وأن نشرب الشربات فى صحة حتحت وعلى روح عبد الواحد .. كما سبق أن شربنا فى صحة عبد الواحد وعلى روح حتحت .

ولكن أحدًا لم ينادنا و لم يدعنا للتفضل .. وطال بنا الانتظار والتلكؤ حتى أصابنا الملل ، و لم أجد بدًا من أن أسحب صاحبى من يده وأقتحم السرادق بلا دعوة .

ودلفنا إلى الداخل ، وتلفت حولى .. فلم أجد أثرًا للشربات .. ووجدنا السرادق خاليًا . ولكنى استطعت أن أميز بعد برهة رجلا قد جلس فى أحد الأركان مستغرقًا فى النوم .

واقتربت منه وصحت محييًا « السلام عليكم ».. لعله يستيقظ ، ويقدم لنا الشربات .

وهب الرجل من نومه فزعًا وأجاب فى خوف :

ـــ عليكم السلام ورحمة الله .. أهلا وسهلا .تفضلوا .

وجلسنا على مقعدين مقابلين للرجل ، وانتظرت أن يقوم صاحبنا لإحضار الشربات .. ولكنه ـــ لشدة الأسف ـــ عاود الجلوس .. و لم تمض لحظة حتى علا شخيره واستغرق فى النوم مرة أخرى .

وكرهت أن يخذلنا الرجل ، وأن نحرم شربات حتحت ، فصحت بأعلى صوت محاولا إيقاظ الرجل :

ـــ وحدوه .

وهب الرجل مرة أخرى فى فزع شديد وأجابنى :

ـــ لا إله إلا الله .

ثم هبط مرة أخرى على مقعده ، وهمّ بأن يغمض عينيه .. ولكنى صممت على ألا أعطيه فرصة للنوم فصحت به :

ـــ ازاى الصحة يا عم ..

ـــ محسوبك عوف .. الحمد لله .. رضا .

وبدأت أستدرج الرجل إلى ناحية الشربات .. عله يكون ناسيًا فأذكره :

ـــ هذا الحر لا يحتمل .

ـــ ربنا يلطف .

ـــ ألا يمكن أن أجد عندك كوب ماء ؟

ـــ بالطبع .

وخرج الرجل من السرادق .. ولم أشك حينئذ أنه سيعود بالشربات ، ولكنى فجعت عندما أبصرت به يعود بكوب ماء يبدو أنه أحضره من الحنفية رأسًا .

وشربت من الكوب جرعة ، ثم أعدته إليه بتأفف وقلت مؤنبًا :

ـــ لقد سمعنا أن عبد الواحد بك يسقى ضيوفه شربات ؟!

وهز الرجل رأسه وقال :

ـــ على قد حاله .

ودهشت من إجابة الرجل ، ولكنه أردف مفسرًا :

ـــ عبد الواحد بك يسقى شربات .. لكن حتحت باشا يقدم غداء .. لقد ذبحنا اليوم عجلا .. وسنحضر صوانى الفتة ، بمجرد أن يعود الباشا من صلاة الجمعة .

ولم يكد الرجل ينتهى من قوله حتى سمعت ضجة تقترب من السرادق ، ولمحنا مظاهرة كبيرة تلوح من على بعد .

وأخيرًا وصل « حتحت باشا ».. محمولا على الأكتاف ، وقد علت من حوله الهتافات .. « يحيا نصير الحرية » ، « يحيا مرشح الاستقامة ».. « نموت ويحيا حتحت » .. « نحن فداؤك يا حتحت ».. « كرسى النيابة ينتظرك يا حتحت » .. ثم انقطعت هذه الهتافات الحماسية .. واستبدل بها هتاف .. ملحن .. أخذ الهاتفون يرقصون على نغماته .. وقد تربع المرشح فى الوسط على أكتاف بعضهم .. وأخذ واحد منهم يصيح « عايزين مين ؟» فيرد عليه الجميع « عايزين حتحت ».. « مين نائبكم ؟ ».. « فيش غير حتحت » .. « ابن الدايرة ».. « هوا حتحت » .

وذكرنى هتافهم .. بمنظر كنت أراه فى طفولتى عندما كان يسحب بعض الرجال أمامهم جملا ويسيرون به فى الشوارع صائحين : « بكره من ده ؟ » فيجيب الصبية الذين التفوا حولهم « بيقرشين » .

وازدحم السرادق بالهتافين الصائحين ، واقترب منا « حتحت باشا » .. رجل كل ما فيه محتمل إلا كلمة « باشا » .. لقد كان الرجل أشبه بالخنزير الذكر .. أسود أكرش .. قد علا قفاه سنم كسنم الجمال ، وبدت عليه أبلغ آيات الغباء .

وتقدم الباشا فجلس على مقعد كبير يتصدر المكان .. وبعد برهة .. رأيت ثلة من الفراشين قد أقبلوا يمدون المناضد داخل السرادق .. ويرصون عليها الصوانى المليئة بالثريد الذى علته أكوام اللحم .

وبدأت المعركة الأولى .. معركة الطعام .. بين جمهور الناخبين طرف أول .. وصوانى الفتة واللحم طرف ثان .. وأسفرت المعركة عن انتصار باهر للناخبين .. فقد مسحوا الفتة واللحم من الصوانى مسحًا .

وانتهى القوم من الطعام .. وهجم الفراشون يحملون بقايا المعركة .. ويخلون الميدان من الأنقاض ..

وبدأت الجولة الثانية .. جولة الخطب .. واضطجع القوم على مقاعدهم وقد

انتفخت كروشهم ، واسترخت أطرافهم .. واعتلى المنصة الخطـيب الأول متخذًا مكانه وراء الميكروفون .. وبدأ خطبته قائلا :

ـــ أيها الناخبون الكرام .

وأصلح الخطيب منظاره وثبته جيدا فوق عينيه .. ثم تنحنح ، وعاد صوت المكبر يردد صياحه :

ـــ أيها الناخبون الكرام .

وقلبت البصر فى الناخبين الكرام .. فبدا لى أن « الفتة » قد خدرت أعصابهم وأثقلت أجفانهم .. ولم أشك فى أن أذهانهم قد استغرقت فى سبات عميق .. وأن كلام الخطيب سيذهب أدراج الرياح .

ودوى صوت الخطيب للمرة الثالثة :

ـــ أيها الناخبون الكرام .. كم وددت لو وهب الله لى فصاحة سحبان حتى أعبر عما يجيش فى صدرى .. ولكن يعزينى عن ذلك أن من سأتحدث عنه ليس فى حاجة إلى خطيب فصيح لكى يبين لكم أفضاله ومحاسنه .. فهى واضحة بيننا وضوح الشمس . وليس هنا من ينكرها إلا كل مغرض أعمى .. إن مرشحنا العظيم كان زاهدًا فى كرسى النيابة .. وما كان فى نيته أن يزج بنفسه فى معركة الانتخابات .. لولا أن أولى الأمر فينا قد ألحوا عليه واستجاروا به .. حتى ينقذنا مما نحن فيه ويقيل عثرتنا .. ويكون لنا فى مجلس النواب صوت مدو .. وسيف بتار .. ينادى بمطالبنا ، ويذود عن حياضنا ، ويرد إلينا حقوقنا الضائعة .. ومصالحنا المسلوبة .. لقد لجأنا إليه لأنه منا .. فلو انتخبناه فإن كلا منا يكون قد انتخب نفسه .. وإذا فاز بمقعد النيابة فكأننا كلنا قد فزنا به .

سأسرد لكم شيئًا عن تاريخ حياته .. حتى تروا أى بطل هذا الذى يجلس بيننا جلسة التواضع .

نشأ « زينهم باشا ابن حتحت باشا » فى بيت كريم المحتد عريق الأصل بتفرع نسبه من بيت رسول الله ﷺ .. ولم يحاول هو أن يعتمد على ثروة أبيه ، بل شق

طريقه بنفسه .. وبدأ يخوض غمار الحياة معتمدًا على عزيمته وعلى خصاله .. وجلده وقوته .. فأخذ يثب من نجاح إلى نجاح .. وهكذا نشأ الرجل نشأة عصامية بحتة رغم ثراء عائلته ، فجمع بذلك قوة النشأة وطيب الأصل .

وهكذا ترون أن « زينهم باشا » مفخرة الحى ، بل مفخرة الوطن .. « زينهم باشا » ابن عابدين البكر .. الذى يمسك التراب فيضحى تبرًا .. الرجل المفضال الكريم .. الذى يغدق على المحتاجين والفقراء ويسد حاجة المعوزين .. والذى له علينا فى كل يوم آية فضل وإحسان .

هذا هو « زينهم باشا ».. الساحر البيان .. الفصيح اللسان .. الثابت الجنان .. القوى الإيمان .. الشديد الحنان ، الذى لا يرد سائلا ، ولا يخيب مسعى .. هذا هو زينهم باشا محط آمالنا ومعقد رجائنا .

ومد الخطيب يده فجزع كوبًا من الماء .. ثم جفف عرقه بمنديل فى يده ، وعاد يتمم خطبته :

ـــ هذا هو زينهم باشا .. الرجل النموذجى الكامل ، الذى لم تشب سمعته شائبة ، الرجل القويم ، النزيه الصادق الوعد .. العف اللسان .. الشديد فى غير عنف .. اللين فى غير ضعف .

قارنوا بينه وبين هذا الأفاق الذى يحاول أن يتطاول إليه .. فيزاحمه فى دائرته .. هذا الدجال المحتال ، المتقلب ، المتلوّن .. يا لضيعة الدائرة ، التى هانت حتى أضحى أمثاله يرشحون أنفسهم لكرسى نيابتها !! كيف يجرؤ على منافسة زينهم باشا ؟! كيف يجرؤ على أن يقارن نفسه بهذا البطل العبقرى الذى يتوقد ذكاء ونشاطًا ؟

وفجأة توقف الرجل عن الاسترسال فى خطبته فقد قاطعه صوت شخير عال ينطلق مصحوبًا بصفير طويل ، ونظر حوله يبحث عن مصدر الشخير والصفير .. فإذا هو به نفسه البطل العبقرى الذى يتوقد ذكاء ونشاطًا .

وصمت الخطيب ، وران فى السرادق سكون إلا من صوت الباشا الشاخر

الصافر .. وقد سقط رأس الخنزير على صدره وبرز سنام الجمل فى قفاه وتدلت شفته السفلى وسالت ريالته على صدره .

ونظر إليه الخطيب وأخذ يهز رأسه فى صمت ودهشة .. ووجدت صاحبى « أبا شولح » يقرصنى فى يدى .. وفهمت ما يعنى ، وخفقت فى وجه الخطيب فإذا بأعراض الأخلاق قد بدأت تظهر عليه .. وإذا بجرعة الماء قد فعلت مفعولها .. ووجدتنى أرهف السمع والبصر إلى مشاهدة ما يوشك أن يقع من أحداث خطيرة .

ومضت فترة صمت والخطيب يهز رأسه وينظر إلى « زينهم باشا » دون أن يتكلم .. وأخيرًا نظر إلينا ، وسألنا فى لهجة يائسة ساخرة :

ــ بقى بالذمة دا منظر ؟!.. أهذا شكل باشاوات ؟.. أهذا هو البطل العبقرى الذى يتوقد ذكاء ونشاطًا ؟! أهذا الذى تسيل ريالته كالمعاتيه والمجاذيب هو الذى سيطالب بحقوقنا فى مجلس النواب ؟! والله لقد ظلمنا أنفسنا وظلمنا مجلس النواب !

يا لضيعتنا وضيعة البلد التى تهب أمثالك كرسى النيابة : وأنت لا تستحق إلا كرسيًا فى قهوة بلدى .. أو كرسى مطبخ !

أأنت من نسل النبى ؟.. أستغفر الله العظيم .. أهذا الشكل الحلاليفى الزرايبى من نسل النبى ؟!

أبوك حتحت باشا من بيت كريم المحتد عريق الأصل ؟! الله يرحم أبوك .. ويرحم القرد والمعزة والرق ، وجراب الحاوى .. الله يرحم المعلم حتحت .. الذى حفيت قدماه من فرط اللف فى الحوارى .

أأنت القويم ، النزيه .. الصادق الوعد ، العف اللسان .. يا من لم تر حارات عابدين أقذر منك لسانًا ولا أحط خلقًا !؟ أأنت الرجل الكامل النموذجى.. أم الرجل النموذجى السيئات الكامل النقائص ؟!

مالك والنيابة !! هل ظننت أن المال الذى جمعته بالغش والسرقة والتجارة فى

السوق السوداء يستطيع أن يهبك كل شيء .. قم لعنة الله عليك وعلى أبيك وعلى كل من ينتخبك .

واستيقظ « زينهم باشا » على صوت الخطيب ، وقفز من مكانه فزعًا . ووقف برهة ينصت مأخوذًا إلى اللعنات التي تكال له .. ويحملق في الخطيب في ذهول شديد .. ثم أفاق لنفسه ، وصاح بخدمه يأمرهم بالقبض على الرجل المجنون وإلقائه خارج السرادق أو تسليمه للشرطة .

وتكأكأ الخدم على الخطيب .. فأوسعوه ضربًا .. واختفوا به عن أبصارنا وقد علا صياحه إلى عنان السماء .

واعتلى « زينهم باشا » منصة الخطابة مصرًا على أن يخطب في الناخبين بنفسه غير معتمد على أحد من الخطباء المأجورين ، ووقف أمام المكبر وقد بدا عليه ارتباك شديد ، وأخذ يتحسس الكرافتة .. ثم يضع يده في جيب البنطلون ويخرجها بضع مرات .. ويتنحنح ويبصق .. ثم يفرغ ماتبقى من المياه في الدورق فيملأ به الكوب ويشربه .

وأخيرًا نطق الباشا .. بعد أن وضع أمامه ورقة مكتوبة :

ـــ أبناء وطنى .. لست أريد أن أثقل عليكم بالخطب الرنانة . فإن شعارى دائمًا .. العمل فى صمت .. لا أقول إلا ما قل ودل ، ولا أفعل إلا ما أفاد ونفع .

إيها الإخوان الكرام .. سألخص لكم مبادئى فى كلمات قلائل ، وسأبين لكم الأغراض التى أنوى تحقيقها إذا ما فزت بأصواتكم وأصبحت نائبًا عنكم .

إن أهدافى التى أبغى الوصول إليها تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، أو أهداف للوطن وأهداف للدائرة .

أما أهداف الوطن فهى وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى وطرد آخر جندى إنجليزى من مصر والسودان .. هذا عن الناحية الخارجية .. أما عن الإصلاح الداخلى فسيكون هدفى إصلاح حال الفلاحين والعمال ورفع مستوى المعيشة بين الطبقات الفقيرة .

أما أهداف الدائرة .. فإنى أعاهدكم ألا يبقى بينكم عاطل .. أو مظلوم ، وأن أفتح صدرى لكم جميعًا .. وأن أكون فى المجلس كأننى خلاصتكم .. أو كأنكم فى المجلس .. وأن أفعل ..

وصمت الرجل ، ثم أخذ يكرر :

ـــ وأن أفعل .. وأن أفعل ..

ثم نظر إلى يمينه فجأة وصاح غاضبًا موجهًا القول إلى رجل معمم يجلس بجواره :

ـــ انت يا شيخ على .. الله يخرب بيتك .. ماذا كتبت بعد « أن أفعل » ؟! إن خطك لا يقرأ .

ثم كور الورقة فى يده وقذف بها فى وجه الشيخ « على » وبصق عليه .

و لم أكن فى حاجة هذه المرة إلى قرصة صاحبى حتى أدرك أن النفاق قد تبدد من نفس « زينهم باشا » ، وأن جرعة الماء قد سرى فيه مفعولها .. فقد تبينت أعراض الأخلاق على وجهه ، واضحة جلية .

وبدا لى كأن هناك صراعًا فى جوف الرجل ، وأن النفاق المتحكم فى نفسه يأبى أن يتوارى وراء الصراحة الطارئة .. وأنها تقاومه مقاومة شديدة .. ومضت برهة والرجل تبدو عليه حيرة شديدة ، وكأنه هو نفسه فى دهش مما يحدث فى داخله من صراع خفى ومعركة مستترة ، وأنه بات مذهولاً من هذا الدافع العجيب الذى يدفعه إلى أن يكون إنسانًا آخر غير نفسه .

وظللت أرقب الرجل مراقبة دقيقة .. كما نرقب أرنبًا أو فارًا تجرى عليه إحدى التجارب .

وفجأة رأيت الرجل يندفع فى قهقهة عنيفة عالية .. ثم يصيح بصوت يتخلله الضحك :

ـــ شيخ « على » .. الله يخيبك يا شيخ « على ».. ما هذا الكلام الفارغ الذى كتبته لى فى الورقة .. مبادئ إيه وهباب إيه .. من قال لك إنى صاحب مبادئ.. أنا

صاحب عمارات .. وصاحب أطيان .. وصاحب مصانع .. وصاحب ثروة .. وصاحب لقب .. وصاحب كل شيء إلا المبادئ .. اللهم إلا إذا كان النفاق والغش وللؤم .. والاحتيال .. تسمى مبادئ .

ما هذا التهريج الذى حشوت به الورقة ؟!

وحدة وادى النيل ؟!

وانطلق الرجل مرة أخرى فى قهقهة شديدة وأخذ بدنه يهتز ويترنح ، ثم عاد صياحه :

ـــ أأنا أدخل مجلس النواب لأحقق وحدة وادى النيل ؟.

والله لقد هزلت .. ولو كانت وحدة وادى النيل ستنتظر حتى تتحقق على يدى .. فلا كنا ولا كانت الوحدة .

ثم لماذا نطلب وحدة وادى النيل ؟

وماذا يمكن أن نفيد من وحدة وادى النيل .. ونحن شعب إذا نقل موظف منا إلى جرجا .. شيعناه بمناحة !

هل تعلمون أنه قد مضى علىّ ثلاثة أشهر ولا عمل لى إلا التوسط فى نقل « محمد » ابن اختى .. حتى أعيده إلى القاهرة . من أين ؟.. من الجيزة .

مالنا ولوحدة وادى النيل .. أليس من الأفضل أن نطالب بوحدة مصر أولا .. ومن نطالب بالوحدة !؟ الإنجليز ؟!

أنا رجل جاهل .. ولا أدعى قط علمًا بالسياسة .. ولكننى مع ذلك أعرف أن أبسط طرق الوحدة أو الاتحاد بين فردين أو جماعتين .. هو التزاور والاختلاط والامتزاج والتحاب وتبادل المنافع حتى يصبح لا غنى لأحدهما عن الآخر .. وحتى يصبحا كفرد واحد ولا تستطيع أن تحول بين اتحادهما أية قوة .. أما أن يظل أحدهما بمنأى عن الآخر .. كالكسيح المقعد .. ثم يتباكى ويتصايح .. ويعلن أنه يريد الوحدة .. فذاك هو الهذر والتغفيل .

على أية حال هذا مجرد حديث .. أنا لا شأن لى بهذه الشئون السياسية ،

وما فكرت قط فى الوحدة ولا فى غيرها .

أما الجلاء .. فلا أكتمكم القول أنى آخر من أفكر فيه أو أرحب به .. كيف لا .. ولحم أكتافى من أموال الخليفة .. ومما وردته لها خلال الحرب .

إن هدفى الأول من دخول مجلس النواب هو أن أصبح نائبًا محترمًا ، وأن يقال لى حضرة النائب المحترم .. ألا ترون معى أنه لقب ضخم رنان .. وأنه يتيح لى كذلك أن أخوض معمعة السياسة .. ومن يدرى ربما استطاع أن يقفز بى إلى كرسى الوزارة فأضحى معالى .

أيها الناخبون الكرام .. أنتم كرام حتى تنتخبونى .. فإذا ما فزت فى المعركة فأنتم أوغاد لئام .

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لى من تملقكم وخطب ودكم ومجاملتكم ورشوتكم بالطعام والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلونى نائبًا .. فإذا ما جعلتمونى .. فاغربوا عن وجهى فما عادت بى إليكم حاجة .. إياكم أن تكونوا حسنى النية فتسألونى الوفاء بالوعود .. إياكم أن تطلبوا منى التوسط فى قضاء حاجتكم فإنى أؤكد لكم أنى لن أجد من وقتى فسحة لسماع سخافاتكم .

أيها الرعاع الحوَش .. لقد ذبحت لكم عجلا .. أنزله الله فى جوفكم بالسم الهارى .. وأطعمتكم « فتة » جعلها الله فى بطونكم نارًا كاوية .. أنتم قوم لا تتحركون إلا للمنفعة .. منفعة الجيوب أو البطون .. أليس كذلك يا شيخ « على » ؟.. لقد لدعت منى ثمنًا للخطب التى كتبتها جنيهين غير الغداء والعشاء .

أيها الناخبون اللئام ..

لِمَ نضحك على بعضنا ؟.

لِمَ لا نكون صرحاء فنكف عن هذا الخداع !؟ أنتم سفلة ، وأنا أشد منكم سفالة . أنتم خبثاء أشرار ، وأنا أكثر منكم خبثًا وشرًا .. أنتم نفعيون ، وأنا بلا مبادئ .. ما الداعى إذن لأن نتشدق بهذه الخطب الرنانة ، وبوحدة وادى

النيل ، ورفع مستوى المعيشة ، وغير ذلك من الأقوال البرّاقة الخداعة !؟

أنا أريد أن أكون نائبًا ، وأنتم تستطيعون أن تعطونى ما أريد .. المسألة لا تزيد عن أن تكون مجرد صفقة .. « خد واعطى ».

سآخذ أصواتكم وأعطيكم ثمنها .. لا تنتظروا منى وعودًا ، فأنا لا أشترى « شككا » سأدفع لكم نقدًا .. الصوت بخمسين قرشًا .. ما رأيكم ؟

وتعالت الصيحات من أركان السرادق مختلفة مشوشة « خمسين قرش يعملوا إيه ؟» أو « خليه بجنيه » أو « موافقين » .

وعاد « زينهم باشا » يصيح فى وسط الجمع :

— لن أدفع أكثر من خمسين قرشًا .

ثم التفت إلى يمينه قائلا :

— يا شيخ على .. استبدل كل الكلام الذى كتبته للنشر فى الأهرام بما سأقوله لك :

« يعلن زينهم باشا حتحت أهل دائرة عابدين اللئام أنه قد جعل لأصواتهم تسعيرة محددة هى خمسون قرشًا للصوت وسيكون الدفع فورًا أمام مكاتب الانتخابات ، والذى لا يعجبه السعر .. فملعون أبوه فى الأرض » .

وهنا تعالى صياح الناخبين :

— ملعون أبوك انت لأبو اللى يتشددو لك .

وبدأت المعركة حامية الوطيس ، تعالى الصراخ وتطايرت الكراسى فى الهواء ، وانهار السرادق على من فيه .

وخرجت وصاحبى نعدو .. هاربين من المعركة .. حتى وصلنا إلى شارع حسن الأكبر ، فوقفنا نلهث ونجفف عرقنا المتصبب ، ووجدت صاحبى ينظر إلىّ حانقًا ويقول :

— أنت المسئول عن كل هذا .. لقد ارتكبت فعلا نكرًا .. هذه الدماء التى سالت ، والمعارك التى نشبت ، أنت المسئول عنها . إن الذنب كله فى عنقك .

ـــ عنقى أنا ، و لم !؟ أهو أنا الذى دفعتهم إلى التغارك والتقاتل ؟

ـــ أنت الذى أزلت من نفوسهم النفاق .. أنت الذى كشفت ما ستر من خبائثهم .. لقد كان لهم من النفاق حجاب واق فهتكته .. وأضحى كل منهم يرى صاحبه على حقيقته ففزعوا وجزعوا .. ألم أحذرك من كل هذا ؟

ـــ صبرًا لا تخف عليهم .. لقد قلت لك إن كل انقلاب لا بد له من ضحايا .

(١٥)

وباء الأخلاق

« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء . لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصاب وفيه البلاء .. اشربوا فيشي إن أمكن ففيه الشفاء وفيه الوقاء حفظكم الله من الأخلاق ومن كل وباء » .

وصلنا إلى باب الخلق .. فوجدنا فى الميدان صخبًا وضجيجًا ، وسمعنا صفافير تطلق ، وأبصرنا حشدًا من الناس أمام المحافظة ، وسألنا عما حدث ، فقيل لنا إن بعض المذنبين قد فروا من التخشيبة .. لأن الحرّاس قد أطلقوا سراحهم زاعمين أنهم لم يفعلوا أكثر مما يفعل كثير من الزعماء والوزراء والكبراء الذين ما زالوا مطلقى السراح يتمتعون بكامل حريتهم وجاههم ونفوذهم وسلطانهم .

ونظر إلىّ صاحبى فى أسف ، وقال :

ــ وهذا أيضا أنت سببه .. فلا بد أن الحرّاس قد شربوا من المياه الجديدة ففعلوا ما فعلوا .

ــ ونعم ما فعلوا .. فقد حققوا مبدأ المساوة .. فإما أن يطلق سراح المذنبين الفقراء ، وإما أن يقبض على المذنبين من الكبرياء ، ولقد فعلوا هم ما يستطيعون فعله فأطلقوا سراح مذنبيهم .

وسرنا فى شارع محمد على متجهين إلى العتبة .. ولم نكد نسير فى الشارع برهة حتى وقفنا متسمرين ، وقد تملكنا ذعر شديد فقد رأينا جسدًا يهوى إلينا من الدور الرابع لأحد المنازل .

ووقفنا ننظر إلى حطام الجسد مرتاعين ، ونظرنا إلى أعلى فوجدنا رجلا يقف فى الشرفة التى هوى منها الجسد وسمعناه يصيح بنا ضاحكًا :

ـــ ما تخافوش .. دى حماتى .. عقبال عندكم .

وتكأكأ الناس حول الجسد ، وازداد التزاحم ، وتعالى الصياح ، وتسللت وصاحبى من بين القوم .. ونحن نسمع تعليقات القوم حول الحادث :

« لا .. بسيطة دى حماة على أفندى » .. « ما تتخضوش دى حماة على أفندى » ، « ما فيش حاجة .. دى حماة على افندى وقعت من الدور الرابع ».

ووجدت صاحبى ينظر إلىّ متسائلا وقد أبصر بوجهى علائم حزن :

ـــ انت زعلان على حماة على افندى ؟

ـــ لأ .. أنا زعلان لأنى ساكن فى الدور الأول .

ونظر إلىّ صاحبى ضاحكًا وأجاب :

ـــ يا سيدى .. من لم يمت بالسيف مات بغيره .

وعاودنا السير .. ونحن نسمع من كل بيت نمر به صياحًا وضجيجًا ، ونبصر فى كل حانوت .. معركة حامية .. ووجدنا الشحاذين قد تبدّلت دعواتهم فأصبحت لعنات ، ولم نعد نسمع « ربنا يجعل بيت المحسنين عمار » ، بل « هات حسنة الله يخرب بيتك » .

ووصلنا إلى العتبة ، فإذا بالترام معطل ، وحركة المرور واقفة ، والمعارك قد اشتد أوارها .. واتجهنا إلى ميدان الأوبرا .. فلمحنا عربة إسعاف تمر كالبرق .. ثم تقف أمام الكونتنتال .. وبعد برهة لمحنا جسدًا يخرج على نقالة وقد عصب رأسه وشد ذراعه إلى عنقه ، وسألنا رجلا يقف على قارعة الطريق عما حدث وعما يعرفه عن الرجل الذى حملته عربة الإسعاف ، ونظر إلينا الرجل وأجاب :

ــ ده إبراهيم باشا زكى .

ــ إبراهيم باشا زكى وزير الأشغال ؟

ــ أجل .

ــ وماذا حدث له ؟

وهز الرجل كتفيه وأجاب ببساطة :

ــ كان عنده حفلة تكريم .

ونظر إلىّ صاحبى فى غيظ وسألنى :

ــ أيعجبك هذا ؟

ــ جدًا .

ــ أنت رجل سوء وشر .

ــ أبدًا والله .. هذه هى الطريقة الوحيدة لإبطال حفلات التكريم والكف عن هذا التهريج وتلك المسخرة . هل تظن أن هناك وزيرًا سيقبل أن تقام له حفلة تكريم .. بعد أن لقى زميله من وسائل التكريم ما حمله إلى الإسعاف ؟

وكان التعب قد أخذ منا مأخذه .. فقد بلغت الساعة السادسة مساء ، وقد أمضينا اليوم فى حركة مستمرة ننتقل من مكان إلى مكان .. نشاهد زوال النفاق من النفوس وآثاره المروعة .

ونظرت إلى صاحبى وقلت له :

ــ إنى لم أعد أحتمل السير .. ألا تحس أنت بالتعب ؟

ــ إنى أشد منك تعبًا .. ليتنا أرحنا أنفسنا وأرحنا الناس .. ليتك لم تلق المسحوق فى النهر فتلوثه بالأخلاق ، من يدرى كيف سينتهى الحال بالدنيا وبالناس .. إن بى عليهم جزعًا شديدًا .

ــ لا تخف .. سليمة إن شاء الله .. هيا بنا إلى الحانوت نقضى فيه ليلتنا حتى نستطيع أن نبدأ فى الصباح .. جولة جديدة .

وعندما انتهيت من قولى ، وجدت رجلا قد وقف بجوارنا يرهف السمع

وينصت إلينا وقد بدت عليه علامات الدهشة ، وخيل إلىّ أنه من المخبرين ، فلم أجد خيرًا من أن أشرع بالفرار وصاحبى .. قبل أن يتسرب إليه الشك بنا فيلقى القبض علينا .

واتخذنا طريقنا إلى الحانوت فوصلناه قرب العشاء ووقفنا أمام الباب نتحسس موضع المفتاح فى الظلمة .

ثم أضأنا عود ثقاب استعنا به على فتح الباب .

ودخلنا الحانوت وأخرج صاحبى الفأر فأطلقه بين الشوالات ثم أشعل المصباح وفرش لنا شوالين على الأرض تمدد على أحدهما وتمددت على الآخر .. ولم تمض لحظة حتى رحنا فى سبات عميق .

* * *

ولست أدرى كم مضى علينا ونحن فى سباتنا ، ولكن استيقظت فجأة على طرقات شديدة بباب الحانوت وأصوات تتصايح :

ـــ افتح .. افتح .

وهببت من نومى فزعًا ، ووجدت صاحبى قد وقف بجوارى ينتفض كريشة فى مهب الريح ، وأصبنا بحيرة فلم ندر ماذا نفعل .. وعادت الطرقات تتوالى والأصوات تصيح بنا بشدة :

ـــ افتح .. افتح .

وراح صاحبى يقول بصوت مرتعد :

ـــ من ؟

وأجابه صوت غليظ صاخب :

ـــ قلنا لك افتح .

ورأينا الباب يهتز تحت طرقاتهم ويكاد يتهاوى أمامهم .

وسألنى صاحبى هامسًا .

ـــ من تظن الطارقين ؟

ـــ هل عرفتما جرمكما الشنيع ؟.. هل رأيتما مدى ما جرّه على الناس من بلاء ومصاب ؟ لقد تركتما البلد كمرجل يغلى .. وأنتما هنا راقدين فى هدوء كأنكما ما فعلتما إثمًا ولا جرمًا ؟!

وبدأت أستعيد رباطة جاشى وصحت بالرجل :

ـــ ما هذا الذى تهرف به ؟! إثم وجرم .. ووباء وجراثيم .. منذ متى كانت الأخلاق وباء ؟.. هل تظن أننا ننكر ما فعلنا .. أو أننا نخشى مغبته ؟.. إنى أنا الذى وضعت مسحوق الأخلاق فى النهر .. وأنا الذى لوّثت المياه ـــ على حد قولكم ـــ بجراثيم الأخلاق .. ونشرت وباء الأخلاق بين الناس وضيعت من نفوسهم النفاق .. أنا الذى سأصلح الدنيا وأمحو شرورها .

وإنى وإن كـنت الأخير زمانـه لآت بما لم تستطعـه الأوائـل

وتبادل الشرطة النظرات وهزوا رءوسهم ثم قال أحدهم :

ـــ مجنون !!

وصدق الآخرون على قوله .. وأجابه أحدهم :

ـــ وأشد منهم جنونًا هذا الأحمق الذى بجواره .. الذى تركه حتى « أتى بما لم تستطعه الأوائل » ، فمزق عن الناس حجب النفاق ، وكشف دخائلهم .. فولوا من بعضهم فرارًا وملئوا رعبًا .

وصمت برهة ثم صرخ بى :

ـــ هيا تقدم أمامى .

ومد يده فأمسك بى من قفاى كأى أفاق شرير ، وتقدم آخر ففعل بصاحبى نفس الفعل .. وقد حاول التخلص من قبضته صائحًا :

ـــ لحظة واحدة أحضر شولح وأغلق الحانوت .. إنى أخشى على البضائع التى به .. من يدرى قد تنقلب الدنيا .. فتصبح ذات قيمة ويروج سوقها ويقبل عليها الناس .

وتركه الشرطى برهة حتى أحضر فأره ثم أغلق الحانوت . وتقدم بجوارى

وهززت كتفى وأجبته :

ــ من يدرى .. ربما كانوا زبائن من الزبائن الذين فتحت شهيتهم على الأخلاق الحميدة فأقبلوا مندفعين يريدون أن يبتاعوا منها قبل أن يسبقهم غيرهم .

وهز رأسه متشككًا وقال :

ــ لا أظن .

ــ قد يكونون لصوصًا تذوقوا المياه الجديدة وأدركوا أن المستقبل قد أضحى للأخلاق الحميدة ، فأقبلوا يسرقونها ويبيعونها للناس فى السوق السوداء .

ــ لا أظن .. فلو كانوا قد تذوّقوا المياه الجديدة لمنعتهم من السرقة .

وهنا كان عيل صبر الواقفين بالباب .. وأخذ الباب يترنح أمامهم فلم نجد بدًا من أن نفتحه .

وفتحنا الباب .. فراعنا أن نجد الشرطة ومعهم ذلك الرجل الذى كان ينصت إلينا .

ولم تمض برهة حتى كنا مكبلين بالأغلال .

ووقفت أتساءل فى دهشة عن سبب إلقاء القبض علينا ، فأجابنى الرجل الذى كان ينصت إلينا :

ــ كفى استهبالا .. أنت أدرى الناس بالجريمة التى ارتكبتها .

ــ أنا لم أرتكب أية جريمة .. ولا أدرى شيئًا عن التهمة الموجهة إلينا .

ــ أيها المجرم الشرير .. ألم تعترف أنك أنت نفسك الذى لوثت المياه بالجراثيم ؟

ــ أية جراثيم ؟!

ــ جراثيم الأخلاق .. لقد أفسدت الدنيا وقلبت حالها .. لقد أصبت الناس بوباء الأخلاق ، وأضعت من نفوسهم الرياء والنفاق .. ولن ينفع فى شفائهم بنسلين .. ولا مصل واق .

ووقفت وصاحبى أمام الشرطة وقد تملكنا دهش شديد وأخذنا ننظر إلى الرجل الثائر الحانق وهو يكيل لنا التهم ويهدر صائحًا :

وسرنا وقد أحاط بنا الحراس .. الذين أنبأونا أننا سنوضع فى السجن رهن التحقيق .

وخطر لى أن أحاول رشوة الحراس حتى يطلقوا سراحنا ، ولكنى خشيت أن تكون المياه الجديدة قد سرت فيهم وأن يكونوا هم الآخرين قد أصيبوا بوباء الأخلاق فيرفضوا الرشوة وتكون جريمتنا مضاعفة .

وكان النهار قد بدأ .. ورأينا باعة الجرائد ينطلقون فى الطرقات صارخين :

« وباء الأخلاق يا جدع ـــ الميكروب الجديد ـــ الكارثة الكبرى ».

وبدا لى من صياح باعة الجرائد ومما رأيت فى الشارع من آثار التخريب والتدمير وانتشار رجال البوليس فى الطرقات .. أن المسألة جد خطيرة .. أخطر كثيرًا مما كنت أتصوّر .

واستأذنت الحرّاس فى أن نبتاع بعض الجرائد والمجلات حتى نطلع على ما حدث فى البلد من تطور وعلى ما حلّ بالناس من نوائب ومصائب . وناديت أحد الباعة فابتعت نسخة من كل ما معه حتى أتسلى بقراءتها فى الطريق وفى السجن .

وجلست فى الترام ، وأمسكت بالصحيفة اليومية الأولى .. فقرأت فى صفحتها الأولى بالخط العريض :

« ظاهرة عجيبة ينتج عنها حوادث خطيرة »

ثم كتب أسفل هذا العنوان عناوين أخرى فرعية أصغر حجمًا من العنوان الرئيسى جاء بها :

« أحد الوزراء يضرب ضربًا مبرحًا فى حفلة تكريمه »

« خطيب يجن فى أحد الجوامع »

« قتل ما يقرب من ألف وخمسمائة حماة »

« فرار ما يربو على الخمسة آلاف زوج من زوجاتهم »

« أحد العظماء يموت ضربًا بالنعال من بعض أتباعه الأوفياء .

« الشيخ نور العيون يعلن ثورته على المايوه ذى القطعتين ويقول إن واحدة منها

فيها الكفاية .. ويحبذ مبدأ العراة والسير ملط » .

« الأستاذ بلبوش رئيس جمعية منع المخدرات .. يلقى محاضرة فى قاعة إيوارت عن تمييز « الجون هيج » عن « الديوارس » ويختم محاضراته بذكر بعض فوائد الحشيش وبقوله أنا جدع » .

و لم تدهشنى العناوين كثيرًا فما كنت أتوقع أقل من ذلك بعد أن زال النفاق من النفوس ، وأخذت أقلب صفحات الجريدة بين يدى .. فوجدت كل ما فيها قد تغير وتبدّل .

أجل .. إن الجريدة نفسها قد أضحت بلا نفاق .

من يتصور هذا ؟!! من يتصوّر صحافة بلا نفاق ؟ أو نفاقًا .. بلا نفاق !

وكنا قد وصلنا إلى ميدان باب الخلق ، وقادنا الحرّاس إلى ـ التخشيبة ـ حيث أدخلت وصاحبى إلى حجرة ضيقة قد وضع على أرضها المسفلتة « برش ودكة خشبية » .

وتربع صاحبى على الأرض وجلست على الدكة ، ورأيته ينظر إلى ويقول فى استسلام ومسكنة :

ـ أيعجبك هذا ؟

ـ صبرًا .. فأخلق بذى الصبر أن يرى فرجًا .

ـ صبرًا إلى متى .. إلى أن يوضع حبل المشنقة فى عنقينا ؟!

ـ حبل المشنقة !! فال الله ولا فالك .. إنه ما زال أمامنا تحقيق طويل .. ومحاكمة أطول .. نستطيع أن نطلب فيها شهادات الزعماء والوزراء .. فيضيعون الساعات الطوال فى الدفاع .

ـ الدفاع عنا ؟!!

ـ لا .. الدفاع عن أنفسهم.

ـ ولم ؟

ـ فرصة سانحة ، يشيدون فيها بفضائلهم ومحاسنهم ويعددون مساوئ

خصومهم .. ولا تنس كذلك الوقت الذى سيضيعه المحامون .. فى سبيل الظهور والشهرة ، لا فى سبيل الدفاع .

وأطرق صاحبى برهة .. ثم رفع بصره أخيرًا وقال فى حزن :

ــ على أية حال .. لست أرى فائدة فى كل هذا الوقت الضائع ما دمنا سنشنق إن عاجلا أو آجلا .

ــ نشنق ؟ أيها الغبى .. علام نشنق ؟ إن القتل قد أضحى ــ ديته ــ عشر سنين . فماذا فعلنا نحن حتى نشنق ؟!

ــ هذا القتل الذى تعنيه .. قتل سياسى .. أما نحن فحاولنا تلويث المياه بجراثيم الأخلاق .. ونشرنا بين الناس وباءها الفتاك .

ــ ومن قال لك إن هذه ليست تهمة سياسية ؟

ونظر إلى الرجل فى دهش وتساءل :

ــ وأى سياسة فيها !!

ــ نستطيع أن ندعى أننا لم نقصد بتلويث المياه الجراثيم سوى إصابة خصوم الحكومة .. الخونة .. الأشقياء .. بداء الأخلاق .. وتبقى الحكومة بلا أخلاق .. تصور الفائدة الكبرى التى تستطيع أن تجنيها الحكومة من ذلك ، والضرر البليغ الذى يصيب خصومها .

تصور خصوم الحكومة ومعارضيها .. وقد فقدوا كل قدرة على الغش والخداع والتغرير بالشعب .. والتهويش والتهويل والتهريج ، والجرى وراء الحكم ، والمصلحة الذاتية ، والأنانية والكذب والرياء والنفاق .

تصور خصومًا شرفاء ومعارضة نزيهة أمينة عفة اللسان .. أمام حكومة لم تصب بعد بداء الأخلاق و لم تشرب ــ المقلب ــ الذى شربته المعارضة وتجرعه الخصوم !

أترى هناك جميلا يمكن أن نصنعه فى الحكومة أكثر من هذا ؟ أهناك سبب أقوى من هذا يحملها على تبرئتنا ؟!

— وهل تظن أن الحكومة ستخدع بادعائنا ؟

— ولم لا ؟

— لأننا لوثنا كل المياه .. فكيف نزعم أننا لم نكن نقصد الحكومة ضمن من قصدنا .

— نستطيع أن نرسل الآن برقية لرئيس الحكومة نحذره فيها من شرب المياه حتى تثبت بذلك حسن نيتنا .

ووجدت الفكرة صائبة .. ووجدت فيها خير منقذ لنا ، وأخرجت من جيبى ورقة وقلمًا وكتبت صورة التلغراف الآتى :

« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .

لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصاب وفيه البلاء .. اشربوا — فيشى — إن أمكن ففيه الشفاء وفيه الوقاء .. حفظكم الله من الأخلاق ومن كل وباء » .

وقرأت البرقية على صاحبى وسألته :

— ما رأيك ؟

ولم يجب على سؤالى بل هز رأسه وقال فى يأس :

— وماذا تفعل إذا رد عليك « شربنا واللى كان كان » ؟

— لا يهم الرد .. المهم أن تصل إليه البرقية حتى تثبت حسن نيتنا ..

وطرقت الباب مناديًا أحد الحراس ثم دفعت الورقة من أسفل الباب سائلا إياه أن يرسل البرقية إلى رئيس الوزراة .

وهبطت على البرش بجوار صاحبى .. فقد كانت جلسة « الدكة » متعبة .. ثم أمسكت بكوم الجرائد .. لأضيع الوقت بالقراءة ، ولأرى كيف أضحت الصحافة بلا نفاق بعد أن أصابها هى الأخرى وباء الأخلاق .

(١٦)

صحافة بلا نفاق

أيها القــراء المخدوعــون .. إن هــدف الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليست الوطنية .. ولا الثقافة ، ولا خدمة الشعب ، ولا حرية الرأى ، ولا رفع منار الفضيلة .. ولا .. ولا .. ولا شيء أبدًا من كل هــذه الخزعبلات .. إن هدف الصحيفة الأول هو بيـع الصحيفـة .. هو المكسب ، هــو أكل المعيش .

فتحت إحدى الصحف الشهيرة فلفت نظرى فى أولى صفحاتها مقال بعنوان « أكل عيش » لأحد كبار الكتاب الذى تلتهب مقالاته حماسة وتفيض إخلاصًا وقوة .

وأدهشنى العنوان بعض الشىء .. فما تعودت أن أقرأ للكاتب الصادق المخلص .. مقالات بمثل هذه العناوين الباردة ، وأخذت فى قراءة المقال فإذا به كما يأتى :

« أكل العيش وما أدراكم ما أكل العيش ؟ أكل العيش يفعل بنا العجب العجاب .. ولكن أهو حقًا مجرد أكل عيش ! أعنى العيش الحاف أو حتى العيش

والغموس .. لا يدفع بنا إلى كل هذا النفاق .. والتهويش والتهريج .. أكل العيش لا يستلزم منا كل هذا الجهد والتفنن فى الرياء والنفاق .. إن الطمع هو الذى فعل .. الطمع لا فى أكل العيش ، بل فى أكل البقلاوة والجاتوه .

من منكم ذاق طعم المصاريف السرية ؟. أقسم لكم أنى معذور فى هذا النفاق .. الذى طالما سقته إليكم فى مقالاتى وأقسم أن أى إنسان كان فى موضعى وذاق مثلما ذقت لما كان أقل حماسة ولا نفاقًا .

أنتم لا تعرفون إلا القليل عما يجرى وراء الكواليس .. كواليس الصحف .. فكل ما تعرفونه هو هذا المظهر الخارجى الذى يبدو لكم على مسرح الصحيفة ، وكل ما ترونه من الكتاب الذين يبدون على صفحاتها .. هو تلك المقالات البراقة الزائفة التى فعل بها الماكياج ما فعل .. والتى تخرج كلماتها من بين أنامل الكتاب .. الأنامل المأجورة .. لا من بين الضلوع أو من أعماق القلوب .

كل ما ترونه أمامكم ليس إلا مقالات بالثمن .. إما لسد خانة وملء فراغ أو لحاجة فى نفس يعقوب .

أيها القراء المخدوعون .. إن هدف الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليس الوطنية .. ولا الثقافة .. ولا خدمة الشعب ، ولا حرية الرأى .. ولا رفع منار الفضيلة .. ولا ولا .. ولا شىء أبدًا من كل هذه الخزعبلات .. إن هدف الصحيفة الأول هو بيع الصحيفة .. هو المكسب .. هو أكل العيش . أما كل ما ذكر فهو ليس من الأهداف فى شىء إنما هو وسائل توصل إلى الهدف الأول .. الربح .. فإذا كانت الوطنية مربحة .. فلتحى الوطنية ، وإذا كان الهزل والفكاهة أكثر ربحًا ، فلتسقط الوطنية وليحى الهزل والفكاهة .. وإذا كان ذكر الفضائح .. أشد ربحًا فلتحى الفضائح .. وإذا كانت محاربة الرذائل وسيلة لإنتشار الجريدة فلتحى الفضيلة . وإذا كانت الصورة الفاضحة والسيقان العارية والنهود البارزة .. وسيلة ربح .. فلتذهب الفضيلة إلى حيث ألقت .

أكل العيش يا ناس هو غرضنا الأول . وهدفنا الأوحد . ونحن على استعداد

لأن نفعل كل المتناقضات فى سبيل أكل العيش .

منذ بضعة أيام قرأت فى إحدى الصحف مقالا يحمل على الشركات السينمائية الأمريكية التى تساعد الصهيونية .. ويطلب كاتبه مقاطعة كل أفلام النجوم والشركات التى تناصر الصهيونيين . وعدد أسماء النجوم والشركات المذكورة وحث الحكومة على ألأ تسمح بدخولها إلى مصر .

وكان المقال يفيض حماسًا ووطنية ، مما حدانى إلى أن أقول لنفسى إن الصحيفة تشكر على تلك اليقظة ، وذلك التوجيه ، ولكن نظرى وقع فى أسفل المقال على إعلان بالخط العريض .. عن أحد أفلام تلك الشركة التى تحذر الصحيفة فى مقالها من مشاهدة أفلامها .

وعجبت من هذا التناقض . كيف تدعو الصحيفة إلى مقاطعة أفلام الشركة الصهيونية .. وفى الوقت نفسه تعلن عن أفلامها ؟

هل علمتم السبب ؟

أكل العيش !

إن الوطنية والحماسة بضاعة رابحة .. والإعلانات كذلك تدر ذهبًا .. فماذا يضير الصحيفة من أن ترينا وجهيها .. وجهًا يلتهب حماسًا ، ووجهًا يستجدى النقود .. ماذا يضيرها من أن تحذر الناس من أفلام الشركة الصهيونية ، وأن تحثهم فى الوقت نفسه على أن يشاهدوا أفلام نفس الشركة — ما دام — كله مكسب !

لست أدرى ماذا يدفعنى إلى ذكر كل هذا ؟ وإلى أن أكشف لكم نفسى .. وأكشف الصحافة معى !.. لست أدرى ما الذى يدفعنى إلى أن أكف عن النفاق وأكون إنسانًا صريحًا وألا أندفع كما تعودت أن أندفع فى ذكر مواقف الحكومة المشرفة . ترى ماذا يدفعنى إلى ذلك .. والمبلغ الذى قبضته بالأمس ما زال يتخم محفظتى والمصاريف السرية لم ينضب معينها ولا جف نبعها ؟!

وكيف ينضب معينها .. وخزانة الدولة مفتوحة لنـا على مصراعيها .. مصاريف تتدفق بلا رقيب ولا حساب . إنى لأذكر كيف تذوقتها لأول مرة ، وكان ذلك ذات صباح ، وقد جلست إلى مكتبى .. أكتب المقال اليومى الذى تعودت أن أكتبه .. والذى كنت أحمل فيه على الحكومة حملة شعواء .. وأهاجمها هجومًا منكرًا .. لا لأنى أكرهها .. ولا لأنى أريد أن أقوم اعوجاجها وأهديها سواء السبيل .. بل لأن صاحب الجريدة أنبأنى أن هذه المقالات ترضى الجماهير وتروج الجريدة ، فاندفعت أكيل للحكومة النقد والهجاء ، وأنا إنسان طويل اللسان .. لا أجيد شيئًا أكثر من الهجاء ، إلا المديح الذى دفع ثمنه سلفًا .

ودق التليفون وأجبت :

ــ ألو .

ــ الأستاذ (...) ؟

ــ أجل أنا الأستاذ (...).

ــ معالى الباشا يريد أن يكلمك .

وكلمنى معالى الباشا .. وأنبانى بأنه يريد مقابلتى ، وأنه سيحضر لزيارتى فى البيت ، وتملكنى العجب .. معالى الباشا بجلالة قدره فى البيت ؟!

ومعالى الباشا هذا ليس مجرد وزير .. بل هو وكيل حزب .. وهو القوة المحركة للدولة .. ترى أى سبب خطير قد دعاه إلى أن يتنازل ويشرفنى بزيارته ؟

وذهبت إلى الدار فأعلنت من بها أن عظيما سيشرفنا بالزيارة .. وبعد بضع ساعات شرف الرجل .

وجلسنا نتحدث فى مختلف الشئون . وعرجنا على السياسة فعتب علىّ الرجل عتابًا رقيقًا لمهاجمتى لهم .. وتملكنى من عتابه شيء من الخجل ، ثم بدأ يدخل فى الموضوع فأنبأنى أنه يسرّهم أن أنتقد أعمالهم .. على أن أخفف من حدتى بعض الشيء ، وأنهم طبعًا يعرفون أنى لا أستطيع التحول إلى جانبهم مرة واحدة . ولكن المسألة يمكن أن تأتى بالتدريج ، وهم على استعداد لتأدية ما أطلب من

خدمات من كافة العينات .

ولم أدر بم أجيب .. فلو كان الأمر يختص بى وحدى لكان هينًا ، إذا لم يكن أسهل علىّ من التحول ، ولا أسهل على من أن أشيد بالحكومة بنفس الحماسة والحكمة والمنطق التى كنت أهوى بها إلى أسفل سافلين . فالمسألة كلها كما سبق أن أخبرتكم لا تعدو أن تكون أكل عيش .. لكننى كنت أعلم أن هناك صاحب الجريدة ، وأن الغبى يعتقد اعتقادًا جازمًا أن جريدته لن تروج إلا بتلك المقالات التى أهجو فيها الحكومة هجاء مقذعًا .

ولاحظ الرجل على التردد .. وكان ذاكيا أريبًا .. إذا لم أكد أقول له :

ـ من ناحيتى أنا .. لا أظن هناك ما يمنعنا من التعاون فأنا فى خدمتكم ورهن إشارتكم .. ولكن فقط ..

حتى قاطعنى بقوله :

ـ من الناحية الأخرى اطمئن فقد تفاهمت معه ، واتفقنا .

وأدركت أن الناحية الأخرى قد قبضت ، وأنه وجد أن المصاريف السرية أوفر ربحًا من الوطنية ومن هجاء الحكومة .

لست أدرى من هذا الذى ابتكر حكاية المصاريف السرية ؟

لقد كان أولى أن يسميها المصاريف السحرية .. نقود متدفقة لا مقطوعة ولا ممنوعة .. كيف لا أتحمس من أجل الحكومة ، وكيف لا أغفر لها الزلات .. وأبتكر الأعذار ؟ كيف لا ألحس سابق تشنيعى ، وأتناسى هجائى المقذع وشتائمى وسبابى !؟ كيف لا أدق الطبول والزمور ؟! كيف لا أرقص أمامها عشرة بلدى !؟ كيف لا أعمل لها بهلوانًا . والمصاريف السرية السحرية تغمرنى من كل جانب وتغدق علىّ من كل صوب .

كيف لا أنافق .. بالثمن ، وأنا الذى كنت أنافق مجانًا ، ولوجه .. الله ماذا يضيرنى أن أكون منافقًا بين ملايين المنافقين فى أرض النفاق ؟!

ولكنى اليوم .. أحس بطارئ جديد .. طارئ خطر . قد بدد من نفسى

النفاق وجعلنى عاريًا مكشوفًا ، وسلبنى القدرة على أن أظهر غير ما أبطن ، وأن أقول غير ما أعتقد ، وأن أكتب لمجرد أكل العيش .

إنى أحس أن أكل العيش من عند الله لا من عند الإنسان .. أحس أن فى السماء رحمة إلهية .. أكثر نفعًا من المصاريف السرية .

لشد ما أشفق عليكم وعلى الأمة وعلى الصحافة .. إنى أخاف من تلك الصراحة التى تعتمل فى جوفى .. إنى أخشى ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى الكتابة لوجه الله ولوجه الوطن .. ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى قول الحق فى بلد يخشى الحق ويكره الحق .

اللهم رفقًا بنا .. اللهم هب لنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا .

اللهم إنى فى غنى عن مصاريفهم السرية ، وعن كل ما يدفع لى لأغير ما بنفسى من صراحة وحق .

إذا كان أكل العيش يحب النفاق .. اللهم اشهد أنى سأموت جوعًا .

وهززت رأسى رضاء وغبطة وقلت لصاحبى :

ــ هذا كاتب قد فعلت فيه الجرعة مفعولها .. إننا سننتظر منه خيرًا كثيرًا ، فليس أنفع فى الأرض من أهل الفكر المخلصين الصرحاء الذين يكتبون بقلوبهم ، فهم خير قادة للبشر وخير واق للإنسانية ، ولكننا فى هذا البلد قد أتلفناهم .. فقد تحوّلوا من كتاب وأهل فكر .. إلى باعة كلمات وتجار أفكار .. تستأجرهم الجرائد لقاء أجر شهرى فيوردون لها المقالات بكميات معروفة فى مواعيد منتظمة ، كأنهم متعهدو لحوم وخضار .. يكتبون لمجرد ملء الفراغ وسد الخانة .. فيهذرون ويملأون الصفحات بالسخف ، والناس موهومون من أسمائهم الرنانة (التى اكتسبوها بما كتبوا فيما مضى قبل أن تصبح أسماؤهم رنانة) يتخيلون فى القشور لبابًا ويقبلون عليها فلا تطعمهم من جوع ولا ترويهم من ظمأ .. إن الكاتب منهم لا يكتب حين تنضج فى رأسه فكرة أو حين ينزل عليه وحى ، فهذه أشياء لم يعد لها مكان فى دنيا الروتين .. إنه يكتب بلا فكرة

وبلا وحى . يكتب لأن موعد تقديم المقالة قد حان ، وهو لا بد أن يكتب شيئًا .. أى شيء ، والجريدة لا يهمها ما يكتب من هذر .. فهى لا تريد سوى اسمه .. أما الآن ، فقد أضحى إنسانًا آخر ، لقد جولته الجرعة من بائع كلمات إلى كاتب مخلص حر .. والله لو لم تكن هناك فائدة فى الحياة الجديدة سوى ذلك لكفى بها فائدة .. هل هناك خير للبلد من أن يكون أهل الفكر فيها مخلصين أحرارًا ؟!

وهز صاحبى رأسه موافقًا ، ولم ينبس ببنت شفة ، فعدت إلى الصحيفة أتابع القراءة .

ووقع بصرى فى أسفل المقال على إعلان سينما .. أضحكنى ما به .. فقد كان إعلانًا بلا نفاق .. وإليكم الإعلان كما قرأته :

شركة أفلام الفجر (لصاحبها الحاج متولى بائع الخردة بوكالة البلح) تقدم أسخف وأبوخ أفلام الموسم :

حب بلا أمل

تأليف وإخراج وتمثيل وسيناريو وحوار وتصوير أثقل مخلوقات الله وأغباهم وأجهلهم الأستاذ (...) مع شرذمة من الأفاقين والأفاقات .. الضائعات .

فيلم رخيص تافه محشو بالأخطاء الفنية وغير الفنية ومحشو كذلك ببضعة رقصات بلا مناسبة .. ومحكمة وقضاة ووكلاء نيابة .. ومحام يخطب بلا مناسبة أيضًا ، والرواية مفروض فيها أن تكون مؤثرة مفجعة .. فيها حريق .. ومريض بالسل ، ورجل يقتل نفسه بالرصاص .. وآخر يصدمه ترام ، وطفل يقع من رابع دور . ومع ذلك فكل هذه الكوارث والفواجع تبعث الضحك فى النفوس .. أما الشيء المفجع حقًا ، فهى النكات البائخة والتهريج الرخيص المحشو به الفيلم ، ونحن نحذر الجمهور من مشاهدة الفيلم ونسأله أن يطلب الرحمة

لصاحبه « الحاج متولى » الذى حشر نفسه حشرًا فى تجارة السينما فأضاع « تحويشة العمر » على الفيلم وعلى الراقصة التى فى الفيلم .

ونظرت إلى صاحبى وقلت ضاحكا :

ــ هكذا تكون الدعاية والإعلانات وإلا فلا .

ثم لفت نظرى إعلان آخر بعنوان :

أوكازيون

تعلن محلات (..) الكبرى عن أوكازيون تباع فيه البضاعة بنفس السعر العادى وبدون أى تخفيض .. بضائع قديمة مخزونة ، ليس هناك طريقة لتصريفها سوى هذا الأوكازيون الصورى .. احذروا الغش والنصب والاحتيال .

وإعلان آخر بعنوان :

النصاب الأكبر

لكى تروا المعجزات الخارقة زوروا النصاب الأكبر الدكتور (..) المنوم المغناطيسى وقارئ الكف واللاعب بالبيضة والحجر ، تهويش فى تهويش .. وغش فى غش ، وتهريج فى تهريج .. هل يعلم الغيب إلا الله ؟

وهكذا ظللت أتنقل من إعلان إلى إعلان .. وكلها قد خلت من النفاق وملئت بالصراحة والحق .

وتركت الإعلانات جانبًا ، وأخذت أقلب البصر فى الأنباء المحلية .. فقرأت تحت عنوان :

مجلس الوزراء

اجتمع مجلس الوزراء للنظر فى الموقف السياسى .. وظل المجلس مجتمعًا لمدة ثلاث ساعات ، وقد انصرف الوزراء تبدو على وجوههم علامات التعب والإنهاك .. وقد سألنا أحد الوزراء عما تم فى الموقف فالتفت إلينا فى دهشة وتساءل :

ــ أى موقف ؟

ــ الموقف السياسى .. لقد قيل لنا أن المجلس سيبحث الموقف السياسى فى هذه الجلسة .

ــ يجوز .

ــ وماذا تم فيه ؟

ــ والله لا أدرى .

ــ كيف ؟.. ألم تكن معاليكم موجودًا فى المجلس ؟

ــ كنت موجودًا .. ولكننى سرحت فى نصف الجلسة ، ونمت فى النصف الثانى .

وسألنا وزيرًا آخر توسمنا فيه خيرًا ورأينا فيه علامات اليقظة :

ــ ماذا تم فى الموقف السياسى ؟ .

ــ لا شىء .

ــ ألم يبحث المجلس فى الموقف السياسى ؟

ــ لا . ماذا بحث ؟

ــ لم يبحث شيئًا .. سوى النظر فى بعض الترقيات والدرجات والعلاوات ، ثم ضاعت بقية الوقت فى خناقة بين وزير التجارة ووزير المالية من أجل التنازع على بعض الاختصاصات .

ــ وما هي آخر أخبار الموقف الخارجي ؟

ونظر إلينا الوزير فى ضيق وتبرم وأجاب :

ــ يا أخي حل عني بقى .. أنا مالى ومال الموقف الخارجي اسأل رئيس الوزراء .

وحاولنا أن نستفهم من رئيس الوزارة .. ولكنه جرى منا وعندما لحقنا به رفع عصاه وهوى بها على أم ناصيتنا ولعن أبانا ثلاثًا .. ثم زاغ بعربته .

وانتهيت من قراءة أخبار مجلس الوزراء ، فانتقلت إلى عمود آخر لأقرأ تحركات الوزراء تحت عنوان (الوزراء) فقرأت ما يلى .

انتقل معالى وزير الزراعة إلى الإسكندرية للمرور والتفتيش رغم أنه ليس هناك ما يستدعى لا المرور ولا التفتيش .. فلما سألناه عن سبب سفره أنبأنا أنه يجب أن يمر ويفتش على أسوان فى الشتاء ، وعلى الإسكندرية ورأس البر وبور سعيد فى الصيف .

استقبل معالى وزير الأشغال فلان باشا .. وفلان باشا .. ثم أمضى فى مكتبه بضع ساعات وطلب منا أن نذكر أنه يشتغل عشرين ساعة فى اليوم .. وأنه منهك جدا .. وأنه قد خسر بدخوله الوزارة .. وأن الوزارة عبء ثقيل .. وأنه لولا أن الوطن فى حاجة إليه لاستقال منذ زمن .

وقلبت الصفحة فوقع نظرى على إعلانات الوفيات فهالنى ذلك التطور الذى طرأ على طريقة النعى .

وتركت الصحيفة جانبًا وتناولت إحدى الصحف الحزبية .. فإذا بعنوان على صدر الصحيفة بالخط الأحمر جاء به :

« يجب أن تستقيل الوزارة .. الرئيس يصرح بأنه يريد العود إلى الحكم فورًا .. لأنه مشتاق وبه لوعة » .

وقرأت المقال فوجدت نصفه الأول .. كلامًا عاديًا مما تعودت أن أقرأه فى الجريدة .. وهو مهاجمة الوزارة وطلب إقالتها .. أما النصف الثانى فقد اختلف

عما تعودت أن أقرأه .. لقد زال ما به من نفاق ، وأفصحت الصحيفة صراحة .. عن سبب هجومها على الوزارة .. وقالت إن الوزارة قد طال عمرها بلا مناسبة .. وإن أنصار الحزب قد نفد صبرهم وعلى وشك أن ينفضوا .. وأن المسألة (بقت بايخه قوى) .

وقلبت الصحيفة فلم أر فى عمود الزيارات الذى كان يكتظ بالأسماء زائرا واحدًا ، وأدهشنى أن أجد الصحيفة خلت من التهريج والتضليل .

وألقيت بالصحيفة وأمسكت بصحيفة أخرى . فوجدت فى صدرها نبأ عجيبًا .. بالخط العريض جاء فيه :

سبق صحفى عجيب

الوزارة تحل مجلس النواب ، ومجلس النواب يسحب الثقة من الوزارة .

البلد بلا وزارة .. وبلا مجلس نواب .

ثم قرأت تحت العنوان ما يلى :

جاءنا والصحيفة ماثلة للطبع ، أن مجلس الوزراء قد قرر حل مجلس النواب .. لأنه كعدمه . ولأنه عبء يرهق ميزانية الدولة بلا أية فائدة ، وفى الوقت نفسه قرر مجلس النواب سحب الثقة من الوزارة .. لأنها لا تستحق منه الثقة .

ونظرت إلى صاحبى وصحت به فى دهشه :

ـــ أرأيت هذا ؟

ثم مددت له يدى بالصحيفة فلما قرأ الخبر هز رأسه وأجاب ببساطة :

ـــ طبعًا .. وزارة بلا نفاق .. لا بد أن تحل مجلس النواب .. ومجلس نواب بلا نفاق .. لا بد أن يسقط الوزارة

ثم رأيت الدهش قد علا وجهه فجأة ووجدته يحملق فى الجريدة ويهتف بى :

ـــ أقرأت هذا ؟

فهززت رأسى مستفهمًا .. فأجاب :

ــ هذا الخبر خاص بنا .

ــ بنا نحن ؟

ــ أجل .

وخطفت منه الجريدة وسألته :

ــ أين ؟

فأشار بأصبعه إلى خبر صغير فى أسفل خبر الوزارة ومجلس النواب .. وبدأت القراءة :

وباء الأخلاق

تلقينا والجريدة ماثلة للطبع أن مجرمين شقيين قد ألقيا فى النهر كيسًا مليئًا بمسحوق الأخلاق ، وأن وباء الأخلاق قد انتشر بسرعة بين الناس .. ولا شك أن هذا هو سر ما قد حدث من اضطرابات فى كل أنحاء البلد .. وقد علمنا أن أحد المخبرين استطاع الإرشاد إلى المجرمين وأنه سيلقى القبض عليهما وينالان عقابهما الصارم .

وهز صاحبى رأسه وسألنى فى يأس :

ــ ما العمل الآن .. أما من طريقة للنجاة ؟

(١٧)

خاتمة

هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين إما شعب يكره نفسه لأنه ــ رغم ما يشيعون عنه من أنه مصدر السلطات ــ يأبى أن يصلح حاله ، ويعالج مصابه ، ويزيل عن نفسه ذلك القيد الثقيل من الفقر ، والجهل ، والمرض .. وإما أنه شعب زاهد ، قد تعود ذلك البؤس الذى يرتع فيه ، والحرمان الذى يأخذ بخناقه .

لم أكن أرى داعيًا لهذا التشاؤم من صاحبى ، ولا كنت أشعر أن هناك من الخطر على حياتنا ما يدعونا إلى التفكير فى الفرار ، وألقيت الصحيفة من يدى وأخذت أفكر فى موقفنا برهة ثم قلت له :

ــ لست أرى معنى الفرار ، فلا بد لنا أن نسير فى الطريق حتى النهاية .

ــ أى طريق هذا الذى تود السير فيه حتى النهاية ؟ أما يكفيك هذا الحال الذى دفعت بنا إليه ؟ ماذا تريد أكثر من هذا ؟!

ــ أريد أن أشاهد محاكمتنا .. فلا شك أنها ستكون محاكمة طريفة .. هل أبصرت فى حياتك إنسانًا يحاكم بتهمة إصابة الناس بالأخلاق ، وإزالة النفاق من نفوسهم !

ــ يا سيدى لم أبصر ، ولا أود أن أبصر .. ما دمت سأكون أنا ذلك المتهم ؟

ــ على أية حال .. تود أو لا تود .. ستبصرها مرغمًا . فإنى لن أحاول الفرار ، وإذا أردت أن تهرب فاهرب وحدك .

ــ إما أن نهرب سويًا .. أو نبقى سويًا .

ــ قلت لك لن أفر .

ــ إذا فلنبق وأمرنا لله .

واضطجع صاحبى على البرش واستلقيت بجواره .. و لم نلبث قليلا حتى غلبنا التعب ورحنا فى سبات عميق .

و لم يطل نومنا حتى استيقظنا على صوت الباب يدفع والحارس يصيح بنا لكى نتبعه إلى النيابة لعمل التحقيق .

وسرنا وراء الشرطى حتى وصلنا إلى حجرة وكيل النيابة ، ودخلت أنا أولا ووقفت أمام المحقق .. أفحصه ويفحصنى ، وأقلب فيه البصر ، كأن كلا منا سيشترى الآخر ، وكان هو أول من نطق ، فسألنى قائلا :

ــ اسمك ؟

فقلت اسمى ، وأجبته عن بقية الأسئلة الأولية الأخرى ، فلما انتهى منها عاد يحملق فى كأنه يحاول أن يدرسنى أو يكشف عن دخيلة صدرى .. وحملقت فيه أنا الآخر فوجدته متأنقًا متحذلقًا .. فرحًا بنفسه ، مغرورًا فى سلطانه وجبروته .. محيطًا نفسه بجو من الرهبة .. حتى بدا لى أن الخالق لو هبط من سمائه ليجرى التحقيق معنا .. لكان أكثر تواضعًا .

طال بنا الصمت ، و لم أشك فى أن صاحبنا يحاول أن ينسج الشباك ويضع الخطط لإيقاعى ، فقد وجدته يسأل فجأة :

ــ أين كنت فى الساعة الحادية عشرة مساء ؟

وفكرت برهة ، وأدركت أن الرجل ينوى أن يتعب نفسه ويتعبنا بلا مبرر ولا داع .. وفضلت أن أختصر الطريق .. وأريحه من عناء التحقيق ، وألقى إليه

الاعتراف كاملا ، فقلت ببساطة :

ــ يا سعادة البيك .. أرح نفسك .. أنا الذى ألقيت كيس الأخلاق فى النهر ، وإنى على استعداد لأن أكتب وأمضى على هذا الاعتراف .

ورفع الرجل حاجبيه فى دهشة وبدا عليه الامتعاض .. كأنما ساءه أن أسلبه فضل اكتشاف الحقيقة .. وأن أضيع عليه فرصة إظهار ذكائه ونبوغه .

ووجدته يقلب شفتيه ويقول فى ازدراء :

ــ أجب على قدر السؤال ، وما تبقاش غلباوى .

ــ ما تبقاش غلباوى انت .. واكتب ما أقوله لك .

وضرب الرجل مكتبه بيده ، واحمروجهه ، وفتح فاه لينادى العسكرى الواقف بالباب ، ولكن التليفون دق فجأة فرفع السماعة ووضعها على أذنه ، ووجدت أساريره تنفرج وصوته يلين .. ويهمس فى التليفون بصوت رقيق ناعم :

ــ أهلا وسهلا .. حاضر .. حاضر .. أيوه يا أفندم من عنيه الاثنين .. الساعة سبعة ، ما تتأخريش ، أوريفوار .

ووضع السماعة .. ثم نظر إلىّ وكسا وجهه سيما القسوة والجد والصرامة ، واستدعى بعض الشرر ليتطاير من عينيه ، وفتح فاه ليطلب العسكرى ، ولكن التليفون عاد يدق مرة أخرى .

ورفع السماعة .. فانطفأ الشرر ، وانقلب الغضب خنوعًا ، والشدة لينًا وخضوعًا ، وانطبعت على تقاسيم وجهه .. أبلغ آيات الاحترام ، ووجدته يقول بلهجة الرقة والتواضع :

ــ أهلا وسهلا سعادة الباشا .. نقبل الأيادى يا أفندم . تحت النظر يا أفندم .. حاضر يا أفندم .. أيوه يا سعادة الباشا مضبوط يا سعادة الباشا .. بكل سرور يا سعادة الباشا .. أنا برضه بقول كده يا سعادة الباشا .. برضه أحسن يا سعادة الباشا .. مع السلامة يا سعادة الباشا .

ووضع السماعة وعاد يكسو وجهه علامات الصرامة والغضب .. ولكنه كان قد نسي الباعث على هذا الغضب ، فقد أحدثت به هذه المحادثات المتبادلة كثيرًا من الشرود ، وأخذ ينظر إليّ من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، محاولا أن يتذكر سبب غضبه عليّ . أو حتى من أكون وما مسألتي ، وأخيرًا نظر إلى الكاتب وسأله متبرمًا :

ــ كنا بنقول إيه ؟

ــ سعادتك قلت للمتهم ما تبقاش غلباوى .. فأجابكم .. ما تبقاش غلباوى انت .

ــ أيوه .. أيوه .. تذكرت .

ثم صفق بيديه فأقبل الحاجب مسرعًا . وفى تلك اللحظة دق التليفون مرة ثالثة .. ورفع الرجل السماعة ووجدته يجيب فى ضيق وتبرم .. « ياستى اطبخى اللى تطبخيه .. معرفش .. معرفش .. مش فاكر .. زى ما انتى عايزه » .

وأدركت أنه لا شك يحدث البيت ، ووجدت الحاجب يقف منتظرًا . فخطر لى خاطر عجيب .. وجدت فيه خير منقذ لنا من غضب وكيل النيابة .. ونظرت إلى الحاجب وقلت له بصوت منخفض :

ــ البيه عايز يشرب .

وانطلق الحاجب ليحضر كوب ماء !

إن فى كوب الماء خير معين لنا على صاحبنا .. إذ هو كما بدا لى من محادثاته التليفونية .. لم يتجرع من المياه الجديدة .. ولم تنتقل إليه عدوى الأخلاق ، ولا تبدد من نفسه النفاق .

ووضع الرجل السماعة .. وفى تلك اللحظة أقبل الحاجب يحمل كوب الماء ووضعه أمامه فمد يده إليه وتجرّعه بدون تفكير .. ثم كسا وجهه علامات الغضب مرة ثالثة والتفت إلى الكاتب متسائلا :

ــ هيه .. كنا بنقول إيه !؟

وتنحنح الكاتب وهم بأن يرد عليه ما كتب .. ولكننى قاطعته قائلا :

ــ يا سيدى .. أرجوك .. إن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلى كل هذا التعقيد وتلك الأسئلة .. إنها تتلخص فى بضع كلمات .. إنى أقر وأعترف أنى قد وضعت عامدًا ، ومع سبق الإصرار ، مسحوق الأخلاق فى المياه .. وإنى متمالك لقواى العقلية ، ومستعد لتحمل نتائج كل ما حدث وما سيحدث .. هل تريد شيئًا أكثر من هذا ؟

وهز الرجل رأسه فى حيرة ودهش كأنه يشك فى سلامة عقلى .. وصاح بالحاجب :

ــ هات الرجل الآخر .

وأقبل الحاجب بصاحبى الذى وقف أمام وكيل النيابة فى هدوء وأجاب على أسئلته الأولية .. ولم ينس أن يذكر أن صناعته تاجر أخلاق بالجملة والقطاعى ، وأنه مستعد لتوريد الطلبات حتى المنازل (هذا شىء جديد لم أكن أعرفه عن صاحبى أو ربما كان ابتكارًا جديدًا بمناسبة زوال النفاق من الناس ورواج بضاعة الأخلاق بينهم).

وصمت وكيل النيابة برهة وبدت عليه الحيرة .. وخيل إلىّ أن مفعول الجرعة بدأ يؤثر فيه وسمعته يوجه القول إلى صاحبى :

ــ ماذا تعرف عن كيس الأخلاق ؟

ــ إنى صاحبه .

ــ ومن الذى وضعه فى الماء ؟

فأشار إلىّ مجيبًا :

ــ هو .. وإن كنت أعتبر أنى متضامن معه فى كل ما فعل . وأنى أشاركه المسئولية عن كل ما حدث .. بل وأتحمل عنه كل عقاب .. فإن الذنب ذنبى .. فهو طائش أحمق لم يكن يدرى قط مغبة عمله .. ولا كان يتصور أنه سيؤدى إلى تلك النتائج .

وهرش وكيل النيابة رأسه وبدا لى أن الجرعة تتفاعل فى جوفه ، وأن الأخلاق تسرى فى نفسه ، وأطرق برهة فى صمت ، ثم رفع رأسه متسائلا فجأة :

ــ منذ متى ، وأنت تملك هذا الكيس ؟

فأجاب صاحبى :

ــ منذ مدة طويلة .

وهنا بدأ يظهر مفعول الجرعة فقد هز وكيل النيابة رأسه فى حسرة وأسف وقال :

ــ منذ مدة طويلة ، وأنت تملك هذا الكيس ؟!! يا للأحمق المأفون... وكيف سمحت لنفسك طول تلك المدة أن تحتفظ بالكيس دون أن تلقى به فى النهر .. أيها المجرم الأثيم !؟ كيف سمح لك ضميرك بأن تترك النفاق يرعى فى جسد الأمة ويلوث الناس .. دون أن تحاول أن تتقدم لهم بالعلاج ؟

ثم صاح بالحراس طالبًا منهم أن يعيدونا إلى السجن ، وهو يتمتم قائلا :

ــ هذه مسألة خطيرة .. لا بد من عرضها على النائب العام .

وعدنا إلى السجن ، ومر بنا اليوم الأول ثقيلا مملا ، وبتنا ليلتنا فى نوم قلق متقطع .. وفى الصباح طلبتنا النيابة للتحقيق مرة أخرى .. وقبل أن نذهب إلى وكيل النيابة استطعنا الحصول على إحدى الجرائد الصباحية فقرأنا العنوان الآتى بالخط العريض :

« القبض على المجرمين الخطرين والتحقيق معهما » .

وكيل النيابة المحقق يصاب بالأخلاق فجأة .. فيطلب تبرئة المتهمين ، أو محاكمتهما على احتفاظهما بكيس الأخلاق مدة طويلة دون أن يلقيا به فى الماء .

ثم جاء بعد ذلك ما يلى :

قبض فى ساعة مبكرة من النهار على المجرمين الآثمين اللذين ألقيا بجرائيم الأخلاق فى الماء وأودعا السجن رهن التحقيق ، وفى الساعة العاشرة صباحًا طلبا للتحقيق ، ولكن أحدهما احتال على وكيل النيابة وسقاه جرعة من الماء الملوث

فأصيب بالأخلاق .. ورفض مباشرة التحقيق ورفع تقريرًا إلى النائب العام يطلب منه تبرئة المتهمين أو محاكمتهما بتهمة السكوت على مصاب البلد دون أن يحاولا التقدم بالعلاج رغم اعترافهما أنهما كانا يملكان العلاج منذ مدة طويلة .

وقد أمر وكيل النيابة بالتنحى عن التحقيق .. وعين آخر لإعادة التحقيق بدلا منه ، وستتخذ الاحتياطات اللازمة لتحصينه ضد وباء الأخلاق .

وقد بلغنا والجريدة ماثلة للطبع أن الجهات المسئولة قد استطاعت أن تحجز كمية من المياه غير الملوثة التى ستخصص لمن بيدهم الأمر .. ولأصحاب الأمر .. ولأصحاب المناصب العليا الذين تخشى عليهم الدولة من وباء الأخلاق .. ويدخل ضمن هؤلاء كل من سيتولى أمر التحقيق مع المتهمين والنظر فى قضيتهما .. حتى لا يتكرر ما حدث من المحقق المصاب .. وحتى ينال المتهمان ما يستحقان من عقاب على سوء فعلتهما .

وقد بلغنا كذلك أن كميات من الماء الملوث قد أعدت للفحص والتحليل ، وأن التجارب ستجرى لمحاولة عمل مصل واق من الأخلاق ، وإن كان الأمل فى ذلك ضعيفًا جدًا .

ولم يتضح بعد ما إذا كان الوباء ينتقل بالعدوى .. ولكن السلطات المسئولة جادة فى عمل معازل خاصة للمصابين .. وستصدر أوامر للتبليغ عن كل حال اشتباه أو إصابة بالأخلاق .

وطويت الصحيفة ونظرت إلى صاحبى وقلت فى يأس :

— لا فائدة .. لقد ضاع مناكل أمل .

وسألنى صاحبى فى ذعر :

— كيف ؟

— إن المسئولين سيحصنون أنفسهم ضد الأخلاق .. وسيكون وكيل النيابة المحقق سليمًا معافى .. وكذلك القضاء .

— هذه نكبة كبرى .. لقد كان كل أملنا فى إصابتهم بالأخلاق .. واحسرتاه

لقد ضاع العمر سدى !!

ــ لن يضيع العمر يا صاحبى .. ولو ضاع . ما ضاع سدى . أهناك خير من أن نموت وتحيا الأخلاق ؟!

ــ أبدًا .. فقط ليتها تحيا .

ووقفنا أمام وكيل النيابة الجديد .. المحصن ضد الأخلاق .. ولم يكن مظهره يبشر بالخير .. بل استطعت أن أقرأ من سيمائه أنه قد نوى شرًا .

ولم يطل بنا التحقيق .. فقد كان اعترافنا واضحًا جليًا لا يحتمل التحقيق .

ومرت بنا الأيام ونحن فى غياهب السجن .. حتى كان ذات صباح استدعينا للمحاكمة ، ووقفت وصاحبى فى قفص الاتهام نقلب البصر بين الجماهير المحتشدة فى ساحة المحكمة .. واستطعنا أن نميز بينهم المعارف والأهل والأصدقاء وقد أخذوا يلوحون لنا بأيديهم ويسألوننا التجلد والتشجع .

وافتتحت الجلسة ، وجلس القضاة يحدقون فينا بنظرات قاسية صارمة .. وملأنى التشاؤم إذ لم يبد عليهم أى أثر للوباء .. وباء الأخلاق .

ونودى على الشاهد الأول .. وهو الرجل الذى كان ينصت إلينا فى تلك الليلة السوداء والذى وشى بنا وأرشد الشرطة إلينا . ولم تستغرق شهادة الرجل سوى بضع دقائق .. ثم بدئ بعد ذلك فى عرض عينات من المجنى عليهم ممن أصيبوا بوباء الأخلاق وزال من نفوسهم النفاق ، أو ممن أصابهم المجنى عليهم بأضرار وعاهات .. بعد أن أزيل عنهم حجب الرياء وستر المداهنة والكذب .

وبدأ وكيل النيابة يسرد التهمة فى تفصيل وإسهاب قائلا :

ــ أمامكم أخطر مجرمين عرفهما التاريخ .. مجرمان تضاءلت أمام جريمتهما كل جرائم عرفتها الإنسانية وارتكبها البشر .

لست أدرى أى عقاب يمكن أن يتناسب وفداحة الإثم الذى ارتكباه ، فإن المشرعين الذين وضعوا القوانين لم يخطر على بالهم قط أن هناك إنسانا يمكن أن يرتكب تلك الجريمة التى ارتكباها .

هذان المجرمان الماثلان أمامكما .. قد تسببا فى فناء البشر .. لقد جردا الناس من خير قناع كانوا يخفون به خبائثهم وشرورهم .. لقد كشفوا عن حقيقتهم المروعة وتعرت نفوسهم من كل ما كان يسترها ويحجب عوراتها .. كيف يستطيع الناس أن يحيوا بلا نفاق !؟ كيف يستطيعون أن يحتمل بعضهم بعضًا ..؟ كيف يستطيع الزوج أن يعيش مع زوجته لحظة بلا رياء ولا نفاق ؟ كيف تستقيم الأمور وكيف تنقضى المصالح !؟ كيف تنتظم الحياة ويتعامل الناس وقد خلوا من النفاق !؟

كيف تنشأ الأحزاب ، وتؤلف الوزارات !؟ من ينادى بأمانينا الوطنية .. ومن يخطب .. ومن يكتب ؟

كيف يحدث كل هذا .. بعد أن زال النفاق !؟ وماذا يقول الخطباء ويكتب الكتاب !؟ وماذا تفعلون أيها القضاة وماذا يفعل المحامون .. بعد أن انتشر وباء الأخلاق !؟

إن البشر سينتحرون جزعًا وفزعًا إن لم يدركنا الله برحمة من عنده .. فيعيد إلى أنفسنا ما تبدد من نفاق .، ويزيل عنا ما ابتلاها به هذان المجرمان من أخلاق .

يا حضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيا للإطالة .. فالجريمة واضحة وضوح الشمس ، والمجرمان معترفان .. فلا تأخذكم بهما رحمة ولا شفقة .. فإن نفسيهما الشريرتين وجسديهما النجسين لا يستحقان أية رحمة .

إنى أطلب أن تحكموا عليهما بالإعدام .. وبودى لو استطعت أن أطلب أكثر من هذا ، فإنى أرى فى مجرد إعدامهما رحمة بهما وخلاصًا لهما من هذه الدنيا الموبوءة بالأخلاق .

ياحضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيًا للإطالة .. هل ترونى مبالغًا .. لو سألتكم أن تحكموا عليهما بالإعدام .. على أن يكون الحكم مشفوعًا بتوصية إلى السماء تؤدى بهما إلى جهنم وبئس القرار .. إننى أعلم أن فى طلبى

هذا شيئًا من الغرابة .. وأن ليس من سلطة القضاء التوسط لدى السماء .. ولكن لِمَ لا نجرب . على أن تكون التوصية فى صورة دعاء حار .. يدعو فيها القضاء على المتهمين بأن يخرب الله بيتهما .. ويمرمط بهما السماء ويسود آخرتهما .. ولا يريهما نصفة ولا حسنة .. ولا يعطف عليهما بلحظة فى الجنة ، بل يخلدهما فى الجحيم مع أمثالهما من الأبالسة والشياطين .

وصمت وكيل النيابة وأخذ يجفف عرقه بمنديل فى يده وطلب جرعة ماء .. فأخرج أحد الشرطة زجاجة من جيبه وأفرغ له منها فى كوب فى يده ، فتناول الرجل جرعة واحدة وبدت عليه علامات الاشمئزاز وهمس قائلا :

ـــ هذا هو المصرح به لسعادتكم بأمر الحكومة .

وصمت الرجل مكرهًا ووضع الكوب أمامه على المنضدة .

ونظرت إليه وهززت رأسى فى أسف ودهشة .

هذا الرجل لم يكتف بأن يسأل القضاة بحكمهم الأرضى بل يطلب منهم التدخل فى حكم السماء .. آه .. من لى بجرعة واحدة من المياه الملوثة .. أدفع بها فى جوفه !

ولم أكن قد طلبت محاميًا للترافع عنا .. فقد كنت موقنًا من براءتنا .. واثقًا من قدرتى على الدفاع عن نفسى وعن صاحبى .

وطلبت كلمة الدفاع .. فقلت لهم إنى سأتكلم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن صاحبى ، وبدأت مرافعتى قائلا :

ـــ يا حضرات المستشارين .. كم كان بودى لو تذوقتم تلك المياه الجديدة التى لوثت بالأخلاق .. والتى وضعتمونا من أجلها فى هذا القفص ، والتى دفعت بوكيل النيابة إلى أن يسألكم أن تحكموا بالإعدام علينا .. ولكنى أعرف أنها محظورة عليكم ، ومع ذلك فإنى سأتحدث إليكم فما زال أملى فى عدالتكم كبيرًا .. رغم أنكم لم تصابوا بعد بالأخلاق .

قضيتنا اليوم .. تتلخص فى كلمتين .. هى .. نفاق .. أو لا نفاق .. هل

يمكن أن تستقيم الحياة بلا نفاق .. أم لا بد لها من النفاق ؟!!

دعكم من تلك المظاهرات ، وهذه الاضطرابات التى ترونها .. فلست أرى فيها إلا رد فعل سرعان ما سيزول ، وسرعان ما سنتعود بعده أن نبصر أنفسنا سافرين مجردين من حجب النفاق والرياء .. فنعمل على إصلاح ما فسد .. وتقويم ما اعوج .

أقسم لكم أيها السادة أننا سنصلح فى بضعة أشهر ما عجزنا عن إصلاحه فى عشرات السنين .

هل يعجبكم هذا الحال الذى نحن عليه !؟ هل يعجبكم هذا العالم الذى نعيش فيه .. والذى يتحكم فيه نفر من البشر ، يدفعون بالشعوب إلى أتون الحروب ، كأنها خراف الضحية أو كباش الفداء .. فداء أنفسهم الخبيثة الحمقاء ، ونفاقهم المر الكريه !؟

من يستطيع منكم أن يفهم السياسة الخارجية الخبيثة الملتوية .. المليئة بالنفاق والرياء .. كل منهم يستر شروره وراء ستار زائف من الدفاع عن الحرية والمبادئ السامية ، والشعوب مستسلمة راضخة ، لم تكد تجف دماؤها أو ترمم خرائبها حتى يلوحوا بخراب جديد ودمار عاجل .

لو زال النفاق من الدنيا ، لكشف هؤلاء اللؤماء ، عن دخيلة أنفسهم ، وخبائث صدورهم ، ولأدركت الخراف الآدمية أنها الضحية ، كاسبة كانت أو خاسرة ، ولأحجموا عن أن يساقوا إلى المذابح البشرية .

هؤلاء المنافقون الذين يقودون العالم إلى التهلكة ، هؤلاء اللذين يسمونهم بالسياسيين الذين يظهرون غير ما يبطنون ، ويقولون ما لا يعنون ، المضللون المطففون ، الذين يضللون الناس فى غياهب النفاق وظلمات الرياء ، ويضلون هم أنفسهم ، ويتخبطون فى دياجير من الشك ويحيدون عن جادة الصواب ، ولا يعرفون ماذا يريدون ، ويصبح الأمر بين أيديهم أشبه بخيط معقد ملتو لا يعرفون أوله من آخره ، فيلجئون إلى العنف والتهديد بالحرب ، وينزلون بالبشر

إلى مستوى الحيوان ، الذى يعجز عن التفاهم بعقله ، فيعض بأسنانه أو يرفس برجليه .

لو تبدد النفاق من النفوس لأفلحت هذه العصابات التى أنشئوها لحراسة الأمن وإقرار السلام .. هذه الهيئات الصورية التى تجمع قومًا من المنافقين المخادعين الفجرة الأشرار ، الذين لا يرون الحق إلا فى جانب القوى .. أما الضعيف فصيحته لا تصل إلى آذانهم ، والذين يدينون القتيل لأنه أجهد القاتل فى قتله ، ويؤنبون المضروب لأنه أزعج الضارب بصياحه .

لولا النفاق ، ما سلب من صاحب حق حقه ، وما طرد شعب من أرضه ليحل الغريب فى أرضه .

لولا النفاق ما اعترف بالضيف ربًا للبيت ، وبرب البيت دخيلا متهجمًا .

لولا النفاق يا سادة ، ما اتهم أصحاب القنبلة الذرية العرب المسالمين بأنهم خطر على الأمن والسلام .

هذه يا سادة هى سخرية النفاق والمنافقين .. يا لها من سخرية رائعة !!

يا حضرات القضاة .. هذا هو بعض ما فعل النفاق بالعالم .. أما ما فعل بأمتنا فهو جم وفير .

أمة من عشرين مليونًا ، يعيش ثلاثة أرباعهم على هامش الحياة ليس بهم من الآدميين شبه ولا صلة .

أمة يعيش ثلاثة أرباعها ، عيش البهائم .. حفاة عراة ، لا يكادون يأخذون من الحياة إلا ما يقيهم على قيد الحياة .

أمة ثلاثة أرباعها عبيد ، لا يملكون من أمرهم شيئًا ، ومع ذلك فهى أمة ديمقراطية ، بها برلمان والسلطة فيها هى سلطة الشعب .

يا للنفاق !! ويا للرياء !!

تصوروا أن السلطة فى هذا البلد هى سلطة الشعب !!

هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين .. إما شعب يكره نفسه لأنه — رغم ما يشيعون عنه من أنه مصدر السلطات — يأبى أن يصلح حاله ويعالج مصابه

ويزيل عن نفسه ذلك القيد الثقيل من الفقر والجهل والمرض ، وإما أنه شعب زاهد قد تعوّد ذلك البؤس الذى يرتع فيه والحرمان الذى يأخذ بخناقه .. أو من يدرى ربما يكون .. من فرط حبه لأولى الأمر فيه ، وولعه بأسياده .. قد أبى إلا أن يحرم نفسه العيش ليؤكلهم الفطائر . فيجوع ليتخموا ، ويموت ليحيوا !!

يا للنفاق ! ويا للرياء !!

هذا الشعب ـــ مصدر السلطات ـــ ماذا فعلوا لإصلاح حاله ؟! إنهم يبدون كأنهم يفعلون الشيء الكثير ، ومع ذلك فما ظهر أثر هناك لما فعلوا وما يفعلون .. ترى ما السبب ؟ السبب بسيط ، هو أن كل ما فعلوه نفاق فى نفاق ؟!

إى والله ، إن النفاق ، هو أصل الداء ، ومنبع العلة ، فلو أنهم فعلوا لظهرت آثار ما فعلوا ، ولو أنهم لم يفعلوا لأدرك الشعب أنهم لم يفعلوا ، فعرف كيف يفعل هو !!

لنستعرض بعض ما فعلوا لنعرف مبلغ ما به من صدق ومبلغ ما به من نفاق ، لنستعرض تلك المشروعات التى هللوا لها وكبروا ، والتى ملأوا الدنيا حولها دعاية وضجيجًا .

إنى لأذكر الآن أحدها وهو مشروع مجانية التعليم الابتدائى الذى طلبوا له وزمروا ، وهتفوا له وصفقوا ، اعتبروه منحة للشعب البائس التعس ، وخطوة فى سبيل إصلاحه ، ومازالوا حتى الآن يتفاخرون به .

ترى هل أدى المشروع غرضه ؟ وهل أتاح لأبناء الشعب التعليم المجانى ؟

كلا والله .. لقد كان المشروع منحة لأبناء الأغنياء ، بلا أية مناسبة !!

فالمفهوم أنه قبل أن تعم المجانية فى التعليم ، يجب أن تعم وسائل التعليم ، وأن يكون لدينا من المدارس ما يكفى لهذا التعليم عندما يصبح مجانًا ويقبل عليه كل أبناء الشعب ، ولكن الذى حدث هو أن عمت مجانية التعليم وبقيت وسائله محدودة كما هى لا تكاد تسمح إلا بالعدد الذى كان يتعلم أولا ، وأصبحت المجانية

مقصورة على من يقبل فى تلك المدارس وضمنهم أو أولهم أولاد الأغنياء .. الذين سيفضلون بالطبع — ونحن فى بلد الوساطات — عند القبول على غيرهم من أولاد الفقراء !

وهكذا وجد وزير المالية ، ووزير المعارف ، أبناءهم يتعلمون مجانًا ، واستمر أبناء الشعب المساكين ، لا تتاح لهم فرصة التمتع بالمجانية ، لأنهم لم تتح لهم فرصة الدخول فى المدرسة .

كل هذا لأن المشروع لم يقصد به سوى الدعاية ، ولأن أصحابه كانوا من كبار المنافقين .

ومشروع رفع أجور العمال .. ماذا كانت فائدته ؟

ماذا يمكن أن تكون فائدة مشروع لا يطبق إلا على القلة من العمال الحكوميين .. أما العامل الزراعى ، وهو الأغلبية العظمى فى هذا البلد ، فما زال كما هو .

ومشروع الحفاء ومشروع البر ، وغيره ، وغيره ، من كل هذه الفقاقيع التى تذهب جفاء ، والتى لا نحس منها سوى الفرقعة الجوفاء والرنين الزائف .

وتلك الاجتماعات ، والخطب ، والمشروعات التى تطالعنا على صفحات الجرائد بالخط العريض ، وكلها نفاق فى نفاق .

هل رأيتم أيها السادة ، أمة تعالج بالنفاق كهذه الأمة ؟

لقد عالجوا مرض الشعب باللجان والاجتماعات ، وقضوا على فقره وجوعه ببضعة مطاعم وولائم ، وعلى جهله بالوعود والتمنيات .

أتراهم يظنون أن الشعب هو هذه القلة المحيطة بهم !؟ أتراهم يخدعون أنفسهم أم يخدعون الشعب !؟

كل هذا أيها السادة مبعثه النفاق ، وأقسم لكم أنه لو استمر الحال على ذلك لكان السادة أول ضحاياه .. أجل إنهم سيكونون أول من يجنى عاقبة نفاقهم ، فما بمثل هذا يكون إصلاح حال الرعية وعلاج مصاب الشعب .

أيها السادة .. إن النفاق هو الذى فعل بنا ما فعل .. إن المنافقين الذين يحيطون بأولى الأمر ويخفون عنهم الحقائق ويبدلون الأمور ، هم شر ما ابتلى به أولو الأمر وابتلى به الشعب ، هؤلاء هم الستار الزائف الذى يزين لأولى الأمر المساوئ .. ويجمل الشرور ، ويملؤهم رضا وارتياحًا .. ماذا تخشون إذًا من زوال النفاق ؟

أو بعد كل هذا تعتبرون من أزال من نفوسكم النفاق مجرمًا أثيمًا يستحق الحكم بالإعدام ؟

يا حضرات القضاة والمستشارين : إنى بحكمكم راض ، احكموا على بالموت إذا شئتم .. فحبذا الموت فى سبيل القضاء على النفاق .

وانتهيت من المرافعة وساد القوم سكون عميق ، ثم هبت بعده عاصفة من الهتاف والتصفيق من جمهرة المتفرجين ، وقال القاضى بصوت عميق بأن الحكم بعد المداولة ، ونهض القضاة وخلفهم أحد الحجاب يحمل الزجاجة إياها المليئه بالماء غير الملوّث والذى يقيهم شر الأخلاق .

ونظرت إلى الحاجب فى حسرة وأسى وتمنيت لو سقطت منه الزجاجة فتحطمت وسكب ماءُ بها حتى لا يجد القضاة ما يشربونه سوى الماء الممزوج بالأخلاق .. لقد كان هذا هو أملى الوحيد !

وناديت الحاجب ، فتوقف برهة ، ثم اقترب من القفص ، وهمست فى أذنه :

ـــ أنا فى عرضك .

وهز الرجل رأسه مستفهمًا عما أريد ، فأردفت قائلا :

ـــ روحى فى أيدك .

ورأيته ينظر إلىّ فى عطف شديد ويجيبنى قائلا :

ـــ لا تخف .. لست فى حاجة إلى رجاء ، فإنى أعرف ما تريد .. إنى أفهم كل شيء ، وكيف لا أفهم ، وقد شربت من مائك وزال من نفسى النفاق ؟

ومضت فترة من الوقت ، وأنا أدعو الله أن يصيب القضاة بظمأ شديد ، وأن ينجح الحاجب فى إبدال المياه التى بالزجاجة .

وأخيرًا عاد القضاة ، و لم أنظر إليهم ، بل نظرت إلى الحاجب ، وإلى الزجاجة فى يده ، فإذا بها كما هى ، لم تنقض قيد أنملة ، ورأيت الحاجب يهز رأسه فى حسرة وأسى .

وأسقط فى يدى وشعرت باليأس وأصابنى هبوط شديد ، ونظرت إلى صاحبى ، وقلت له فى حزن :

ـــ لا فائدة .

وكان التجهم يبدو على وجه القاضى والقسوة تشيع فى ملامحه ، وبدأ فى قراءة الحكم فى لهجة صارمة فقال :

ـــ إن جريمتكما كما قال المدعى ، هى شر ما عرف التاريخ ، وإن القانون لم يضع العقاب الذى يتعادل وخطورتها ، فإن حكم الإعدام أقل مما تستحقانه ، ولقد خطر لنا أن نعززه بالدعوات التى يطلبها النائب العام ، ولكنا خشينا ألا تستجاب دعواتنا .. وهكذا وجدنا أنه لا بد لنا من التفكير فى عقاب أشد قسوة ، وأخيرًا اهتدينا إليه .

إن حكم الإعدام سينقذكما من الحياة ، وتكون النتيجة أنكما تفران من الدنيا بعد أن فعلتما فعلتكما ، وتركتما البشر بلا نفاق يعانون من الأخلاق ومصائبها وبلاياها ، ولذا فقد رأينا أن أقسى عقاب يمكن أن نحكم به على مثلكما ، هو ألا نتيح لكما فرصة الفرار ، وأن نبقيكما فيها لتقاسيا من شرورها ولتتحملا نتائج عملكما .. وعلى ذلك فقد استقر رأينا على أن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلا لأن نحكم عليكما بالحياة .

وساد الصمت وتملكتنى دهشة شديدة ، ثم هجمت على صاحبى أوسعه عناقًا وتقبيلا ، وعلت من ناحية المتفرجين ضجة وصياح وهتاف وتصفيق .

ولم تمض لحظة حتى وجدت نفسى وصاحبى مطلقى السراح وقد حملتنا الجماهير على الأكتاف وساروا بنا يشقون الشوارع فى مظاهرة صاخبة وقد تعالت هتافاتهم :

ــ يحيى عدو النفاق ــ يسقط النفاق والمنافقون ــ لا نفاق بعد اليوم ــ نريد ماء الأخلاق ــ ليسقط أعداء الأخلاق .

ورأيت شعبة من المظاهرة تتجه لتريق الماء غير الملوث الذى احتفظ به أولو الأمر لينجيهم من وباء الأخلاق وليرغموهم على شرب الماء الملوث .

* * *

وهكذا سرت الأخلاق بين الناس ، وتبدد منهم النفاق وذهبت موجة الفزع التى أصابتهم عندما كشف القناع عن نفوسهم وظهرت لهم خبائثهم وخستهم ولؤمهم ، وأحسوا بما هم عليه من ضعة وسوء ، فتملكهم الخزى والخجل وأخذ كل منهم يستر عورة نفسه التى كشفها ضياع النفاق .

وبدأت الأمور تستقيم بعد فترة اضطراب فتولى الأمور فى البلد قوم غير منافقين ، وأجريت فيها لأول مرة انتخابات حرة ، وتكون برلمان بلا نفاق ، فأضحى الشعب حقًا هو مصدر السلطات فبدأ فى إصلاح حاله ، وإقاله عثرته ، ووضعت من أجله المشروعات النافعة المجدية ، وردت إليه حقوقه الضائعة ، وأخذ من غنيه حق فقيره ، وأطعم من جوع وكسى من عرى ، وأضحى يتمتع فى عيشه بما يتمتع به الآدميون .

وراجت تجارة صاحبى ، وأقبل الناس عليه يطلبون المزيد من الأخلاق .

وجلست فى الحانوت لأشاركه فى تجارته وأوزع على الناس شربات الشجاعة ، احتفالا بنجاحنا فى تبديد النفاق وفى إغراء الناس بالأخلاق .

ووجدت صاحبى يصر على ألا يتناول من الناس ثمن ما يبيعهم قائلا لهم : إن الحساب يوم الحساب ، فزاد بذلك من إقبال الناس عليه ، وتوافدوا على الحانوت من كل حدب وصوب ، ولم يطل بنا الأمر ، حتى كان كل ما بالحانوت من أخلاق قد نفد ولم يعد به سوى أكياس فارغه .

وجلست وصاحبى فى الليل أسائله : ماذا سنفعل عندما يقبل الناس علينا فى الغد فلا يجدون لدينا شيئًا من الأخلاق ؟

وهز صاحبى رأسه وأجاب :

ــ اطمئن .. إن الأخلاق لا تنفد أبدًا ، سأعوضهم عن المسحوق ببضع كلمات تصلحهم مدى الحياة .

وفى الصباح أقبل القوم على الحانوت يتزاحمون ويتصايحون ، وخرج صاحبى إليهم فأسكتهم باشارة من يده ، وسألهم فى رفق :

ــ ماذا تريدون ؟

فتصايح الناس : أخلاق ، شجاعة ، نزاهة ، إخلاص .

فعاد صاحبى يشير إليهم بالسكوت :

ــ صبرًا .. هذه كلها أشياء موجودة فى نفوسكم ، ولكنها راقدة فى غفوة ، لقد علاها الصدأ من طول الركود ، شيء واحد هو الذى يحركها ، وهو أن تتبعوا بإخلاص قول القائل : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . لا تفعل شيئًا إلا إذا تذكرت كيف تود أن يفعله معك غيرك .. ضع نفسك دائمًا مكان سواك ، ثم عامله كما تعامل نفسك ، إذا وددت أن يظلمك غيرك فاظلم .. إذا رغبت فى أن يشى بك غيرك فارتكب النميمة والوشاية .. إذا أردت أن يقسو عليك الناس فاقس عليهم .. إذا أردت أن تؤكل أموال أولادك إذا ما تيتموا فكل أموال اليتامى .. إذا أردت أن يخونك الناس فخنهم ، وإذا أحببت أن تهان فقدم الإهانة .

إيها الناس .. إذا أمكنكم أن يعامل بعضكم بعضًا كما تعاملون أنفسكم فكفى بهذا دينًا .. إن الدين عند الله المعاملة .

وصمت الناس برهة ، ثم وجدتهم يقبلون بعضهم على بعض فيتصافحون ويتعانقون ، ثم ينصرفون عنا شاكرين هانئين ، وقد علا البشر وجوههم ، وبدت عليهم القناعة والرضا .

وأخيرًا خلا المكان إلا منى ومن صاحبى ومن مخلوق آخر جلس ينظر إلينا فى هدوء وهو الفأر « شوشو » .

وأمسك صاحبي بالفأر فوضعه فى جيبه ثم مد يده إلىّ وشد على يدى وهمس فى أذنى : أستودعك الله ، لقد بلغت الرسالة ، أشكر لك معاونتى على تبليغها .

وشددت على يده وأجبته :

ـــ الشكر لك أنت .

وافترقنا .. وذهب كل منا فى طريقه وهو يهتف بى :

ـــ لا تنس هذا القول الذى تحفظونه عن ظهر قلب دون أن تحاولوا قط العمل به : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

* * *

هذه قصة النفاق والمنافقين وأرض النفاق ، قصة قد يكون فيها بعض الشطط وبعض الخيال ، ولقد كنت أنوى أن اختتمها كما يختم كتاب القصة عادة قصصهم الخيالية ، على أنها حلم ، وعلى أنى فتحت عينى فوجدت نفسى راقدًا على الأريكة فى الدار .

ولكن يخيل إلى أن ما بها من حقائق قد طغى على ما بها من خيال ، حتى بت أربأ بها ـــ وهى صيحة خالصة منطلقة من أعماق صدرى ـــ أن تكون مجرد حلم .. فاعذرونى إذا ما ختمتها عند هذا الحد ، واعذرونى إذا ما ادعيت أنها حقيقة واقعة . وأن خاتمتها أمنية تجيش فى صدرى .

يا أهل النفاق !! تلك هى أرضكم .. وذلك هو غرسكم .. ما فعلت سوى أن طفت بها وعرضت على سبيل العينة بعض ما بها .. فإن رأيتموه قبيحًا مشوها ، فلا تلومونى بل لوموا أنفسكم .. لوموا الأصل ولا تلوموا المرآة .

أيها المنافقون !! هذه قصتكم ، ومن كان منكم بلا نفاق فليرجمنى بحجر .

« تمت »

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٦ جنيهات

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه